# تفسير

# سورة الصف

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ

شهيد المحراب

آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم

١٥٨٢٦

هدية مؤسسة
تراث الشهيد الحكيم

# تفسير سورة الصف

# هوية الكتاب

اسم الكتاب: تفسير سورة الصف
الناشر: مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره
المطبعة: العترة الطاهرة
الطبعة: ٥٠٠٠ نسخة

محفوظة جميع الحقوق

لمؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره
النجف الأشرف
ربيع سنة ٢٠٠٧

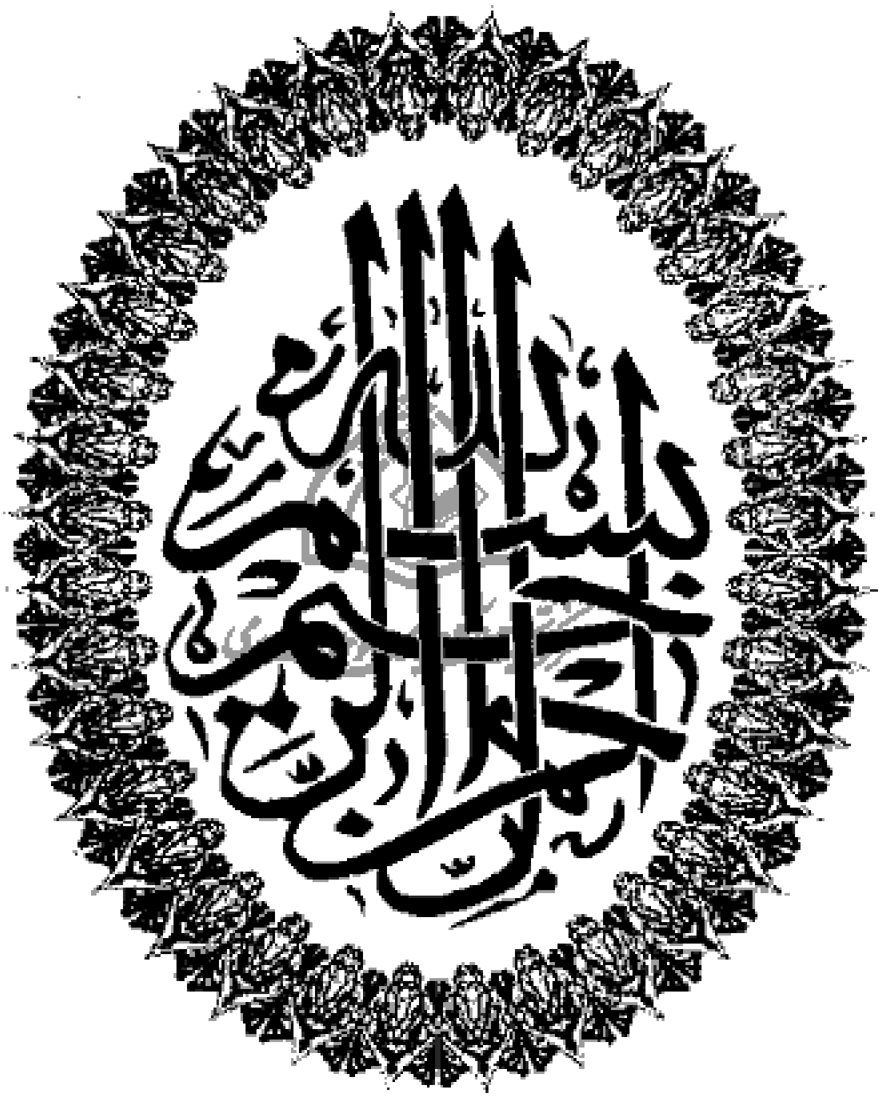
بسم الله الرحمن الرحيم

کتابخانه
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
شماره ثبت: ۳۱۰۷۴
تاریخ ثبت :

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

# تفسير سورة الصف

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

شهيد المحراب

آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم قدس سره

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

# المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين محمد وعلى آله النجباء الميامين.

لا شك أنّ القرآن الكريم نور وبرهان وموعظة من الله تعالى إلى عباده، وقد أجمل هذا الكتاب العزيز الكثير من الأحكام والتصورات والمفاهيم ممّا جعل السامع والقارئ لا يفقهه، وبالتالي لا يسعه التدبّر والتأمل فيه إلاّ بعد شرح وبيان؛ ومن أجل ذلك شاع بين المسلمين ـ ومنذ عهد النزول ـ تفسير القرآن الكريم وتدريسه، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وآله أول مفسّر له، ثمّ تلاه الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وهكذا عبد الله بن عباس، وابن مسعود، وغيرهم.

وإذا لاحظنا الساحة الفكرية فإنّنا لم نَرَ أيّ كتاب على الإطلاق ـ قديما أو حديثا ـ قد حظي بمثل ما حظي به القرآن الكريم من الاهتمام والبحث والتفسير والتحليل، وهذا بحدّ ذاته يكشف عن الكنوز المعرفية التي يحويها كتاب الله المجيد، والمعجزة الخالدة لرسوله صلى الله عليه وآله.

وممّا لاشك فيه أن لكل عصر خصائصه ومتطلباته ومشاكله لاسيما عصرنا الحاضر الذي شهد انفتاحاً وتطوّراً في جوانب الحياة الثقافية والعلمية والسياسية والاجتماعية.

وانطلاقاً من حاجة المجتمع إلى تفسير يلبّي حاجاته تبنّى المفكر

الشهيد الحكيم ﷺ منهجاً لتفسير القران الكريم يواكب العصر، ويساير حركة الفرد والمجتمع، وهذا ما نستوحيه من دروسه التفسيرية، وما أكّد عليه في أكثر من مناسبة.

ففي مقدّمة تفسير سورة الحمد قال ﷺ: «ومن هنا نجد أنّ مناهج التفسير وكتبه على كثرتها واختلاف أبعادها واهتماماتها وفي إيجازها وإطنابها وفي عصورها المتعدّدة في القرون الماضية وحتى عصرنا الحاضر، بقيت الحاجة قائمة لتفسير القرآن الكريم والتجديد فيه، سواء في المنهج والأسلوب، أو في الاستنباط والفهم، أو في التطبيق والتأويل»[1]. ثمّ ذكر ﷺ الفائدة التي تترتب على التجديد المذكور، بعد الإشارة إلى ما تعانيه الجاليات الإسلامية من ظروف الغربة وأخطار الذوبان في المجتمعات الغربية، حيث قال: «ولا شك أنّ القرآن الكريم الذي هو حي ويجري مجرى الشمس والقمر ـ كما يعبّر عنه أهل البيت ﷺ ـ يمثّل أفضل حلّ وعلاج لهذه المشكلات، بل أصبحت البشرية الآن تتطلع إلى الإسلام كمنقذ لها من آلامها ومحنتها، وكحل صحيح لمشاكلها وأزماتها، إذا تمكّنا من تفسيره وتيسيره للناس بالصورة التي تنطبق على حياتهم، واستنطاقه بالطريقة التي يُخاطب بها الناس في هذا العصر، ويواكب قضاياهم ومشاكلهم، كما كان يخاطب الناس في عصر نزوله، وتمكّن من أن يحدث فيهم ذلك التغير العظيم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور

---

(١) تفسير سورة الحمد: ٣ ــ ٤.

بإذن ربهم»[١].

وهذا الكتاب الذي بين يديك - عزيزي القارئ - هو دروس تفسيرية ألقاها سماحة آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم (قدس سره) على ثلة من طلاب العلوم الدينية كخطوة انتهجها (قدس سره) في هذا المضمار للوصول إلى الأهداف المنشودة...

ونظراً لأهمية هذه الدروس وحاجة الأمة لها، ارتأت مؤسسة تراث الشهيد الحكيم (قدس سره) تدوينها وتقويمها وفهرستها ومن ثمّ تحقيقها وإخراجها في كتاب تحت عنوان (تفسير سورة الصف).

وقد كانت لفضيلة الشيخ عدي السهلاني باشراف السيد محمود الحكيم جهودا كبيرة ودورا مهما في إعداد هذا الكتاب.

كما تشكر المؤسسة كل الأخوة الذين ساهموا في إخراج هذا النتاج العلمي إلى النور.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

نسال الله تبارك وتعالى أن يتغمد الشهيد السعيد برحمته الواسعة، وأن يجعل هذا السفر شفيعاً له يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

**دائرة التأليف والتحقيق**

**مؤسسة تراث الشهيد الحكيم (قدس سره)**

---

(١) المصدر السابق.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

# لمحة سريعة حول السورة

مركز تحقيقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قبل البدء بتفسير آيات سورة الصف المباركة[1] يَحسُن بنا تناول بعض الأمور المهمة المرتبطة بها، وهي:

## أولاً: اسم السورة

من المعروف أنّ للسّور القرآنية أسماء معينة، كسورة الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وغير ذلك. والسؤال الذي يُطرح: هل إنّ هذه التسمية قرآنية، أي شأنها في ذلك شأن الآيات التي وردت في القرآن الكريم، أو هي خارجة عن الوحي، وعن النص القرآني؟

المعروف بين المفسرين أنّ هذه الأسماء ليست قرآنية، وإنّما سُميّت بها السّور؛ باعتبار أنّ نزول القرآن الكريم كان بشكلٍ تدريجي، حيث كانت تنزل آية أو مجموعة من الآيات، تتناول موضوعاً من الموضوعات أو حدثاً من الأحداث أو قصة من القصص، ثمّ تنزل بعد ذلك آيات أُخرى، فعندما يريد النّبيﷺ إلحاق هذه الآيات بتلك

(١) ولهذه السّورة فضل عظيم، فقد ورد عن النّبيﷺ: ((ومن قرأ سورة عيسى كان عيسى عليه السلام مصلياً عليه مستغفراً له ما دام في الدّنيا، وهو يوم القيامة رفيقه)) تفسير جوامع الجامع: ٥٥١، الكشاف للزمخشري٤: ٥٢٩. وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ((من قرأ سورة الصف وأدمن قراءتها في فرايضه ونوافله صفّه الله مع ملائكته وأنبيائه المرسلين إن شاء الله)) ثواب الأعمال: ١١٨، وعن النّبيﷺ: ((ومن قرأ سورة عيسى كان عيسى عليه السلام مصلياً عليه مستغفراً له ما دام في الدّنيا، وهو يوم القيامة رفيقه)) تفسير جوامع الجامع: ٥٥١، الكشاف للزمخشري٤: ٥٢٩.

التي نزلت سابقاً لوجود الارتباط بينهما كان يطلب إلحاقها مثلاً بالسورة التي وردت فيها قصة البقرة، أو بالسورة التي وردت فيها قصة المائدة، وما أشبه ذلك، وبالتدريج تتكامل السّورة، وتأخذ نتيجة لهذه التسمية اسماً معيناً، فتُسمّى هذه السّورة بسورة البقرة، وتسمّى تلك بسورة آل عمران، وهكذا.

وأمّا سورة الصف فقد سُمّيت بهذا الاسم؛ لورود كلمة (الصّف) فيها ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾[1]، وهي كلمة قليلة الاستعمال في القرآن الكريم[2]، فأخذت السّورة هذا الاسم المبارك.

وقد نجد أنّ بعض السّور القرآنية لها أكثر من اسم؛ لوجود أكثر من مناسبة تقتضي التسمية، كما هو الحال في هذه السّورة، فمع أنّها معروفة باسم سورة الصّف إلا أنها قد تُسمّى بسورة الحواريين[3]؛ لورود الحديث في آخرها عن الحواريين[4]، أو بسورة عيسى عليه السلام؛

---

(١) الصف:٤.

(٢) وردت هذه المفردة في القرآن الكريم في كل من سورة الكهف ﴿**وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا...**﴾ الكهف:٤٨، وسورة طه ﴿**فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى**﴾ طه:٦٤، وسورة الصافات ﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا**﴾ الصافات:١، وسورة النبأ ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا**﴾ النبأ:٣٨، وسورة الفجر ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ الفجر:٢٢، مضافاً إلى سورة الصف المباركة.

(٣) راجع تفسير مجمع البيان٩: ٤٥٩، والتفسير الصافي٥: ١٦٨.

(٤) قال الشيخ الطوسي: «اختلفوا في تسميتهم حواريين على ثلاثة أقوال، قال سعيد ←

لوجود الإشارة فيها إلى بشارته عليه السلام بنبينا محمد صلى الله عليه وآله، وإلى دعوته للحواريين في أن يكونوا أنصاراً له.

## ثانياً: زمن النزول

وقع الخلاف بين المفسرين[1] في انتساب هذه السورة إلى القسم المكّي أو القسم المدني، مع أنّ المعروف بين المفسرين أنّها من القسم المدني[2].

وقضية تقسيم القرآن الكريم إلى المكّي والمدني من القضايا المرتبطة بعلوم القرآن الكريم، ولها آثار في فهمه، وبالخصوص في فهم حركة التغيير التي مارسها تجاه المسلمين.

ففي الوقت الذي قسّم فيه العلماء والمفسرون القرآن الكريم إلى

ابن جبير: سمُّوا بذلك لنقاء ثيابهم. الثاني: قال ابن جريج عن أبي أرطاء: أنّهم كانوا قصارين يبيضون الثياب. الثالث: قال قتادة، والضحاك: لأنّهم خاصة الأنبياء، يذهب إلى نقاء قلوبهم كنقاء الأبيض بالتحوير» التبيان٢: ٤٧٣.

(١) قال القرطبي في تفسيره: «سورة الصف مدنية في قول الجميع، فيما ذكر الماوردي. وقيل: إنّها مكية، ذكره النحاس عن ابن عباس» تفسير القرطبي١٨: ٧٧.

(٢) وهذا ما ذهب إليه علي بن إبراهيم القمي في تفسيره٢: ٣٦٥، والشيخ الطبرسي في تفسير مجمع البيان٩: ٤٥٩، والفيض الكاشاني في التفسير الصافي٥: ١٦٨، وأيضاً في التفسير الأصفى٢: ١٢٩٨، والسيد الطباطبائي في تفسير الميزان١٩: ٢٤٧، وابن جرير الطبري في جامع البيان٢٨: ١٠٦، وغيرهم. وهناك من ذهب إلى مكيّتها كابن حزم في كتابه الناسخ والمنسوخ:٦٠.

مكّي ومدني اختلفوا في خلفية هذا التقسيم على اتجاهات ثلاثة:

**الاتجاه الأول:** يقوم على أساس مراعاة أشخاص المخاطبين، فالمكّي ما وقع خطاباً لأهل مكّة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة؛ وذلك لأنّ الخطاب القرآني إذا كان مع أهل مكّة جاء بصيغة **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾**؛ لأنّهم غير مسلمين، وكلمة الناس تشمل المسلم وغيره، وقد ورد هذا الخطاب بكثرة في القرآن الكريم[1]، وأمّا إذا كان الخطاب القرآني مع أهل المدينة جاء بصيغة **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**[2]؛ وذلك لاستقرار الإسلام في المدينة المنوّرة، وتحوّل المجتمع فيها إلى مجتمع إسلامي مؤمن.

ومن هذه السور التي جاء فيها الخطاب بصيغة **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** سورة الصف المباركة، فقد ورد في الآية الثانية منها قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾**.

---

(١) كما في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾** يونس:٥٧، وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾** فاطر:٣، وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾** فاطر:١٠.

(٢) كما في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** البقرة:١٧٢، وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾** آل عمران:١٠٠، وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾** الأنفال:٢٠، وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾** التوبة:١١٩، وغيرها من الآيات.

**الاتجاه الثاني:** الأخذ بالناحية المكانية مقياساً للتمييز بين المكّي والمدني، فكلّ آية يُلاحظ مكان نزولها، فإن كان النّبيﷺ حين نزولها في مكّة سُمّيت مكية، سواء كان الخطاب فيها لعامة الناس أم للمؤمنين خاصة؛ وذلك لأنّ المدّة التي كان فيها النّبيﷺ في مكّة كان هناك أيضاً جماعة من المسلمين والمؤمنين قد آمنوا بالإسلام، وسواء كان نزولها قبل استقرار المجتمع الإسلامي، وقيام الدولة الإسلامية في المدينة أم بعد ذلك، كما هو الحال في بعض الآيات التي نزلت على رسول اللهﷺ في حجة الوداع، وكان النّبيﷺ حينها في مكّة[1]، حيث تُعتبر مثل هذه الآيات آيات مكية.

**الاتجاه الثالث:** وهو الاتجاه السائد، وتفسيره قائم على أساس الترتيب الزماني للآيات، واعتبار الهجرة حداً زمنياً فاصلاً بين مرحلتين، فكلّ آية نزلت قبل الهجرة فهي مكّية، وكلّ آية نزلت بعد الهجرة فهي مدنيّة وإن كان مكان نزولها مكة، كالآيات التي نزلت على النّبيﷺ حين كان في مكّة وقت الفتح[2]، فالمقياس هو الزمان لا المكان. والملحوظ في خلفيّة هذا التقسيم حركة التغيير في المجتمع الذي نزل فيه القرآن الكريم، من دون فرق بين كون هذه الآية نزلت

---

(١) كقوله تعالى في سورة البقرة آية ٢٨١: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾، راجع تفسير مجمع البيان١: ٧٤.

(٢) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ النساء:٥٨.

في مكّة أو في المدينة، أو بين كون المُخاطب بها خصوص المؤمنين والمسلمين أو عامة الناس. وهذا الاتجاه هو الأرجح.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ سورة الصف من السّور المدنية؛ وذلك لأنّ المضامين التي تناولتها تتناسب مع الفترة المدنية(١)، أي فترة ما بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وآله، حيث كان من أبرز هذه المضامين الجهاد في سبيل الله، بل أكثر من ذلك، فهي لم تتناول أصل الجهاد فقط، وإنّما تناولت الجهاد المتطوّر، ومن الواضح أنّ قضية الجهاد من المسائل التي طُرحت بعد هجرة النّبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة، وبالتالي يمكن وصف هذه السّورة بأنّها مدنيّة، وإلى ذلك ذهب أكثر المفسرين.

## ثالثاً: سورة الصف من المفصّلات

تُعتبر سورة الصف من القسم المفصّل في القرآن الكريم، حيث يُقسّم القرآن الكريم بحسب طول السّور وقصرها ـ عادةً ـ إلى أقسام ثلاثة:

١ـ السّور الطوال، كسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة.

٢ـ السّور القصار، وهي التي تقع ـ عادةً ـ في آخر جزء من أجزاء القرآن الكريم بحسب الترتيب المتداول بين المسلمين، كسورة التوحيد

---

(١) سيأتي في الجهة الثالثة من المقطع الرابع من هذه السورة عدّة شواهد على أنّها قد نزلت في عصر متأخر نسبياً من المرحلة المدنيّة لنزول القرآن الكريم، والشواهد بصورة إجمالية هي: الأول: التعرّض إلى الجهاد بإطاره الواسع. الثاني: سبب نزول قوله تعالى: ﴿..هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. الثالث: سياق الآيات.

والنصر والكوثر، وما أشبه ذلك.

٣ـ المفصّلات، وهي ما يكون لها من حيث الطول والقصر وضع وسطي، وتعتبر سورة الصف من هذا القسم.

## رابعاً: سورة الصف من المسبّحات

تُسمّى هذه السّورة كجملة من السّور الأُخرى بـ (المسبحات)؛ وذلك لاستهلالها بالتسبيح لله سبحانه وتعالى، فالمسبحات هي مجموعة السّور التي تبدأ بـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ أو ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، كسورة الحديد والحشر والجمعة والتغابن وهذه السّورة ـ أيضاً ـ التي قال فيها تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

ويعتبر هذا الأُسلوب أحد الأساليب التي اتبعها القرآن الكريم في كثير من سوره، وكان له تأثير كبير من الناحية الروحية والنفسية في الجماعة التي نزل فيها، وهو أحد الأساليب التي امتاز بها هذا الكتاب الإلهي، فقد جاء الاستهلال في القرآن الكريم؛ من أجل تهيئة السامع والتمهيد للدخول في الموضوعات والإثارات التي يُراد ذكرها، وذلك لأنّ المشركين في فترة ما كانوا عندما يُقرأ القرآن الكريم يأخذون برفع أصواتهم وباللغو؛ لمنع الناس وأنفسهم من الإنصات لآياته العظيمة.

وقد جاء هذا الاستهلال على أساليب وأشكال متعدّدة، ففي بعض السّور القرآنية جاء بصورة حروف مقطّعة[2]، من قبيل سورة البقرة

---

(١) الصف: ١.

(٢) وقع الكلام بين المفسرين في المراد من هذه الحروف المقطّعة؟ حيث اتّجه←

وآل عمران اللتان استُهلتا بقوله تعالى: ﴿الم﴾، ومن قبيل سورة الأعراف التي استُهلت بقوله: ﴿المص﴾، وما أشبه ذلك.

وفي بعض السّور جاء على شكل القسم، من قبيل ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ﴾(١)، ومن قبيل ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾(٢)، فالقسم هنا بنفسه يُلفت نظر الإنسان إلى أنّ هناك شيئاً مهماً يُراد بيانه وإلقاؤه.

وأحياناً يكون الاستهلال بطرح إثارة، بحيث تجعل السامع مهيأً للاستماع، من قبيل ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٣)، فعندما تأتي آية بهذا المضمون تجعل الإنسان مهيأً للاستماع لماهية هذا الأمر الإلهي الذي أتى، والذي لا يُراد استعجاله.

وقد يأتي الاستهلال بالحديث عن ظاهرة كونية شاملة وغريبة، بحيث تجعل الإنسان مستعداً لاستماع المضمون القرآني، والإنصات إليه، والتأمّل فيه، وهذا النوع من الاستهلال هو الوارد في هذه السورة الكريمة التي اُفتتحت بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فنُسب التسبيح ـ الذي هو تنزيه لله سبحانه وتعالى ـ

---

⇐بعضهم إلى أنّها عبارة عن قضايا متشابهة لا يعلمها إلاّ الله سبحانه وتعالى والراسخون في العلم، واتّجه بعض آخر إلى أنّ المراد منها جعل السامع ــ الذي يُراد إلفات نظره إلى مضمون القرآن الكريم ــ إنساناً مهيّئاً نفسياً وروحياً لاستماع الآيات القرآنية، وقد تكون هذه النظرية أقرب النظريات إلى الواقع. منه‌ﷺ.

(١) العصر: ١ ــ ٢.

(٢) الطارق: ١.

(٣) النحل: ١.

بهذا الشكل الشامل العام لكل ما هو موجود في هذا الكون، وهي ظاهرة كونية غريبة قد لا يستوعبها الإنسان، وستأتي الإشارة إليها لاحقاً.

## خامساً: المضمون العام للسورة

تعرّضت السّورة المباركة إلى مجموعة موضوعات ذات أهمية خاصة في حياة المسلمين، وتتمركز هذه الموضوعات حول أمرٍ مهم يحظى بأهمية كبيرة في السّورة، ومن المواضيع المهمة جداً في عصر الرسالة، وفي ظروفنا الحالية، وهو موضوع الجهاد في سبيل الله، الذي يُجسّد أعلى مراتب الإيمان والالتزام والطاعة لله سبحانه وتعالى ولرسوله.

ومن الترابط الموجود بين موضوعات السّورة يمكن أن نصل إلى فهم إجمالي للأسلوب الذي يتبعه القرآن الكريم، حيث يتناول مختلف الموضوعات والقضايا، ويجعلها تصب في اتجاه هدف واحد؛ وذلك لأنّ الهدف الأساسي من القرآن الكريم هو إيجاد عملية التغيير في المجتمع، والوصول به إلى مستوى عالٍ من التكامل.

فأول ما تناول القرآن الكريم ـ في هذه السّورة ـ قضية كونية دقيقة ومهمة، وهي تسبيح ما في السماوات والأرض لله سبحانه وتعالى، والتي تناولها أيضاً في مواضع أخرى من القرآن.

ثمّ تناول قضية روحية ونفسية وأخلاقية مهمة تُواجه المسلمين في عملية التغيير، وهي عدم تطابق الأقوال مع الأفعال، وفي هذه القضية الأخلاقية جوانب عديدة ستتعرّض لها، وقد تناولها القرآن الكريم كقضية مركزية في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا**

تَفْعَلُونَ﴾[١].

بعد ذلك تناول قضية أُخرى مهمة جداً في الجهاد، وهي مسألة التنظيم والنظام، والاهتمام بهما في العمل العسكري والجهادي، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[٢].

بعدها تعرّض إلى علاقة الأمة برسول الله صلى الله عليه وآله، وموقفها منه، وأشار القرآن إلى ذلك من خلال الإشارة إلى موقف بني إسرائيل من موسى عليه السلام؛ باعتباره النّبي المتميّز في حركة الأنبياء، ولذلك تعرّض القرآن الكريم بشكل مفصّل لحياته ومواقفه وأدواره.

وتناول بعد ذلك قضية بشارة عيسى عليه السلام بالنّبي الخاتم صلى الله عليه وآله، وحقانية نبوّته، وقضية الدين الحقّ الذي يدعو إليه صلى الله عليه وآله، وظهوره على كل الأديان الأخرى، هذه القضية التي تُعطي تصوّراً ورؤيةً لحركة الإسلام في التأريخ، وللأهداف التي يمكن أن تحققها في مساره.

وتعرّض القرآن الكريم بعد ذلك إلى التجارة مع الله سبحانه وتعالى، عن طريق الجهاد بالأموال والأنفس، والتي ستحقق ـ هذه التجارة ـ ربحين وهدفين للإنسان:

**الأول:** الوصول بالإنسان إلى أعلى مدارج الكمال، حيث يكون جزاؤه الجنات والمساكن الطيبة.

**الثاني:** النصر في الحياة الدّنيا، وغلبة الحقّ للباطل، فهذه الغلبة

---

(١) الصف:٢.

(٢) الصف:٤.

مرهونة ومرتبطة بالتجارة التي من دونها لا يمكن تحقيق النصر في حركة ومسيرة الإنسان.

ويختم القرآن الكريم الموضوعات بموضوع دعوة النبي عيسى عليه السلام الناسَ في عصره ليكونوا أنصاراً لله، واستجابة الحواريين لهذا النداء، وكيف أنهم تمكّنوا مع قلة عددهم من تحقيق النصر على من كفر بدعوة عيسى عليه السلام، أو بدعوة الإسلام.

وقد رُبطت آيات السّورة المباركة بطريقة الخطاب، ففي بدايتها كان الخطاب للمؤمنين **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾**، وهكذا استمرت السّورة في عرض بعض الصّور إلى أن استأنفت الخطاب مرّة أخرى بـ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**، في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**، ثم بعد ذلك جاء المقطع الأخير من السّورة الذي تحدث عن دعوة الرسول صلى الله عليه وآله إلى النصرة، واستأنفت فيه الخطاب مرّة ثالثة بـ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**، حيث قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ...﴾**.

## تقسيم البحث

يُقسّم البحث في السورة المباركة ـ بحسب الموضوعات التي تناولتها ـ إلى خمسة مقاطع، وهي:

**المقطع الأول:** قوله تعالى: **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا**

تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

المقطع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۞ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

المقطع الثالث: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

المقطع الرابع: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

المقطع الخامس: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

ويتمّ تناول كل مقطع في جهات ثلاث:

**الجهة الأولى:** نتناول فيها بيان المفردات المهمة الواردة في المقطع، بحيث من خلال ذلك البيان يُلقى الضوء على تفسير آيات المقطع.

**الجهة الثانية:** نتناول فيها تفسير آيات المقطع، وتوضيحها، وبيان الأقوال المهمة الواردة في تفسيرها، وتعيين الصحيح منها.

**الجهة الثالثة:** نتناول فيها عن بعض المواضيع والأبحاث التي يمكن أن تستفاد من آيات المقطع بصورة عامة.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

# المقطع الأول

## التأكيد على القتال المنظّم

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[1].

تناول القرآن الكريم في هذا المقطع تسبيح ما في السماوات والأرض لله سبحانه وتعالى، وقضية عدم تطابق الأقوال مع الأفعال، وقضية التنظيم في العمل العسكري والجهادي، ومحبوبية ذلك عند الله سبحانه وتعالى، ويقع البحث في ثلاث جهات:

## الجهة الأولى: بحث المفردات

هناك بعض المفردات في المقطع الشريف من الضروري بحثها، وهي:

**المفردة الأولى:** مفردة (التسبيح) الواردة في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

التسبيح لغةً: هو التنزيه لله سبحانه وتعالى[2]، أي عندما يقول الإنسان: سبحان الله، فكأنه يقول: أنزّه الله سبحانه وتعالى عن

---

(١) الصف: ١ ـ ٤.

(٢) قال ابن الأثير: «وأصل التسبيح: التنزيه والتقديس والتبرئة من النقائص، ثمّ استعمل في مواضع تقرب منه اتساعاً. يُقال: سبحته أُسبحه تسبيحاً وسبحاناً، فمعنى سبحان الله: تنزيه الله، وهو نصب على المصدر بفعل مضمر، وكأنّه قال: أبرىء الله من السوء براءة. وقيل معناه: التسرّع إليه والخفة في طاعته. وقيل معناه: السرعة إلى هذه اللفظة» النهاية في غريب الحديث٢: ٣٣١.

الشريك، وعن كل عيب ونقص وشائبة. ولا شك أنّ افتراض وجود الشريك لله تعالى يُعتبر نقصاً في كماله ووحدانيته.

والتنزيه الذي يُطرح هنا يُطرح على لسان كل ما هو موجود في السّماوات والأرض، فكأنّ كل هذه الموجودات القائمة التي يشاهدها الإنسان تنطق بتنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل عيب ونقص.

وقد جاء هذا الأسلوب ـ الذي هو عبارة عن التسبيح، والمعبّر عنه بالتنزيه ـ في القرآن الكريم بشكل عام بصيغتين:

**الصيغة الأولى:** هي التي يُنسب فيها التسبيح إلى الله تعالى بشكل مباشر، كما في الآية الأولى من هذا المقطع، وقوله تعالى: **﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[1]، وقوله تعالى: **﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾**[2]، وقوله تعالى: **﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾**[3]، وقوله تعالى: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾**[4]، إلى غير ذلك من الآيات التي يُنسب فيها التسبيح بشكل مباشر إلى الله سبحانه وتعالى، سواء كانت النسبة إلى كلمة (الله) أم إلى كلمة (ربنا) أو إلى الضمير الراجع إلى الله، من قبيل **﴿سبحانك اللهم﴾**.

---

(١) يونس:١٠.

(٢) الروم:١٧.

(٣) الإسراء:١٠٨.

(٤) الأنبياء:٢٢.

**الصيغة الثانية:** وهي الصيغة التي لا يُنسب فيها التسبيح إلى الله بشكل مباشر، من قبيل الصيغة التي ينسب فيها التسبيح إلى حمد الله، كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[٢].

ومن قبيل الصيغة التي يُنسب فيها التسبيح إلى اسم الله، كقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾[٤]، وأيضاً ما ورد على لسان الملائكة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥].

وتختلف الصيغة الثانية بكلا شقيها إلى حدّ ما عن الصيغة الأولى[٦]؛

---

(١) طه:١٣٠.

(٢) غافر:٥٥.

(٣) الواقعة:٧٤.

(٤) الأعلى:١.

(٥) البقرة:٣٠.

(٦) وقد ذكر الشهيد الحكيم في تفسير سورة الحمد ما يلي: «الفرق بين الشكلين: هو أنّ المراد من التسبيح في شكله الأول ـ أي التسبيح المنسوب بصورة مباشرة إلى الله سبحانه وتعالى ـ هو تنزيه الله عزّ وجلّ بحسب مضمون التسبيح وواقعه، أي تسبيحه بالحمل الشايع الصناعي ـ كما يقال في علم المنطق ـ فإذا أردنا أن ←

لأنّ الهدف من نسبة التسبيح إلى الله سبحانه وتعالى ـ كما في الآية الأولى من هذه السورة المباركة ـ تنزيهه عزّ وجلّ عن النواقص والعيوب، وعن أيّ شيء يخلّ بالكمال، وبالخصوص التنزيه عن الشريك؛ باعتبار أنّ مسألة الشريك كانت من القضايا المطروحة في الجاهلية، وقد اهتمّ القرآن الكريم بمعالجة هذا الجانب وهذا اللون من الاعتقاد الفاسد.

وأمّا عندما يُنسب التسبيح إلى حمد الله أو إلى اسم الله فيُراد منه الثناء على الله سبحانه وتعالى، فيكون مضمون التسبيح هنا هو مضمون الحمد والثناء، والتأكيد على صفاته الخيرة.

وتأتي قضية التسبيح في القرآن الكريم في عِداد القضايا المهمة التي اهتمّ بها القرآن الكريم في أكثر السور القرآنية، للتأكيد على عالم

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

❖لذكر واقع التنزيه والتسبيح لله تبارك وتعالى فلابدّ أن نأتي بالتسبيح منسوبا إليه مباشرة ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ...﴾، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ...﴾، ويكون العبد حينئذ في مقام تنزيه البارئ عزّ وجلّ تنزيها واقعياً خارجياً. وهذا النوع من التسبيح تسبيح تكويني حاكم في كل الموجودات أرادت أو لم ترد ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وأمّا إذا أراد العبد تنزيه البارئ عزّ وجلّ ضمن شعيرة معينة وضمن إطار وشكل معين للتنزيه والتسبيح بحيث يُؤخذ الشكل والصورة والصيغة والهيكلية بعين الاعتبار، أي تسبيحه (بالحمل المفهومي)، ولا يُكتفى فيه بمجرد واقعه بل ينظر فيه إلى مفهوم التسبيح ولا يقتصر على مضمونه، فحينئذ تستخدم كلمة (الاسم)، وينسب إليها التسبيح لتحصيل هذا الأمر ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾» تفسير سورة الحمد:١٦٢.

الغيب، وربط الإنسان به، والتأكيد على المثال الذي يُجسّد عالم الغيب، حيث تُعتبر هذه القضية من ضمن القضايا الأساسيّة التي استهدفها القرآن الكريم؛ لأنّ الإنسان في حياته المادية يعيش عالم الشهادة وعالم المادة، فيرى ويبصر ويسمع ويحس بكل جوانب عالم المادة، ولا يحتاج إلى إلفات نظر دائم إلى وجود هذا العالم.

أمّا عالم الغيب فهو عالم غائب عن الإنسان الموجود في الحياة الدّنيا؛ ولهذا قد يغفل الإنسان عنهُ، ويكون بعيداً عنه، وبما أنّ عالم الغيب هو العالم الحقيقي لوجوده وحياته نجد أنّ القرآن الكريم اهتمّ به كثيراً، وألفت إليه النظر كثيراً، وأكّد على ربط الإنسان به. والتسبيح لله وتنزيهه عن الشريك هو ـ في الواقع ـ نوع من أنواع الربط بذلك العالم. **المفردة الثانية:** مفردة (المقت) الواردة في قوله تعالى: **﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾**.

المقت لغةً: أشد البغض[1]، فمن بغض شيئاً ما بغضاً شديداً فهو ممقوت عنده.

وقد وردت كلمة (المقت) في القرآن الكريم في آيات متعدّدة، واستعملها القرآن الكريم في الموارد التي تكون بحسب طبيعتها مبغوضة بغضاً شديداً لله سبحانه وتعالى، منها: مورد الحديث عن الزواج من نساء الآباء الذي كان معروفاً في الجاهلية، حيث كان الإنسان في الجاهلية إذا تُوفي وعنده عدّة زوجات فأبناؤه يرثون زوجاته كما يرثون أمواله، ويتصرفون فيهن، وأحيانا يتزوجوهنّ ـ هذا إذا لم

(١) النهاية في غريب الحديث٤: ٣٤٦.

تكن هذه الزوجة أمّاً للولد ـ فجاء الإسلام وحرّم هذه السنّة الجاهلية، وعبّر عنها بأنّها فاحشة ومقتاً وساء سبيلا[1].

ووردت أيضاً في تصوير الحالة التي يشعر بها المشرك والكافر يوم القيامة، عندما يُحشر أمام الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ**﴾[2]، فهذه الحالة هي من اشدّ الحالات التي يمكن أن يستشعرها الإنسان في ذلك الوقت.

كما استُخدمت المفردة في حقّ أُولئك الذين يُجادلون في آيات الله، ولا يؤمنون بها، وهم الكفّار، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾[3]، ومن الواضح أنّ الكفر هو أشدّ الأمور بغضاً عند الله سبحانه وتعالى.

**المفردة الثالثة:** مفردة (القتال في سبيل الله) الواردة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾.

يُعتبر مفهوم القتال في سبيل الله من المفاهيم الواضحة والمعروفة في القرآن الكريم، وقد فرضه الله سبحانه وتعالى على عباده في كل النبوات والرسالات، وذلك في مرحلة معينة من مراحل تطوّر الرسالة

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ النساء:٢٢.

(٢) غافر:١٠.

(٣) غافر:٣٥.

وتقدُمها، والقتال في سبيل الله لا يأتي إلاّ بعد عدّة مراحل، وهي:

**المرحلة الأولى:** إقامة الحجة الكاملة من قبل الله سبحانه وتعالى على الناس، عن طريق البلاغ والبيان والدعوة إليه سبحانه وتعالى.

**المرحلة الثانية:** وجود ونمو قاعدة للرسالة الإلهية، بحيث يمكن لهذه القاعدة الدخول في صراع ومواجهة مع الكافرين والمنافقين والمرتدّين، حسب ما يُواجهه المسلمون.

**المرحلة الثالثة:** أن يكون الموقف العام للمشركين هو الوقوف بوجه المسيرة الطبيعية للرسالة والدعوة وعرقلتها، بحيث تبقى الرسالة من دون اللجوء إلى أسلوب الجهاد والقتال في سبيل الله محدودة ومحجّمة ومُضيّق عليها، ولا يمكن لها النمو أو التطوّر عن طريق البلاغ والبيان والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

فمع توفّر هذه المراحل والحدود الثلاثة يكون القتال في سبيل الله فرض؛ ولذلك نجد أنّ الجهاد إنّما فُرض في مرحلة المدنيّة، أي بعد أن أقام النّبيﷺ الحجة على المشركين في مكّة، وبعد أن تحوّل المشركون إلى عائق يُعيق تطوّر الرسالة وانتشارها، بحيث لم يكن من الممكن انتشار الرسالة مع وجود هذه المواجهة من قبل المشركين ضد النّبيﷺ، وضد رسالته.

وكذلك فُرض الجهاد بعد أن أصبح لهذه الرسالة قاعدة يمكن الاستناد إليها، وهم المسلمون الذين كانوا يتواجدون في المدينة المنوّرة التي يمكن أن تنطلق منها الرسالة. فعند ذلك فرض الله تعالى الجهاد والقتال ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا**

﴿تَعْلَمُونَ﴾[1]، حيث وردت هذه الآية في سورة البقرة التي تُعتبر من أوائل السُور التي نزلت بعد الهجرة[2].

**المفردة الرابعة:** مفردة (الصف) الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾.

الصف لغةً: جعل الأشياء في وضع مستقيم ومتساوي[3]، كما لو وُضع النّاس بعضهم إلى جانب البعض الآخر بشكل مستقيم، أو عندما تُزرع الأشجار بعضها إلى جانب البعض الآخر، فأيُ شيءٍ متكثّر ومتعدّد عندما يُوضع بعضه إلى جانب البعض الآخر بشكل مستقيم، فالناتج عن هذا الوضع يُعبّر عنه بالصف.

وتُعتبر مفردة الصف من المفردات المهمة الواردة في هذه الآية الكريمة، والتي سُميت هذه السورة بها، وهي من المفردات التي قلّما ذُكرت في القرآن الكريم[4].

**المفردة الخامسة:** مفردة (مرصوص) الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) البقرة:٢١٦.

(٢) تعتبر سورة البقرة مدنية إلاّ آية واحد منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ البقرة:٢٨١، راجع تفسير الصافي١: ٩٠.

(٣) «الصف: السطر المستوي من كل شيء معروف، وجمعه صفوف. وصففت القوم فاصطفوا إذا أقمتهم في الحرب صفاً. وفي حديث صلاة الخوف: أن النّبيّ ﷺ كان مصاف العدو بعسفان أي مقابلهم. يقال: صف الجيش يصفه صفاً وصافه، فهو مصاف إذا رتّب صفوفه في مقابل صفوف العدو» لسان العرب٩: ١٩٤.

(٤) راجع هامش (٢) صفحة١٤.

اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

المراد من المرصوص: هو الإحكام والإتقان في التناسق بين الأشياء[1]، فالأشياء عندما تكون متعدّدة وبعضها إلى جانب البعض الآخر، تارة يكون هناك خلل أو فراغ فيما بينها، بحيث يمكن نفاذ الفساد منها، وأخرى يكون الترابط والتناسب بينها محكماً ومتقناً، بحيث لا ينفذ منه الفساد ولا الخلل، وهذا المعنى الأخير هو المراد من المرصوص.

وأصل هذه الكلمة مأخوذ من الرصاص؛ للتماسك الموجود فيه، حيث لا يوجد في هذا المعدن أي فراغات أو خلل. واشتقاق مرصوص منه إنّما هو للبيان والكناية عن الإحكام والإتقان والوثوق في الأشياء[2].

## الجهة الثانية: البحث التفسيري

نتناول في هذه الجهة تفسير الآيات الكريمة التي يتكون منها المقطع الشريف.

---

(١) «رصص: رصّ البنيان يرصّه رصّاً، فهو مرصوص ورصيص، ورصصه ورصرصه: أحكمه وجمعه وضم بعضه إلى بعض. وكل ما أحكم وضم فقد رص. ورصصت الشيء أرصه رصاً أي ألصقت بعضه ببعض، ومنه: بنيان مرصوص، وكذلك الترصيص، وفي التنزيل: كأنهم بنيان مرصوص. وتراص القوم: تضاموا وتلاصقوا، وتراصوا: تصافّوا في القتال والصلاة». لسان العرب٧: ٤٠.

(٢) راجع معجم مقاييس اللغة٢: ٣٧٤، ولسان العرب٧: ٤١.

## الآية الأولى: التسبيح والعزة والحكمة

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تتكون الآية من فقرتين:

**الفقرة الأولى:** قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. أشارت الفقرة الكريمة إلى تسبيح وتنزيه كل ما في السماوات والأرض لله سبحانه وتعالى.

وقد يُطرح سؤال هنا عن حقيقة تسبيح المخلوقات الموجودة في السماوات والأرض، فهل تسبيحها كتسبيح الإنسان عندما يقول مثلاً: سبحان الله، أو: لا إله إلاّ الله؟

ثم إذا كان التسبيح صادر من الإنسان على كل حال باعتباره أحد الموجودات في الأرض فلماذا إذن يتوجّه الأمر له بتسبيح الله، فيقال له: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[1]، أو ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾[2].

إنّ الفقرة الشريفة ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أشارت إلى تسبيح الموجودات في السماوات والأرض، ولم تُشر إلى تسبيح نفس السماوات والأرض، ومن ناحية أخرى اُستُخدم فيها اسم الموصول (ما) الذي يُستعمل في اللغة لغير العاقل عادة، على خلاف اسم الموصول (مَن) الذي يستعمل ـ عادةً ـ للعاقل، وبالتالي قد يُفهم من هذه الفقرة أنّ الذي يسبح لله سبحانه وتعالى هو

---

(١) الواقعة:٧٤.

(٢) الحجر:٩٨.

خصوص الموجودات غير العاقلة.

ولكن هذا غير صحيح؛ إذ توجد آيات أُخرى تُشير إلى اشتراك جميع الموجودات في السماوات والأرض في هذا التسبيح، سواء كانت عاقلة أم غير عاقلة، كقوله تعالى: **﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾**[1]، ففي هذه الآية شمول.

فيتضح من ذلك، أنّ هناك نوعين من التسبيح، هما:

**الأول: التسبيح الذاتي**

هو التسبيح الذي تُمارسه كل الوجودات العاقلة وغيرها، وبما أنّ هذه الوجودات هي مخلوقة لله سبحانه وتعالى فهي وبشكل ذاتي - سواء أرادت أم لم ترد - تسبح لله تعالى، والآية الكريمة تنصّ على ذلك، بحيث تفرض تسبيح كل ما في السماوات والأرض له سبحانه وتعالى، سواء كان جماداً أم نباتاً أم حيواناً.

وعليه فالتسبيح الذاتي معناه شعور الموجود وبحسب وجوده في هذا العالم بالحاجة لله سبحانه وتعالى، وبالنقص تجاهه تعالى، فإذا أردنا فحص أيّ موجود نرى نقصه واتّصافه بصفات متغيّرة يوماً بعد يوم، والشعور بالنقص يُعبّر عن وجود موجود كامل، كما أنّ الشعور بالحاجة يُعبّر عن وجود موجود غني قادر على سدّ هذه الحاجة؛ وهذا بنفسه نوع من أنواع التسبيح والتنزيه لله سبحانه وتعالى.

---

(١) الإسراء:٤٤.

إذن، التنزيه هنا عبارة عن دلالة كل الموجودات والمخلوقات على وجود الله سبحانه وتعالى، وعلى وجود الخالق والمُدبّر والمُعطي، وعلى الوجود الكامل الذي لا نقص فيه، وكما يُعبّر بعض الأدباء:

وفي كل شيء له آية تدلّ على أنّه واحد[1]

وتشترك كل الموجودات في دلالتها على وجود الله، وكونه واحداً بما فيها المشرك والملحد، فنفس وجوده على الأرض فيه دلالة على وجود الله سبحانه وتعالى، كما أنّه من خلال شؤونه المتغيّرة، وما أودع الله سبحانه وتعالى فيه من عقل وأجهزة منظّمة ومتكاملة في تركيبته البدنية يمكن استكشاف وجود الكامل.

**الثاني: التسبيح الاختياري**

هو التسبيح الذي يمكن للإنسان فعله وتركه، شأنه شأن الأفعال الاختيارية التي تصدر منه، والتي تقع تحت الأوامر والنواهي المولوية.

وهذا النوع من التسبيح هو الذي يتميّز به الإنسان عن غيره؛ باعتباره إنساناً مكلّفاً، أُريد له من خلال التكليف والأحكام الشرعية

---

(١) قال الزبيدي في تاج العروس١٩: ٦١، ٦٢: «وقرأت في الأغاني لأبي الفرج عن الخليل بن أسد النوشجاني قال أبو العتاهية: يزعم النّاس أني زنديق، ووالله ما ديني إلاّ التوحيد، فقلنا له: قل شيئاً نتحدث به عنك، فأنشد:

ألا إنّنا كلنا بائد * وأي بني آدم خالد؟

وبدؤهم كان من ربهم * وكلّ إلى ربه عائد

فيا عجباً كيف يعصي الإله * أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد».

أن يتكامل، وهو الموجود الوحيد الذي يمتاز على بقية الموجودات الأخرى بهذا اللون من الاختيار.

ومما تقدّم يتضح معنى ما ورد من تسبيح للملائكة في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**[1]، إذ لو كان المراد من التسبيح الذي أشارت إليه الملائكة هو التسبيح الذاتي، فهذا التسبيح تشترك فيه كل الموجودات، بما فيها الإنسان والجماد وغيرهما، وعندئذٍ لا توجد ميزة تميّز بها الملائكة على الإنسان.

فعندما تقول الملائكة: ونحن نسبح بحمدك كان يمكن لله سبحانه وتعالى أن يجيبهم بأنّ الإنسان أيضاً يسبّح بحمدي، وكذا سائر الموجودات، فلابدّ إذن من كون المراد من التسبيح هنا هو التسبيح الاختياري.

فالله سبحانه وتعالى خلق الملائكة بشكل لا يتخلّفون عن أمره، يفعلون ما يُؤمرون به، ويكونون في حالة من التسبيح الاختياري، فهم يختارون التسبيح، ولا يتجاوزونه.

أمّا الإنسان فقد خلقه الله سبحانه وتعالى، وجعل معه هذه الإرادة التي يتمكّن من خلالها أن يسبح أو لا يسبح، وهذا فرقه عن الملائكة، ومن هنا افترض الملائكة أنّ لأنفسهم ميزة على هذا الإنسان فيما يتعلّق بالتسبيح الاختياري، وإلاّ فالتسبيح الذاتي يشتركون فيه مع

---

(١) البقرة: ٣٠.

الإنسان.

**دور التسبيح**

إنّ للتسبيح دوراً مهماً في وصول الإنسان إلى الكمالات، فبعد أن خلقه الله سبحانه وتعالى ميّزه بميزتين رئيسيتين:

**الأولى:** ميزة العقل، حيث أراد الله سبحانه وتعالى من الإنسان أن يهتدي بواسطة العقل إلى الطريق الذي يُوصله لله سبحانه وتعالى؛ ولذلك نجد أنّ القرآن الكريم في كثير من الآيات يُؤكّد على الاهتمام بالتدبّر والتأمّل، ويُؤكّد على استخدام العقل واللّب.

**الثانية:** ميزة الإرادة، التي ميّزه الله بها؛ من أجل الوصول به إلى أعلى مراتب المخلوقات، ولكي يتمكّن من المسير إليه تعالى، ويتحوّل إلى خليفة له.

وهناك الكثير من النصوص التي تؤكّد على أنّ الله سبحانه وتعالى إنّما خلق السّماوات والأرض من أجل الإنسان الصالح[١]، وفي بعض النصوص أنّه خلقهما من أجل محمّد وآل محمّد صلى الله عليه وآله[٢]، وليس

---

(١) كما جاء في الحديث القدسي: **((يا ابن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي))** شرح الأسماء الحسنى٢: ٤٩.

(٢) ورد عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: **((هل تعلمون انّي أفضل النّبيين، ووصيي علي أفضل الوصيين، وانّ أبي آدم لما رأى اسمي واسم أخي علي وابنتي فاطمة وابنيّ الحسن والحسين عليهم السلام مكتوبة على سرادق العرش بالنور، قال: الهي هل خلقت خلقا قبلي هو أكرم عليك مني؟ قال: يا آدم لولا هذه الأسماء ما خلقت سماء مبنية ولا أرضا مدحية ولا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ولا خلقتك يا آدم))** ⬅

المقصود من ذلك جعل الكون مجالاً لاستفادة واستثمار وانتفاع هذه المخلوقات الطاهرة؛ بدليل أنهم كانوا أكثر النّاس مظلومية في السماوات والأرض، وهكذا الحال بالنسبة لسائر الأنبياء والصالحين، حيث كانوا دائمي التعرّض للامتحان والابتلاء، بل المقصود من ذلك أنّ الكون إنّما خُلق من أجل وجود إنسان صالح وكامل، والذي لا يمكن له الوصول للمرتبة العالية من الكمال إلاّ عن طريق الإرادة، ولا يترقّى إلاّ من خلال التعرّض إلى الامتحان والابتلاء والشدائد، واختياره لطريق الحق والصلاح[1].

---

⬅الهداية الكبرى:١٠١.

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: ((ثمّ خلق الله تعالى آدم عليه السلام من أديم الأرض، ونفخ فيه من روحه، ثمّ أخرج ذريته من صلبه، فأخذ عليهم الميثاق له بالربوبية، ولمحمد صلى الله عليه وآله بالنبوة، ولعلي عليه السلام بالولاية، أقرّ منهم من أقر، وجحد منهم من جحد، فكنّا أولّ من أقرّ بذلك.

ثمّ قال لمحمد صلى الله عليه وآله: وعزتي وجلالي وعلو شأني لولاك ولولا علي وعترتكما الهادون والمهديون الراشدون ما خلقت الجنة ولا النار ولا المكان ولا الأرض ولا السماء ولا الملائكة ولا خلقاً يعبدني.

يا محمد أنت حبيبي وخليلي وصفيّ وخيرتي من خلقي، أحبّ الخلق إلي، وأول من ابتدأت من خلقي، ثمّ من بعدك الصديق علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وصيك به أيدتك ونصرتك، وجعلته العروة الوثقى، ونور أوليائي، ومنار الهدى، ثمّ هؤلاء الهداة المهتدون، من أجلكم ابتدأت خلق ما خلقت...)) حلية الأبرار١: ١٥.

(١) فالإنسان الذي يمرّ بمحنة ما يكون أمامه طريقان: طريق الهروب من المحنة والانحراف عن الصراط المستقيم، والطريق الآخر تحمّل المحنة والصبر عليها⬅

فيتضح مما تقدّم أنّ التسبيح الاختياري هو الطريق الذي من خلاله يرقى الإنسان إلى أعلى مدارج الكمال، ويصل إلى تلك الأهداف العالية المقدّسة، فالإنسان في مسيرته الحياتية الدنيوية يواجه ـ بطبيعة الحال ـ مختلف ألوان الضغوط والمؤثّرات التي قد تجعله يقف موقف المشرك الذي يجعل مع الله إلهاً آخر، حيث يُشرك معه الطغاة والموجودات التي يراها عظيمة، من قبيل الشمس والقمر؛ وذلك تبعاً لهواه، قال تعالى: **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾**(1).

وعليه فإذا وقف ـ الإنسان ـ في مقابل كل هذه القضايا التي تُطرح فيها قضية الشرك موقف المنزه لله سبحانه وتعالى عن الشريك، والموحّد له، الملتزم بأوامره ونواهيه، ويختار الموقف والفعل والسلوك الذي ينسجم مع الإله الواحد كان مسيره وحركته باتجاه الله سبحانه وتعالى، أي باتجاه الكمال؛ لأنّ الله تعالى يُمثّل ويجسّد الكمال المطلق في هذا الوجود.

---

➡والالتزام ـ باختياره وإرادته ـ بالطريق المستقيم، فإذا اختار الثاني ارتقى درجةً في سلّم الكمال، وهكذا إذا مرّ بمحنة أخرى وصبر عليها ارتقى أكثر، وشيئاً فشيئاً حتى يصل المراتب العليا؛ ولذلك يُؤكّد القرآن الكريم على عدم إمكان الوصول إلى الجنّة والمراتب العالية إلاّ من خلال المحن، قال تعالى: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾** البقرة: ٢١٤. منه ﷺ.

(١) الفرقان: ٤٣.

وعلى هذا الأساس تصبح قضية التسبيح من القضايا المركزية المهمة في حياة الإنسان، ولذلك أكّد عليها القرآن الكريم في كثير من الآيات[(١)].

كما أنّ التسبيح هو أحد الأساليب الفردية المهمة التي اتبعها الإسلام لتربية الإنسان على الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبوحدانيته؛ ولهذا نجد أنّ الكثير من الأدعية الواردة عن النبيﷺ وأهل بيته، والتي يُراد من خلالها تربية الإنسان على الارتباط بالله سبحانه وتعالى، وتكييف سلوكه مع الأحكام الشرعية قد طرحت قضية التسبيح بقوة؛ لتربية الإنسان، والوصول به إلى أعلى درجات الكمال[(٢)].

---

(١) كقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحديد:١، وقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحشر:١، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الأعلى:١، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التغابن:١، وغيرها من الآيات.

(٢) من الأدعية الواردة الدعاء عند إرادة الدخول إلى الصلاة:

«اللهم أنت الملك الحق المبين، لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي؛ إنّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت. ثمّ تكبر تكبيرتين وتقول: لبيك وسعديك، والخير بين يديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، عبدك وابن عبديك بين يديك، منك وبك ولك وإليك، لا ملجأ ولا منجا ولا مفر منك إلاّ إليك، سبحانك وحنانيك، تباركت و تعاليت، سبحانك ربّ البيت الحرام، والركن والمقام، والحل والحرام» فقه الرضا:١٠٤.

ومنها: الدعاء عند إرادة الشروع في نوافل الزوال، حيث جاء فيه:

**خلاصة القول**

اتضح مما تقدم أنّ المقصود من التسبيح في الفقرة الكريمة ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ هو التسبيح الذاتي لا الاختياري؛ باعتبار أنّ حالة الشمول المذكورة في الآية تدلّ على ذلك، سواء قلنا بأنّ (ما) يُراد منها خصوص غير العاقل ـ فيكون الأمر واضحاً؛ لأنّ غير العاقل لا معنى لأن يُفترض فيه الاختيار ـ أم قلنا بشمولها لغير العاقل، ولكن من باب أنّ أكثر الموجودات غير عاقلة فغُلِّب غير العاقل على العاقل، وأُريد منها الشمول لكل ما في السماوات والأرض، لا خصوص الإنسان أو الجن أو غيرهما، وإشراك غير العاقل يكفي في إرادة التسبيح غير الاختياري، وهو الذاتي.

ويمكن التعبير عن التسبيح الذاتي بتسبيح (المعرفة) بمعنى أنّ هذا الشيء يعرف الله سبحانه وتعالى، ويعلم بوجوده، وبالتالي فهو يسبّح له، ولا شك أنّ كل الموجودات تعرف الله سبحانه وتعالى بهذه المعرفة، وتسبّح له بهذا التسبيح بما فيها المشركون والمرتدّون، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**

---

«فسبحانك لا شريك لك، سبحانك ولا وزير لك، سبحانك ولا عدل لك، سبحانك لا ضد لك، سبحانك لا ند لك، سبحانك لا تأخذك سنة ولا نوم، سبحانك لا تغيرك الأزمان، سبحانك لا تنتقل بك الأحوال، سبحانك لا يعييك شيء، سبحانك لا يفوتك شيء، سبحانك إنّي كنت من الظالمين، إلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين» مصباح المتهجد: ٣٤.

حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

فعندما يتعرّض الإنسان للخوف والرعب نجده يخرج عن حالته الاستثنائية، ويرجع إلى حالته الطبيعية الفطرية التي يعرف فيها الله سبحانه وتعالى، ويدعوه فيها، فحالة معرفة الله سبحانه وتعالى هي الحالة التي فُطر عليها الإنسان، وفُطرت عليها كل الموجودات.

ويمكن التعبير عن هذا النوع من التسبيح أيضاً بالتسبيح (التكويني) فالمخلوقات ـ بما هي مخلوقة ـ محتاجة وفقيرة إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا الفقر والحاجة موجود في ذاتها، فالإنسان وكل المخلوقات الأخرى ذاتها الفقر، والله سبحانه وتعالى ذاته الغنى.

**الفقرة الثانية:** قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ذكرت الفقرة الكريمة صفتين لله سبحانه وتعالى، هما صفة العزيز، وصفة الحكيم.

إنّ أحد الأساليب التي اتبعها القرآن الكريم في تربية الإنسان على إيجاد العلاقة وتوطيدها بالله سبحانه وتعالى، هو ذكر صفاته تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ

---

(١) يونس:٢٢.

(٢) ورد ذكر هاتين الصفتين في كل من السور التالية: البقرة:٢٩، آل عمران:٦، ١٨، ٦٢، ١٢٦، المائدة:١١٨، إبراهيم:٤، النحل:٦٠، النمل:٩، العنكبوت:٢٦،←

الرَّحِيمُ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[٤]، فذكر هذه الصفات التي هي من صفات الكمال لله تعالى تُربّي الإنسان على الإيمان به عزوجل.

إن ما يهمنا في المقام هو الاقتران الحاصل بين صفة العزيز وصفة الحكيم، الوارد أيضاً في آيات أخرى، خصوصاً في المسبّحات، كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ للهِ ما في السموات والأرضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾[٥]، ولكن بالرغم من كثرة الموارد التي قُرنت فيها صفة العزيز مع صفة الحكيم إلاّ أنّ هناك موارد أُخرى اقترنت فيها صفة العزيز مع مختلف الصفات الأُخرى لله تعالى، ففي بعض الآيات ورد اقترانها بالعليم[٦]، وفي بعضها اقترنت بالرحيم[١]، وهكذا في صفات

---

⬅ ٤٢، الروم:٢٧، لقمان:٩، سبأ:٢٧، فاطر:٢، الزمر:١، غافر:٨، الشورى:٣، الجاثية:٢، ٣٧، الأحقاف:٢، الحديد:١، الحشر:١، ٢٤، الممتحنة:٥، الجمعة:١، ٣، التغابن:١٨، مضافاً إلى سورة الصف:١.

(١) ورد ذكر هاتين الصفتين في كل من السور التالية: الشعراء:٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١، ٢١٧، الروم:٥. السجدة:٦، يس:٥، الدخان:٤٢.

(٢) ورد ذكر هاتين الصفتين في كل من السور التالية: الأنعام:٩٦، النمل:٧٨، يس:٣٨، غافر:٢، فصلت:١٢، الزخرف:٩.

(٣) آل عمران:٤، المائدة:٩٥، إبراهيم:٤٧.

(٤) الفاتحة:١، ٣، البقرة:١٦٣، النمل:٣٠، فصلت:٢، الحشر:٢٢.

(٥) الجمعة:١.

(٦) ورد هذا النوع من القرن في كل من الآيات التالية: الأنعام:٩٦، النمل:٧٨، يس:٣٨، غافر:٢، فصلت:١٢، الزخرف:٩.

أخرى كثيرة قُرنت بصفة العزيز، ومن هنا يرد السؤال التالي: إذا كانت صفة العزيز من الصفات التي لا تقترن دائماً بصفة الحكيم، فلماذا اختُصّت وقُرنت بها هنا؟

نعتقد ـ والله العالم ـ أنّ أي صفة تقترن بأخرى في أيّ مورد من موارد القرآن الكريم لابدّ أن يكون وراء ذلك سراً من الأسرار، وعلة من العلل، وهدفاً من الأهداف.

والهدف الذي أراده القرآن الكريم من الاقتران الخاص في الآية مورد البحث[٢] يظهر من استعراض القضايا التي تعرّضت لها السّورة المباركة، والتي أشرنا إليها في البداية، حيث إن بعض هذه القضايا مرتبط بعتاب الله تعالى للمؤمنين على بعض مواقفهم وأعمالهم، وبعضها مرتبط بإيذاء الأنبياء والرسل من قبل أقوامهم، ومنهم رسول الله ﷺ الذي أوذي وكُذّب من قبل قومه، وبعضها مرتبط بطلب الله سبحانه وتعالى من عيسى عليه السلام في أن يدعو المؤمنين؛ ليكونوا أنصار الله.

وبيّن القرآن الكريم أنّ تحقق هذه النصرة يكون عن طريق التجارة مع الله سبحانه وتعالى، التي هي عبارة عن الجهاد في سبيله من خلال

---

(١) ورد هذا النوع من القرن في كل من الآيات التالية: الشعراء:٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١، ٢١٧، الروم:٥، السجدة:٦، يس:٥، الدخان:٤٢.

(٢) لاشك أن معرفة أسرار القرآن الكريم وأهدافه بشكل دقيق لا يتأتّى إلاّ للراسخين في العلم، ولذلك فعندما نذكر الجواب عن هذا السؤال وغيره نذكره على نحو الاحتمال، وإلاّ فعلمه عند الله سبحانه وتعالى. منه ﷺ.

بذل الأموال والأنفس.

وتُثير هذه القضايا المطروحة تساؤلين قد يبدوان متناقضين؛ ولذا جيء بصفة العزيز والحكيم لدفع توهم التناقض، والتساؤلان هما:

**الأول:** هل يتصف الله سبحانه وتعالى بالعجز وعدم القدرة بحيث يحتاج إلى معاتبة المؤمنين على بعض مواقفهم وأعمالهم مع أنه هو الذي خلقهم، وهو القادر القاهر الجبّار المتكبّر؟

ولا شك أنّ الوجود الذي يتّصف بمثل هذه الصفات لا يحتاج إلى العتاب؛ لأنه متمكّن من إلزام من يخالفه بالفعل والسلوك الذي يريده هو سبحانه وتعالى، فلو كانت لله هذه القدرة والتمكّن والعزّة والجبروت لكان قادراً على أن يسيّر هؤلاء المشركين والمنحرفين والمتمرّدين في الطريق المستقيم، فالتمرّد على الله سبحانه وتعالى معناه عدم قدرته عليهم هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، لو كان الطريق الذي يسير فيه هؤلاء المنحرفين غير صحيح لأرجعهم الله سبحانه وتعالى عنه، ولجعلهم يرتبطون بالمنهج الصحيح، وهو منهج الإسلام، وإلاّ إذا لم يكن صحيحاً ولم يرجعهم عنه كان معنى ذلك عدم قدرته سبحانه وتعالى عليهم؟!

وهذا التوهم كما أنّه موجود في أذهان المشركين كذلك هو موجود في أذهان بعض المسلمين الذين ليس لديهم معرفة بالله سبحانه وتعالى وبالحقائق، ولذا نجد أحيانا على ألسنة البعض: لماذا يُبقي الله سبحانه وتعالى الطاغية الفلاني، ولماذا يمكّنه، أو لماذا يعطي المال للمنحرف أو للشخص المرتدّ أو المتمرّد على الله سبحانه وتعالى؟

ومن الناس من يتوهم بأنّ وجود هؤلاء الطغاة هو وجود مرعب

من قبل الله سبحانه وتعالى، وأنّ الله سبحانه وتعالى هو من يرعاهم.

وقد استفاد الطغاة والحكّام الجبابرة ـ سواء في المجتمع الإسلامي أم في غيره ـ من هذه العقلية، فكانوا أحياناً يطرحون أنفسهم وكأنّهم ظل الله سبحانه وتعالى في الأرض أو نواب له؛ باعتبار أنّ القدرة التي لديهم لم تكن ـ بحسب ادعائهم ـ لولا رعاية الله تعالى لها.

وكذا الحال في المجتمعات المسيحية أيضاً، فملوك فرنسا مثلاً في القرون الوسطى[1] كانوا يطرحون أنفسهم بعنوان أنّهم ظل الله، وحجتهم أنّ القدرة والسلطة والإمكانات التي لديهم لم تحصل لولا قدرة الله سبحانه وتعالى.

**الثاني:** لو افترضنا أنّ الله سبحانه وتعالى قادر ومتسلّط، فما الحكمة إذن من إيجاد المنحرفين والضالين مع أنّه قادر على إصلاحهم؟!

وما السر في وجود هذا النوع من الانحرافات والتمرّد في حركة التاريخ على الله سبحانه وتعالى، الذي يتقاطع مع ما يريده الله سبحانه وتعالى لهذه البشرية؟

إن محتوى السؤالين يبدو وكأنه يتناقض مع صفات الله تعالى.

---

(١) القرون الوسطى: هي فترة الألف سنة التي امتدت بين القرن السادس الميلادي حتى نهاية القرن الخامس عشر، كما يُطلق عليها اسم (الفترة المظلمة)، وهي الفترة التي مرّت على أوروبا والمسيحية، ومن الجدير بالذكر أنّ (العصر الذهبي الإسلامي) يقع في منتصف القرون الوسطى.

**التكامل الإنساني**

من الضروري بيان قضيتين مهمتين لدفع التوهم المذكور، هما:

**القضية الأولى:** إنَّ الله سبحانه وتعالى قادر عزيز متمكّن، ولا يمكن لأيّ قدرة أن تؤثّر على قدرته، أو تجعله عاجزاً.

**القضية الثانية:** لا شك أنّ الله سبحانه وتعالى حكيم، وإن كان يبدو عند البعض أنّ ما يجري في هذا الكون على خلاف الحكمة، إلاّ أنّه في الواقع يُمثّل تمام الحكمة؛ لأنّ تربية الإنسان وتكامله ووصوله إلى الدرجات العالية لا يمكن أن يتمّ إلاّ من خلال هذا النوع من الامتحان والابتلاء الذي يمرّ به.

فمن خلال الصراع بين وجود الطغيان والظلم من ناحية وبين وجود الحقّ والعدل من ناحية أخرى يمكن للإنسان التكامل والوصول إلى الغاية من خلقه.

وتُوجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكّد هذه الحقيقة، كقوله تعالى: ﴿**ألم ۞ أحَسِبَ النّاسُ أن يترَكوا أن يَقولوا آمنّا وَهُم لا يُفتَنون**﴾[1]، فقضيّة الفتنة هي سنّة من سنن التاريخ التي يُكرَم بها المرء أو يُهان.

وقوله تعالى: ﴿**لَعَلّكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ أن لا يَكُونُوا مُؤمِنين ۞ إنّ نَشأ نُنزِل عَلَيهِم مِنَ السّماءِ آيَةً فَظَلّت أعناقُهُم لَها خاضِعين**﴾[2]، أي أنّ الله سبحانه وتعالى لو أراد قهر هؤلاء الناس وإلزامهم طريق الحقّ

---

(١) العنكبوت:١، ٢.

(٢) الشعراء:٣، ٤.

والصواب لنزّل عليهم آية، ولجعل أعناقهم خاضعة له سبحانه وتعالى ﴿إن نَشأ ذلك﴾ لكنّه لم يشأ ذلك، بل اقتضت حكمته أن يخلق الإنسان مختاراً ومريداً؛ ليتعرّض للفتنة والامتحان والابتلاء، ومن ثمّ يصل إلى درجة التكامل من خلال ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[1]، حيث تشير الآية الكريمة إلى أنّ الله سبحانه وتعالى وضع الإنسان أمام طريقين وأمام سبيلين إمّا أن يكون كافرا وإمّا أن يكون شكوراً.

كما أشار القرآن الكريم إلى حكمة إعطاء الأموال للمنحرفين أو الضالين أو بعض أولئك الذين لم يلتزموا طريق الحق، وقد تعرّض في سورة الزخرف إلى هذه القضية بشكل مفصّل لا مجال لذكرها هنا.

فذكر هاتين الصفتين هنا بالخصوص؛ باعتبار أنّ السّورة أريد لها الاستهلال بأمرين:

**الأول:** التنزيه، والإشارة إلى أنّ الله سبحانه وتعالى واحد منزّه عن كلّ عيب.

**الثاني:** الإشارة إلى ارتباط الصفتين بالموضوعات التي طُرحت في السّورة.

## الآية الثانية: خطورة التراجع عند مرحلة الحسم

قال تعالى: ﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنوا لِمَ تَقُولونَ ما لا تَفعَلونَ﴾ .

للمفسرين في هذه الآية الكريمة حديث طويل ومتضارب إلى حدّ

---

(١) الإنسان:٣.

كبير، حيث ذكروا فيها عدّة احتمالات كلها ترتبط بالجانب الأخلاقي، ومن هنا يحسُن بنا استعراض هذه الاحتمالات[1]، وتشخيص الذي يناسب سياق الآيات في هذه السّورة، ويتناسب مع المضمون الكلي الذي يمكن استفادته منها. والاحتمالات هي:

**الاحتمال الأول: إدعاءُ ما لم يُفعل**

أن يكون المقصود من قوله تعالى: ﴿**يا أيُها الّذينَ آمَنوا لِمَ تَقُولونَ ما لا تَفعَلونَ**﴾ انّه لماذا تدعّون لأنفسكم شيئاً لم تكونوا قد فعلتموه وقمتم به.

والشاهد على هذا الاحتمال ما ذُكر في سبب نزول[2] هذه الآية الكريمة، حيث ((**كان رجل يوم بدرٍ قد آذى المسلمين فقتله صُهيب في القتال، فقال رجل: يا رسول الله! قتلت فلاناً. ففرح بذلك رسول الله ﷺ، فقال عمرو عبد الرحمن لصهيب: أخبر النّبيﷺ أنّك قتلته، وأنّ فلاناً ينتحله! فقال صهيب: إنّما قتلته لله ولرسوله. فقال عمرو عبد الرحمن: يا رسول الله! إنّما قتله صُهيب. فقال: كذلك يا أبا يحيى؟ قال: نعم يا رسول الله. فنزلت الآية، والآية الأخرى. عن سعيد بن المسيب**))[3].

---

(١) راجع جامع البيان٢٨: ١٠٦ ــ ١٠٩، وتفسير الثعلبي٩: ٣٠٢، ٣٠٣، وتفسير السمعاني٥: ٤٢٤، وغيرهم.

(٢) في سبب نزول هذه الآية توجد عدّة احتمالات، سيتعرّض لها الشهيد الحكيم ضمن الاحتمالات الواردة في تفسير هذه الآية.

(٣) تفسير مجمع البيان٩: ٤٦٠.

وقد عالج القرآن الكريم في بعض سوره الأخرى ظاهرة أن يدّعي الإنسان لنفسه أعمالاً بطولية أو صالحة لم يقم بها، حيث أنذر القرآن الكريم مثل هؤلاء الناس وانتقدهم بشدّة، فقد ورد في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿لا تَحسَبَنَّ الَّذينَ يَفرَحونَ بِما أتوا ويحبونَ أن يُحمَدوا بِما لَم يَفعَلوا فلا تَحسَبَنَّهُم بِمَفازَةٍ مِنَ العَذابِ ولَهُم عَذابٌ أليمٌ﴾[1].

وقد يتساءل البعض عن هذا الذي يدّعي لنفسه أحيانا بعض الأعمال الصالحة التي لم يفعلها، هل يستحق هذا القدر من العذاب الأليم لمجرد الكذب وبيان شيءٍ خلاف الواقع، لدرجة أنّ القرآن الكريم يُؤكد بشدة على هذه القضية، أو أنّه يستحق ذلك العذاب لما في هذه الادعاءات من شيء أكبر من مجرد الكذب؟

إن الكذب في نفسه من الكبائر، وهو من الأفعال التي وعد الله سبحانه وتعالى مرتكبيها بالعقاب الشديد، فقد ورد في بعض روايات[2] أهل البيت عليهم السلام النهي عن الكذب حتى في الأمور البسيطة والعادية حتى وإن لم يكن لكذبته آثار اجتماعية مهمة، كما لو أخبر

---

(١) آل عمران:١٨٨.

(٢) فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: ((آفة الحديث الكذب)) كنز الفوائد: ١٣، وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((ألا فاصدقوا، فإنّ الله مع من صدق، وجانبوا الكذب؛ فإنّ الكذب يجانب الإيمان، ألا وإنّ الصادق على شفا نجاة وكرامة ألا وإنّ الكاذب على شفا مخزاة وهلكة)) كتاب الزهد للحسين بن سعيد الكوفي: ١٣، وعنه عليه السلام أيضاً ((الكذب في الدنيا عار، وفي الآخرة عذاب النّار)) عيون الحكم والمواعظ: ٢٦.

الإنسان بأنه في اليوم الفلاني قد ذهب إلى المكان الفلاني، أو زار الشخص الفلاني، وهو في الواقع لم يفعل ذلك.

ويبدو أن قضية الادعاء هنا أكبر من الكذب؛ وذلك لما للادّعاء من أبعاد وأغراض سياسية خطيرة، ففي بعض الأحيان يكون للادّعاء والكذب أهدافاً سياسية خبيثة، وذلك بأن يدّعي الإنسان لنفسه بطولاتٍ وأعمالٍ معينة، يحاول من خلالها أن يكوّن لنفسه موقعاً ومركزاً بين النّاس، ليستفيد منه في توجيه الناس، ودفعهم باتجاه معين.

هذه القضية في الواقع هي القضية الأساسية التي لُوحظت في الآية الكريمة ـ بناءً على هذا الاحتمال ـ فالمسألة هنا ليست مجرد كذب وبيان أمر مخالف للواقع، وإنّما هي مسألة استغلال المواقع، أو صنع مواقع وهمية في الأمة؛ من أجل التأثير فيها وفي حركتها، وبالتالي التأثير على مجرى كل الأحداث والعلاقات فيها.

ولكن هذا الاحتمال بعيد، بالرغم من ذهاب بعض المفسرين[١] إليه، وهو على خلاف ظاهر الآية الكريمة؛ لأنّ الآية الكريمة اُستعمل فيها (لا) النافية التي تُستخدم بلحاظ المستقبل لا بلحاظ الماضي، حيث قال تعالى: ﴿يأيُّها الّذينَ آمَنوا لِمَ تقولُونَ ما لا تَفعَلونَ﴾، ولم يقل (ما لم تفعلوا).

---

(١) منهم عبد الرزاق الصنعاني حيث قال: «عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ قال: بلغني أنّها نزلت في الجهاد؟ قال: كان الرجل يقول قاتلت وفعلت، ولم يكن فعل فوعظهم الله في ذلك أشدّ الموعظة» تفسير القرآن٣: ٢٩٠.

وأمّا الآية الكريمة من سورة آل عمران التي عندما أريد لها أن تبيّن ادعاء فعل لم يصدر من هذا الإنسان أُستُخدم فيها كلمة (لم): **﴿أن يُحمَدوا بما لَم يَفعَلوا﴾**، ولم يقل (بما لا يفعلون).

**الاحتمال الثاني: الوعد الكاذب**

أن يكون المراد من قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾** هو أن يَعِدَ الإنسان القيامَ بشيءٍ في المستقبل لكنّه منذ البداية مصمم على عدم فعله، وهذا ما قد نشاهده في حياتنا العادية عند بعض الأشخاص.

تُعتبر هذه الحالة من أرده الحالات الأخلاقية التي يُواجهها الإنسان؛ لأنها تُمثّل حالة نفاقية، فالإنسان الذي يفعل هذا الأمر لا يكذب فقط، بل يُغرّر الآخر أيضاً، مضافاً إلى أنّ مثل هذا الفعل يُؤدي بالإنسان إلى انتكاسة روحية ونفسية، حيث تصبح عنده حالة من الازدواجية، ويكون ظاهره غير باطنه، ففي باطنه شيء يكتمه، وفي ظاهره شيء آخر يُعبّر عنه، وهذه هي حالة النفاق التي ذمّها القرآن الكريم، وتحدّث عنها كثيراً.

وهذا الاحتمال شأنه شأن الاحتمال الأول في كونه خلاف الظاهر؛ باعتبار إنّ الآية الكريمة تبدأ بقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**، فالخطاب فيها للمؤمنين، ومن الواضح أنّ عنوان المؤمنين لا ينطبق على المنافقين، وهذا ما سيأتي لاحقاً[1].

---

(١) راجع صفحة ٨٠.

**الاحتمال الثالث: عدم الالتزام بالمواثيق**

أشار بعض المفسرين إلى أنّ المقصود من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ هي حالة نقض العهود والمواثيق التي يُلزم بها الإنسان نفسه[1]. فالإنسان في حياته اليوميّة قد يلتزم بالتزامات معينة، قد تكون بصيغة عهد يُعاهد به الله سبحانه وتعالى، أو على شكل ميثاق بينه وبين أشخاص آخرين، فإذا فرّط فيها يُؤاخذ عليها.

ويختلف هذا الاحتمال عن سابقه، فالاحتمال الثاني يفترض أنّ الإنسان منذ البداية مصمم على عدم الالتزام والوفاء بما يقول وبما يعد، بينما في هذا الاحتمال فالإنسان حينما يعطي ميثاقاً أو عهداً يكون بدايةً ملتزماً به، ولكنّه من خلال العمل والتطبيق ومواجهة الظروف المستجدّة يتخلّف عن الالتزام به.

وبناءً على هذا الاحتمال تكون الآية وكأنّها في مورد التأكيد على ضرورة الالتزام بالمواثيق والعهود، فعندما يقول القرآن الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ يكون هذا عتاب من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء المؤمنين على نقضهم المواثيق، وعدم الالتزام

---

(١) قال الشيخ علي بن إبراهيم القمي في تفسيره: «﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ مخاطبة لأصحاب رسول الله ﷺ الذين وعدوه أن ينصروه ولا يخالفوا أمره ولا ينقضوا عهده في أمير المؤمنين عليه السلام، فعلم الله أنّهم لا يوفون بما يقولون فقال: ﴿**لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ**﴾ الآية، وقد سماهم الله مؤمنين بإقرارهم وإن لم يصدقوا» تفسير القمي ٢: ٣٦٥.

بها؛ لأنّ هذه المواثيق في واقعها أقوال يعبّرون بها عن التزاماتهم.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكّد على ضرورة الوفاء بالعهد، حيث تفترض أنّ الوفاء بالعهد والميثاق من صفات المؤمن، وأنّ من صفات الكافر أو المنافق عدم الالتزام والوفاء بذلك[١]، كما ورد التأكيد على ذلك في الروايات المروية عن المعصومين عليهم السلام، التي تبيّن عدم جواز نقض العهود والمواثيق بأيّ شكل من الأشكال[٢].

وقد طبّق بعض المفسرين[٣] قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾

---

(١) من الآيات التي أكّدت على أنّ الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ المؤمنون:٨، المعارج:٣٢، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ الإسراء:٣٤.

كما انّ من الآيات التي أكّدت على أنّ عدم الوفاء بالعهد من صفات المنافقين أو الكافرين قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ التوبة:١٢، وقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ الأنفال:٥٦، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ التوبة:٧٥ ــ ٧٧.

(٢) فقد ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: ((**أقربكم مني في الموقف غدا أصدقكم حديثا، وأداكم أمانة، وأوفاكم بالعهد....**)) أمالي المفيد: ٦٧، وعن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام أنّه قال: ((**من دلائل الإيمان الوفاء بالعهد**)) عيون الحكم والمواعظ:٤٧١.

(٣) منهم: أبو الليث السمرقندي في تفسيره٣: ٤٢٠، والواحدي في تفسيره٢: ١٠٩٢، والبغوي في تفسيره٤: ٣٣٧، و الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره الأمثل١٨: ٢٧٩ وغيرهم.

على ما حصل للمسلمين في واقعة أُحُد[1]، حيث قسّم النّبيﷺ فيها الواجبات على المسلمين.

وكان من جملتها قيام بعض الرماة بالوقوف في منطقة حسّاسة من موقع المعركة، وهو جبل أُحُد، وأمرهمﷺ بالبقاء في أعلى الجبل للإشراف على المضيق؛ لمنع أي محاولة التفاف وهجوم على المسلمين

---

(١) عن أبي عبد اللهؑ أنّه قال: ((كان سبب غزوة أُحُد أنّ قريشاً لمّا رجعت من بدر إلى مكّة، وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسر؛ لأنّه قُتل منهم سبعون، وأسر سبعون، قال أبو سفيان: يا معشر قريش! لا تدعوا نساءكم يبكين على قتلاكم، فإن الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن والعداوة لمحمد. فلمّا غزوا رسول اللهﷺ يوم أحد، أذنوا لنسائهم في البكاء والنوح، وخرجوا من مكة في ثلاثة آلاف فارس، وألفي راجل، وأخرجوا معهم النساء.

فلمّا بلغ رسول اللهﷺ ذلك، جمع أصحابه، وحثّهم على الجهاد، فقال عبد الله بن أبي سلول: يا رسول الله! لا نخرج من المدينة حتى نقاتل في أزقتها، فيقاتل الرجل الضعيف والمرأة والعبد والأمة، على أفواه السكك وعلى السطوح، فما أرادها قوم قط فظفروا بنا، ونحن في حصوننا ودروبنا، وما خرجنا إلى عدو لنا قط إلا كان الظفر لهم علينا.

فقام سعد بن معاذ وغيره من الأوس فقالوا: يا رسول الله! ما طمع فينا أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام فكيف يطمعون فينا وأنت فينا، لا حتى نخرج إليهم فنقاتلهم، فمن قتل منا كان شهيدا، ومن نجا منا كان قد جاهد في سبيل الله.

فقبل رسول الله رأيه، وخرج مع نفر من أصحابه يتبوأون موضع القتال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الآية.

وقعد عنه عبد الله بن أبي سلول، وجماعة من الخزرج اتبعوا رأيه، ووافت قريش إلى أحد، وكان رسول الله عبأ أصحابه، وكانوا سبعمائة رجل)) مجمع البيان ٢: ٣٧٦، ٣٧٧.

من خلاله، وأخذ تعهّداً والتزاماً منهم بالبقاء في مكانهم مهما حصل من تطورات إلى حين انتهاء المعركة.

وفعلاً التزموا بهذا التعهّد إلاّ أنّهم بعد احتدام الصراع والعراك بين المسلمين والمشركين، ومن ثم انتصار المسلمين، وانشغالهم بجمع غنائم المعركة، أخذ الرماة يُحدّث بعضهم بعضاً في الاشتراك مع بقية المسلمين في جمع الغنائم، فنزل بعضهم إلى أرض المعركة للاشتراك في هذه العملية، ظناً منهم في انتهاء المعركة، وبالتالي لا تفوتهم فرصة جمع الغنائم.

عند ذلك قام المشركون بعملية الالتفاف، وقتلوا من بقي من المسلمين على الجبل، وإذا بالدائرة تدور على المسلمين، فجاءت هذه الآية وعاتبت هؤلاء المسلمين على موقفهم هذا[١].

---

(١) قال علي بن ابراهيم القمي: ((فوضع عبد الله بن جبير في خمسين من الرماة على باب الشعب، وأشفق أن يأتي كمينهم في ذلك المكان، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن جبير وأصحابه إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكّة فلا تخرجوا من هذا المكان، وإن رأيتموهم قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا والزموا مراكزكم، ووضع أبو سفيان خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً، وقال لهم إذا رأيتمونا قد اختلطنا بهم فأخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا من ورائهم، فلمّا أقبلت الخيل واصطفوا وعبأ رسول الله ﷺ دفع الراية إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فحملت الأنصار على مشركي قريش فانهزموا هزيمة قبيحة، ووقع أصحاب رسول الله في سوادهم، وانحط خالد بن الوليد في مأتي فارس، فلقي عبد الله بن جبير فاستقبلوهم بالسهام فرجعوا، ونظر أصحاب عبد الله بن جبير إلى أصحاب رسول الله ينهبون سواد القوم، قالوا لعبد الله بن جبير تُقيمنا ههنا وقد غنم أصحابنا ونبقى نحن بلا غنيمة، فقال لهم ←

ومن الجدير بالذكر أنّ المسلمين الذين تخلّفوا وتركوا أماكنهم لم يكونوا في شك من إيمانهم وإسلامهم، ولم يكونوا مترددين في طاعة رسول الله ﷺ، وإنّما تساموا في الالتزامات التي أعطوها للنبي ﷺ.

وهذا المعنى قد يكون منسجماً مع الآية التي تأتي بعد آية البحث، وهي قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾**، الأمر الذي يُدلّل على أنّ المطلوب هو هذا النوع من الانضباط والالتزام والانتظام في عملية الحرب والجهاد.

إنّ الالتزام والانضباط والتقيّد بحرفية الأوامر التي تصدرها القيادة من القضايا الأخلاقية التي لا يصح فيها للإنسان العادي إعمال اجتهاده وذوقه ووجهة نظره الخاصة في مقابلها.

وهذا ما يُعبّر عنه المجتهدون بـ (موارد الاجتهاد في مقابل النص)، فالاجتهاد والنظر والذوق الشخصي إنّما يمكن للإنسان إعماله في الموارد التي لا نصّ ولا موقف معين ومحدد فيها من قِبل ولي الأمر أو من قِبل القيادة، نعم للاجتهاد وجه فيما لو فُقِد النص.

وهناك الكثير من النصوص التي تُؤكّد على هذا الأمر، كقول رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين وجّهه إلى اليمن قاضيا: **((بم تقضي يا معاذ؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فما لم يكن في الكتاب؟**

---

**←عبد الله اتقوا الله فإنّ رسول الله ﷺ قد تقدّم إلينا أن لا نبرح، فلم يقبلوا منه، وأقبل ينسل رجل فرجل حتى اخلوا من مركزهم، وبقي عبد الله بن جبير في اثني عشر رجلاً))** تفسير القمي١: ١١١ ــ ١١٢.

**قال: فبسنة رسول الله، قال: فما لم يكن في السنة؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو، قال: فضرب رسول الله على صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله))**[1].

إنّ ما ذكر وان كان وجيهاً، لكن لا يتناسب مع ما حدث في معركة أُحُد؛ باعتبار أنّ هذه السّورة الكريمة من السّور التي يُظن بنزولها بعد حادثة أُحُد بفترة، كما انّ هذه الحادثة من الحوادث التي عالجها القرآن الكريم في سورة آل عمران بشكل مفصّل، ولكن على أيّ حال يبقى المضمون الكلي لهذا الاحتمال منطبق على مثل هذه الحالات التي لا يكون فيها انضباط، ويكون فيها تخلّف عن الالتزامات التي يلتزم بها الإنسان.

فإذن بناءً على هذا الاحتمال يكون العتاب لهؤلاء المسلمين؛ لتخلّفهم عن الالتزامات التي التزموا بها وإن كانت النوايا حسنة، وأنّ اجتهادهم لا من باب المعارضة أو التمرّد على القيادة، ولكن يبقى هذا الاجتهاد غير صحيح.

**الاحتمال الرابع: التخلّف في مرحلة الحسم**

لعلّ هذا الاحتمال هو أقرب الاحتمالات، أو على أقل تقدير يكون مساوياً للاحتمال الثالث المتقدّم، فالقرآن الكريم في هذه الآية الكريمة ـ بناءً على هذا الاحتمال ـ بصدد معالجة قضية واجهتها كل الأمم، وواجهها أيضاً كل الأنبياء مع أممهم.

---

(١) الإيضاح: ١٠٤.

وهذه القضية هي أنّ الأمة في عملية التغيير قد تصل إلى مرحلة ومستوى يكون لديها التصميم والقرار على تحقيق الأهداف التي تسعى إليها، ولكن عند وصولها إلى مرحلة تطبيق هذه الأهداف تتراجع، أي بعد الطريق الطويل الذي قطعته، وسارت فيه، والمراحل الطويلة التي اجتازتها، ووصلت فيها إلى مرحلة تحقيق الهدف، ومرحلة الحسم وإذا بها تواجه مشكلة معينة فتتراجع؛ نتيجة لهذه المشكلة، وبالتالي يفوتها الهدف، ويفوتها تحقيق النتائج، وهو الوصول إلى مرحلة الكمال الذي تسعى إليه.

فالقرآن الكريم في هذه الآية يُعاتب هؤلاء المؤمنين على قولهم ما لا يفعلون؛ لأنهم اتخذوا قراراً والتزموا به، ولكن عندما أتت مرحلة الحسم ومرحلة تطبيق هذا القرار تخلّفوا، ولم ينفّذوا ما التزموا به.

وهذه الحالة ليست خاصة بمجموعة من النّاس، وإنّما يمكن اعتبارها من السنن التاريخية التي تُواجه مختلف الأمم، وبالتالي فلابدّ من معالجتها على مستويات الأمم أيضاً، وحتى في زماننا الحاضر يمكن أن نواجه هذه القضية كأمرٍ قائم وموجود على مستوى الأمة.

وقد وردت في القرآن الكريم عدّة قصص في أزمنة مختلفة، ترتبط بتراجع بعض الأمم في مرحلة الحسم عن مواصلة طريقها.منها:

**القصة الأولى:** ما حصل في زمن موسى عليه السلام، حيث بُعث في بني إسرائيل، وكان الهدف الأساسي له عليه السلام ـ بعد أن يئس من إيمان فرعون وجماعته ـ إنقاذ بني إسرائيل من الظلم والاضطهاد الذي كان يمارسه فرعون تجاههم، والوصول بهم إلى أرض فلسطين، الأرض المقدّسة التي وعد الله سبحانه وتعالى بها المؤمنين من بني إسرائيل.

والذي يُفهم من القرآن الكريم أنّ قضية دخول الأرض المقدّسة كانت مطروحة بالنسبة إلى الإسرائيليين منذ البداية، وبعد معاناة طويلة عاشها موسى عليه السلام مع فرعون ومع الإسرائيليين، وبعد تكامل وضع الاسرائيلين، وعبورهم إلى سيناء بعد مسيرة طويلة من الآلام والمحن، طلب موسى عليه السلام من قومه الدخول إلى الأرض المقدّسة **﴿يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ المقدّسة الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ﴾**[1]، لكنّهم امتنعوا عن ذلك **﴿قالُوا يا مُوسَى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ﴾**[2].

فأخذ موسى عليه السلام يصرّ على بعض أصحابه من المؤمنين، وحاول هذا البعض المؤمن إقناع بقيّة بني إسرائيل، وحثّهم على دخول الأرض المقدّسة، وأنّهم هم الغالبون، ولكنّهم امتنعوا، وكانت كلمتهم التي لا زالت مثلاً يُضرب في كل التاريخ **﴿قالُوا يا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ﴾**[3]، هذا هو الأمر النهائي الذي قرره الإسرائيليون في تلك المرحلة الحاسمة.

فبعد تلك المسيرة الطويلة من الآلام والمعاناة وإذا بمصيرهم التيه لمدّة أربعين سنة **﴿قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ**

---

(١) المائدة: ٢١.

(٢) المائدة: ٢٢.

(٣) المائدة: ٢٤.

﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1]، وأخروا هذه المدّة عن تحقيق هدفهم؛ نتيجة لتخلّفهم في ذلك الموقف الحاسم.

**القصة الثانية:** وهي من قصص بني إسرائيل أيضاً ولكن في فترة متأخرة من الزمن، فقد وردت في سورة البقرة آيات تحدّثت عن أولئك الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبي لهم أن يختار لهم ملكاً؛ ليقاتلوا تحت رايته، ويسترجعوا الأرض المقدّسة التي أُخرجوا منها بعد دخلوهم لها، وكان خروجهم على يد العمالقة[2]، وبقوا خارجها حتى بعث الله سبحانه وتعالى لهم داود عليه السلام، قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ**

---

(١) المائدة: ٢٦.

(٢) يذكر ابن خلدون أنّ «العمالقة: هم بنو عمليق بن لاوذ، وبهم يُضرب المثل في الطول والجثمان، قال الطبري عمليق أبو العمالقة كلهم أمم تفرقت في البلاد، فكان أهل المشرق وأهل عمان البحرين وأهل الحجاز منهم، وكانت الفراعنة بمصر منهم، وكانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون منهم... . وقال ابن سعيد فيما نقله عن كتب التواريخ التي اطلع عليها في خزانة الكتب بدار الخلافة من بغداد قال: كانت مواطن العمالقة تهامة من أرض الحجاز فنزلوها أيام خروجهم من العراق أمام النماردة من بني حام، ولم يزالوا كذلك إلى أن جاء إسماعيل صلوات الله عليه، وآمن به من آمن منهم، وتطرد لهم الملك إلى أن كان منهم السميدع بن لاوذ بن عمليق». تاريخ ابن خلدون ٢: ٢٧.

**بِالظَّالِمِينَ﴾**(١).

فبالرغم من أنّهم هم الذين طالبوا بالقتال إلاّ أنّ حالة التخلّف في القرار كانت متوقعة منهم، وفعلاً هذا ما حصل من أكثرهم.

وفرق هذه القصة عن سابقتها، هو أنّ الإسرائيليين في هذه المرحلة المتأخرة نسبياً كانوا أكثر تطوّراً وتقدّماً ممّا كانوا عليه في زمن موسى عليه السلام، إذ بالرغم من وجود فئة قليلة إلاّ أنها قاتلت تلك الفئة الظالمة، وتمكّنت من تحقيق النصر، قال تعالى: **﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾**(٢).

**القصة الثالثة:** هي التي عاشها المسلمون في زمن النّبي صلى الله عليه وآله، حيث إنّ حالة التراجع في المواقف الحاسمة ليست خاصة ببني إسرائيل؛ باعتبارهم قوم متقلبي الاهواء والمواقف، بل هي حالة يعيشها البشر في كل عصر وزمن.

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

فالمسلمون في زمن النّبي صلى الله عليه وآله ـ على ما يحدثنا القرآن الكريم ـ كانت لهم مواقف شبيهة بتلك المواقف، حيث يقول القرآن الكريم في سورة النساء: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ۞ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ**

---

(١) البقرة: ٢٤٦.

(٢) البقرة: ٢٤٩.

**مُشَيَّدَةٍ...﴾**[١].

فالمسلمون نتيجة للمحن والآلام التي مرّوا بها في مكّة المكرّمة ونتيجةً للاضطهاد الذي مارسه المشركون تجاههم كانوا يتمنون قتال المشركين وجهادهم، إلاّ أنّ القرآن الكريم كان يأمرهم بالصبر والصمود حتى يأذن الله لهم بالجهاد.

وحين جاءت هذه الفرصة وكُتب عليهم القتال، كما جاء في قوله تعالى: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾**[٢]، فإذا ببعضهم ـ الذين كانوا يتمنون القتال ـ يصابون بحالة من التراجع، فعاتبهم القرآن الكريم على تخلّفهم في الاستجابة إلى نداء الجهاد في وقت كان الإسلام فيها قوياً، ويريد تحقيق أهدافه وغاياته؛ ليصبح ديناً عالمياً غير محصور بالجزيرة العربية، وبالتالي يُحطّم كل الأصنام والطواغيت في العالم، باعتباره خاتم الأديان، وغير مختصٍ بقوم، ولا مختص بمكان، فهو دين عالمي، جاء للبشرية جمعاء، وهدفه الأساسي والرئيسي ـ بعد أن يستقر في الجزيرة العربية ـ الانتشار في كل العالم، ففي مثل هذا الموقف عندما يتخلّف بعض المسلمين عن الاستمرار في الجهاد وتحقيق هدفهم الأساسي يأتيهم هذا العتاب الشديد **﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾**.

وهذا الاحتمال هو أقرب الاحتمالات إلى الآية، فهو يناسب مجمل

---

(١) النساء: ٧٧، ٧٨.

(٢) البقرة: ٢١٦.

الموضوعات التي طُرحت في السّورة الكريمة، كموضوع الجهاد، ودعوة النّبي للنّاس في أن يكونوا أنصاراً لله، وتشبيه ذلك بدعوة عيسى عليه السلام، وكذا الإشارة إلى موسى عليه السلام، وإلى قضيته.

فمجمل هذه الموضوعات تدلّنا على أنّ القضُية المطروحة في الآية قضية مرتبطة بحركة الإنسان ككل، وليست معينة أو خاصة أو تاريخية، وإنّما هي مسألة ذات طبيعة تمتد في التاريخ، وتُؤثّر في حركة الإنسان.

## الآية الثالثة: المقت الإلهي وأبعاده

قال تعالى: **﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾**[1].

في الآية الكريمة أُضيفت مفردة المقت إلى مفردة (كَبُر)، مما أعطى للمقت بُعداً أشمل وأوسع، وهذا الأمر ـ في نفسه ـ يُلقي ضوءً على مضمون الآية السابقة **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾**[2]، فيكون المعنى: إنّ القول الذي لا يتطابق مع الفعل يكون ممقوتاً مقتاً كبيراً عند الله سبحانه وتعالى.

ولكن يبقى السؤال في أنّه كيف يمكن تصوّر نسبة البغض إلى الله سبحانه وتعالى، حيث أن البغض من القضايا التي تُعبّر عن مشاعر يحسّ بها الإنسان في حياته ولا يمكن أن تكون بنفسها قائمة في ذات الله سبحانه وتعالى؛ باعتبار أنّ شأنه تعالى ليس كشأننا **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ**

---

(١) الصف:٣.

(٢) الصف:٢.

شَيْءٌ﴾(١).

وكذا لا يمكن افتراض أنّ حب الله سبحانه وتعالى هو نفس الميل الذي نشعر به تجاه الأشياء، والذي نُعبّر عنه بالحب، فحالة التنفر والانزجار والانزعاج وعدم الارتياح التي نشعر بها ونعبّر عنها بحالة البغض لا يمكن تصورها في الله سبحانه وتعالى.

إذن فالإحساس النفسي الذي يحسُ به الإنسان لا يمكن أن يُنسب إليه تعالى، وعليه فلابدّ أن يكون المقت الإلهي هو غير أحاسيس البغض والانزعاج التي يحسُ بها الإنسان.

من خلال مراجعة مجموعة من الآيات القرآنية ومجمل ما ورد في سورة الصف وملاحظة المعنى الذي تقدم لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ يمكن تصور أنّ المقت الذي تحدّث عنه القرآن الكريم في الآية الكريمة يتجسد في عدة ظواهر، بحيث يمثّل مجموعها المقت الإلهي، وهذه الظواهر بدورها تلقي الضوء على مضمون الآية السابقة، وترجّح الاحتمال الرابع(٢).

**الظاهرة الأولى:** العذاب الدنيوي الذي يصيب المتخلّفين، والذي لا ينحصر بهم فقط، بل يسري إلى كل المجتمع، بحيث يصبح مُجتمعاً مُمتحناً ذليلاً مُضطهداً مُستضعفاً مُسيطراً عليه.

---

(١) الشورى: ١١.

(٢) وهو احتمال عتاب القرآن الكريم للمؤمنين في تخلّفهم عن اتخاذ الموقف الحاسم في لحظة ذات طبيعة حسّاسة بالنسبة إلى تحقيق الأهداف التي يسعى إليها الإسلام. منه ﷺ.

**الظاهرة الثانية:** العذاب الأخروي، فالإنسان عندما يتخلّف عن دوره في هذه المرحلة وينجو بنفسه من الآلام والمحن في هذه الحياة الدّنيا سيواجهه أشدّ ألوان العذاب والمحن والآلام في الحياة الأخرى.

**الظاهرة الثالثة:** الاستبدال، فالأمّة إذا تخلّفت عن الاستمرار في الطريق وفي حسم الموقف وتحقيق الأهداف النهائية، فمن الطبيعي حينئذ أن تُستبدَل بأمة أخرى مستمرّة في طريقها.

وسيأتي تفصيل الكلام في هذه الظواهر في الجهة الثالثة إن شاء الله تعالى[1].

## الآية الرابعة: دور الصبر والثبات

قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾**[2].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

جاءت الآية الكريمة في سياق الآيات الثلاثة التي تقدمتها، ومن الواضح أنّ مجيء هذه الآية الكريمة؛ من أجل بيان الموقف الذي يريده الله سبحانه وتعالى من المؤمنين، فبعد عتابه لهم على قولهم ما لا يفعلون، وبيان أنّ عدم تطابق الفعل مع القول أمرٌ ممقوت عنده سبحانه وتعالى يذكر القرآن الكريم الشيء المحبوب، والموقف المطلوب من المؤمنين: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾**.

---

(١) راجع صفحة ٩٨.

(٢) الصف: ٤.

ومن الطبيعي أن حالة الحب لا تجتمع مع حالة المقت الذي هو البغض الشديد، بل تكون مقابلة لها، فلا يمكن للإنسان أن يبغض شيئاً ويحبه في نفس الوقت، فيتضح أنّ معنى ذكر القرآن الكريم لحالة الحب بعد حالة البغض لبيان أنّ الشيء المطلوب والمحبوب والذي نهى عن عدمه هو القتال في سبيل الله من قِبل المؤمنين صفاً كأنهم بنيان مرصوص.

وهذا يدلّ في نفس الوقت على أنّ النفي الموجود في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾**(١)، وقوله تعالى: **﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾**(٢)، هو الحالة المقابلة للقتال صفاً كأنهم بنيان مرصوص، فكأنّ القرآن الكريم يريد عتاب المؤمنين على عدم قتالهم على هذا النحو.

إذن فالنتيجة التي يمكن استخلاصها من الجمع بين الآيات الكريمة الثلاثة أنّ الفعل الذي كان مورد العتاب من قبل الله سبحانه وتعالى والذي تخلّفوا عنه ولم يحققوه بعدما قالوه هو ما ذكره في هذه الآية الكريمة: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾**.

ومن هنا نجد أنّ هذه الآية ترتبط بالآيات السابقة لأنها جاءت في سياقها.

ومن مجمل ما تقدّم يمكن فهم ما تريد بيانه هذه الآية الكريمة، إذ

---

(١) الصف:٢.

(٢) الصف:٣.

ليس هدفها من أول الأمر بيان محبوبية أصل القتال والجهاد في سبيل الله ـ وإن كان في نفسه محبوباً له ـ وإنّما هدفها بيان أنّ القتال المطلوب والمحبوب عند الله سبحانه وتعالى هو القتال الذي يكون بالكيفية والمواصفات الخاصة، أي الذي يكون محكوماً بالنظام والإتقان، شأنه ـ كما تعبّر الآية الكريمة ـ شأن البنيان المرصوص.

فالموضوع الذي تناولته هذه الآية الكريمة هو الكيفية التي يجب أن يكون عليها المقاتلون المسلمون، أو الكيفية التي يجب أن يكون عليها القتال من قبل المسلمين، فالآية وإن تناولت القتال، وأنّ الله سبحانه وتعالى يُحب هؤلاء الذين يقاتلون في سبيله إلاّ أنّها ركّزت على كيفية هذا القتال وشكله وصفاته.

ولكي يتضح الأمر أكثر لابدّ من الحديث عن البعد الكيفي لمفهوم الرص، فلمفهوم الرص بعدان، هما:

١ـ **البعد الكمي:** هو عبارة عن الانسجام بين الأشياء انسجاماً خارجياً.

٢ـ **البعد الكيفي:** هو عبارة عن قضية الثبات؛ إذ يُعتبر الثبات من العناصر الأساسيّة التي أكّد عليها القرآن الكريم كثيراً في الآيات التي تعرّضت إلى قضية الجهاد، ومنها آية البحث، من خلال مفردة (مرصوص)[1].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: «قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ معناه إنّه تعالى يحب من يقاتل في سبيله، ويجاهد أعداء دينه، ويزيد ثوابهم ومنافعهم. وقوله: ﴿صَفًّا﴾ أي يقاتلونهم مصطفين، وهو مصدر في موضع←

وعليه فلابدّ للمقاتل المسلم أن يكون ثابتاً غير متزلزل ولا متزعزع في موقفه عند مواجهة الأعداء، ولابدّ له من الصبر والاستقامة.

وقد جاء القرآن الكريم بتعبيرات وعناوين مختلفة تُعبّر عن معنى الثبات، منها: التعبير بـ (الصبر)، حيث استخدم هذا التعبير كثيراً في الحديث عن القتال[1]، والتعبير بـ (الاستقامة) كما في قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾**[2].

فكل هذه العناوين تصبّ في معنى واحد وهو الثبات الذي ورد في القرآن الكريم الأمر بوجوبه، وضرورته، كما في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[3]، لما له من دور كبير في تحقيق مجموعة من القضايا. فمثلاً ورد في القرآن الكريم أنّ النصر الإلهي إنّما يتحقق وينزل على أولئك الذين يثبتون، أي يكون النصر مرهوناً ومقروناً بالثبات، ومع عدمه لا يتحقق، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**

---

⇐الحال. وقوله: **﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾** قيل في معناه قولان: أحدهما: كأنّه بني بالرصاص؛ لتلاؤمه ولشدة اتصاله. الثاني: كأنّه حائط ممدود على رص البناء، أي إحكامه واتصاله واستقامته، والمرصوص المتلائم الذي لا خلل فيه، ومثل مرصوص شديد اللصوق في الاتصال والثبوت» التبيان٩: ٥٩١، ٥٩٢.

(١) قال تعالى: **﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾** آل عمران:١٢٥.

(٢) فصلت: ٣٠.

(٣) الأنفال:٤٥.

**وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾**[1]، وأوضح منها ما ورد في قوله تعالى: **﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾**[2]. فيتضح من ذلك أنّ عنصر الثبات والإحكام هو الذي يحقق النصر للمقاتلين.

وفي آيات أُخرى يُشير القرآن الكريم إلى حقيقة يذكرها أحياناً بشكل عام، وأحياناً يذكرها ضمن معادلة دقيقة ومحسوبة، وهي أنّ مع الصبر والثبات تتضاعف القوة الماديّة للمقاتلين، وتُصبح أكبر ممّا كانت عليه، قال تعالى: **﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**[3]، أي تتضاعف قدرة وإمكانية هذه الفئة القليلة من خلال الصبر والثبات؛ لدرجة تُصبح فيها قادرة على التغلّب على الفئة الكثيرة.

وقد يتبادر للوهلة الأولى أنّ هذه الغلبة إنّما كانت باعتبار الإذن الإلهي، والإمداد الغيبي، لا من خلال الثبات والإحكام.

ممّا لا شك فيه أنّ الإذن الإلهي له دور أساسي في الصبر ولكن مع ذلك نفهم من بعض الآيات القرآنية أنّ الثبات بنفسه أيضاً يُعطي قوة حقيقية، ويضاعف القوة المادية لدى المقاتلين.

وبتعبير آخر: إنّ عنصر الكيف ـ الذي يمثّل جانب الثبات ـ عندما

---

(١) محمد: ٧.

(٢) الأنفال: ١٢.

(٣) البقرة: ٢٤٩.

يضاف إلى فئة قليلة من حيث الكم؛ تصبح هذه الفئة أكبر حجماً من القوة الأخرى التي تكون محسوبة فقط بالحساب الكمي دون أن يكون فيها جانب كيفي.

ومن الإشارات المحدّدة والدقيقة إلى هذه الحقيقة ما ورد في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ**﴾[١]، حيث توجد هنا معادلة محدّدة، وهي أنّ الواحد من هؤلاء الصابرين مساوٍ لعشرة من الكافرين، فالكم عندما يضاف إليه الكيف ـ الذي هو الصبر والثبات ـ يكبر حجمه ويصبح عشرة أضعاف.

ثمّ قالت الآية التي بعدها: ﴿**الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[٢]، أي عندما يدخل عنصر الضعف في الجانب الروحي والنفسي للإنسان المؤمن يؤدي إلى هبوط قدراته وإمكاناته المادية إلى حدّ كبير، بحيث يفقد أربعة أخماس هذه القدرة، فباعتبار الخصوصيات الأخرى ـ غير مسألة الثبات والصبر ـ تبقى قدراته أكبر من القدرة المادية التي يملكها الإنسان غير المؤمن، فالصبر هنا عندما أُضيف إليه جانب نفسي وهو الضعف أصبحت قدرة هذا المؤمن واحد في مقابل اثنين، لا في مقابل عشرة.

---

(١) الأنفال: ٦٥.

(٢) الأنفال: ٦٦.

وعلى هذا الأساس نلاحظ القرآن الكريم في كثير من الأحيان التي يتحدّث فيها عن مواجهة المؤمنين لأعدائهم يذكر أنّ أول شيء يطلبه المؤمنون ـ في مقام الدعاء والاستنجاد ـ من الله سبحانه وتعالى هو الصبر والثبات.

فالإنسان في المواجهة ـ عادةً ـ يريد تحقيق النصر والغلبة على الأعداء، وبطبيعة الحال لابدّ أن يكون دعاؤه مطابقاً لمقتضى الحال الذي يعيشه، وبالتالي فعندما يتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى يطلب منه منحه هذا العنصر الذي يحقق الغلبة والنصر، مضافاً إلى طلب المغفرة؛ وذلك لأنّ هذا الإنسان في مقام يمكن أن يقتل فيه ويُستشهد.

وهناك جملة من الآيات التي وردت بهذا الصدد، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾(١)، حيث يذكر القرآن الكريم هذا الدعاء عن لسان المؤمنين الذين تربّوا بتربية الوحي فكان هذا دعاؤهم عندما دخلوا المعركة.

وفعلاً حقق لهم الله سبحانه وتعالى النصر، وكذا ما ورد في موضع آخر من سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾(٢)، فهؤلاء المؤمنون أول شيء طلبوه من الله سبحانه وتعالى الثبات والنصر.

---

(١) البقرة: ٢٥٠.

(٢) آل عمران: ١٤٧.

والخلاصة التي نستخلصها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[1]، أنّ المطلوب من المؤمنين أنْ يُقاتلوا قتال الثابتين والصابرين والمستقيمين على الدرب؛ حتى يتمكّنوا من تحقيق النصر.

## الجهة الثالثة: استفادات عامة

البحث في هذه الجهة يكون حول بعض الاستفادات العامة التي يمكن استخلاصها من آيات المقطع الشريف.

## الاستفادة الأولى: ظاهرة النفاق

عند تتبع منهج القرآن الكريم يتضح أنّ قضية الأخلاق من القضايا الأساسيّة والمركزيّة التي اهتم بها هذا الكتاب المقدس؛ وذلك لأنّ تكامل المجتمع الإنساني من جانب وتكامل الإنسان بشكل فردي وشخصي من جانب آخر يتوقفان بشكل أساسي على القضية الأخلاقية، وعلى ما يتمتع ويتصف به الإنسان من أخلاق.

ومن هنا نجد أنّ القرآن الكريم اهتمّ اهتماما بالغاً بالجانب الأخلاقي، وأكّد عليه في آيات عديدة ومختلفة؛ من أجل تربية المجتمع على الجانب الأخلاقي، وجعله مُجتمعاً متكاملاً، إذ لابدّ في كل حركة سياسية واجتماعية تغيريّة أن يكون هناك اهتمام ببناء الإنسان بناءً أخلاقياً، ليتمكّن من ممارسة وجوده بشكل طبيعي في هذه الحياة.

---

(١) الصف: ٤.

إنّ القرآن الكريم في الوقت الذي اهتمّ فيه بالقضية الأخلاقية غير أنه لم يطرحها بشكل نظري، أو على شكل مفاهيم عامة، بل طرحها من خلال حركة الواقع الموضوعي الذي تتحرك فيه الأمة، حيث يأتي القرآن الكريم إلى المواقف التي يعيشها المجتمع بالفعل والتي تكون خلفيتها ضعف في الجانب الأخلاقي أو الروحي، ويتناولها بالتحليل ومن ثم يعالجها، الأمر الذي يُوجد تغييراً في حركة الواقع.

ولذا فالمنهج القرآني أكثر فاعلية وتأثيراً في المجتمع من غيره، وأفضل دليل على هذه الحقيقة هو التغيير الذي تمكّن من إحداثه في المجتمع الجاهلي، فبالرغم من تدهوّر هذا المجتمع وتسافله إلاّ أنّ القرآن الكريم تمكّن من إحداث تغيير عظيم فيه.

فبعض أُولئك الجاهلون الذين لم يعرفوا شيئاً عن الأخلاق والمُثُل العُليا وإذا بهم قد ارتقوا إلى أُناس قمة في الأخلاق، من خلال منهجه الذي يطرح فيه قضية الأخلاق لا كمجرد علم أو دراسة أو نظرية.

وقد ساهمت سورة الصف في هذا الجانب، حيث طرحت ظاهرة أخلاقية خطيرة، وهي ظاهرة النفاق(١)، من خلال قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾، وهي من الظواهر الأخلاقية التي تناولها القرآن الكريم في مواضع عديدة(٢)؛ لأنّها من الأمراض التي ابتلى بها

---

(١) بناءً على الاحتمال الثاني، وهو كون المراد من قول ما لا يفعل الوعد الكاذب.

(٢) منها قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ التوبة:١٠١، وقوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾

المجتمع الإسلامي، ومن الظواهر التي لازمت الإنسان في حركته التاريخية.

ويتمظهر النفاق ـ عادةً ـ في المجتمع الإسلامي ضمن العلاقات ذات المظهر الصالح والصحيح، وضمن الحكم العادل والقوي، حيث إن بعض الأشخاص الذين ـ بحسب واقعهم وضميرهم ومحتواهم الداخلي ـ لا ينسجمون مع هذه العلاقات، ومع الحكم الصالح، ولكن لا يمكنهم رفض هذا المجتمع بشكل علني؛ لما يتمتع به من قوة وتماسك في العلاقات بين أفراده، فيحاولون حينئذٍ التحايل على هذه العلاقات، بأن يُظهروا الانسجام مع هذه العلاقات القائمة، ومع الحكم القائم، ويُبطنوا الرفض لهما[1].

---

﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ التوبة: ٦٧، وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ المنافقون: ١، وغيرها من الآيات.

(١) أمّا ما يخص أوصاف المنافقين فخير ما نستشهد به هنا هو خطبة الإمام أمير المؤمنين ومولى الموحدين علي بن أبي طالب عليه السلام، التي يصف فيها المنافقين، حيث قال: ((... **أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحذركم أهل النفاق، فإنّهم الضالون المضلون، والزالون المزلون، يتلونون ألواناً، يفتنون افتنانا، ويعمدونكم بكل عماد، ويرصدونكم بكل مرصاد. قلوبهم دوية، وصفاحهم نقية، يمشون الخفاء، ويدبون الضراء، وصفهم دواء، وقولهم شفاء، وفعلهم الداء العياء، حسدة الرخاء، ومؤكدو البلاء، ومقنطو الرجاء. لهم بكل طريق صريع، وإلى كل قلب شفيع، ولكل شجو دموع. يتقارضون الثناء، ويتراقبون الجزاء، إن سألوا ألحفوا، وإن عذلوا كشفوا، وإن حكموا أسرفوا. قد أعدوا لكل حق باطلا، ولكل قائم مائلا، ولكل حي قاتلا، ولكل باب مفتاحا، ولكل ليل مصباحا، يتوصلون إلى**

وهذه الظاهرة لم تكن موجودة في مكة فحسب، وإنّما وُجدت في المدينة أيضاً، وذلك بعد انتصار الإسلام، وقيام المجتمع الإسلامي.

### أبعاد ظاهرة النفاق

لظاهرة النفاق أبعاد ثلاثة، وهي:

### البعد الأول: التدنّي الروحي والأخلاقي

تُمثّل ظاهرة النفاق ـ كما يبدو من خلال القرآن الكريم ـ أدنى مستوى روحي وأخلاقي للإنسان، فالقرآن الكريم عندما يتحدّث عن العذاب الذي سيواجهه المنافقون في الآخرة والذي يعكس حقيقتهم في الدّنيا والتردّي النفسي والروحي الذي وصلوا إليه يقول: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾**[1].

فهذه الظاهرة تُمثّل حالة تسافلية، وحالة تردّي وتدهور في الجانب الروحي والأخلاقي لهذا الإنسان؛ لأنه ـ بحسب واقعه وباطنه ـ يُمثّل حالة الكفر والتمرّد على الله سبحانه وتعالى، فهو من هذه الجهة يكون كافراً، وأمّا في حركته وموقفه الأخلاقي فيُمثل حالة الغش والخداع والاستهزاء بالله وبآياته.

فالإنسان قد يكون كافراً وناكراً لله أو مشركاً به لكنّه لا يكون

---

⇐الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم، وينفقوا به أعلاقهم، يقولون فيشبهون، ويصفون فيموهون. قد هونوا الطريق، وأضلعوا المضيق، فهم لمة الشيطان، وحمة النيران: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾)) نهج البلاغة٢: ١٦٥ ــ ١٦٧.

(١) النساء: ١٤٥.

مخادعاً أو غاشاً له أو مستهزئاً به. وعليه فالنفاق من جانب يُمثّل الكفر في بُعد من أبعاده، ومن جانب آخر يُمثّل الخداع والغش والاستهزاء التي هي معانٍ مرفوضة في فطرة الإنسان نفسه؛ ولذلك عبّر القرآن الكريم عن المنافقين بهذا التعبير: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، حيث تفترض الآية الكريمة أنّ المنافقين في حالة خداعٍ مع الله سبحانه وتعالى.

**البعد الثاني: عدم الثبات والاستقرار**

تُعتبر حالة التذبذب من أشدّ الحالات إيلاماً وعذاباً للإنسان المتذبذب، ولها في ذات الوقت آثار سلبية على حركة المجتمع، فعدم استقرار الإنسان وثباته لا يُؤثر على علاقاته بالآخرين فحسب، بل يُؤثر على نفسه أيضاً.

فالإنسان إذا كان في حياته المعيشية ـ التي تُمثّل جانباً بسيطاً من وجوده ـ متذبذباً وغير مستقر، فإنها ستجره إلى الشعور بآلام ومحنٍ عظيمة، فكيف إذا كان بكل وجوده الروحي والنفسي متذبذباً، وغير مستقر؟!

ويذكر القرآن الكريم هذه الحالة في قوله تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾[2]، أي لا يمكنهم من الركون إلى شيء، أو الاتكاء عليه.

---

(١) النساء:١٤٢.

(٢) النساء:١٤٣.

**البعد الثالث: خطورته على المجتمع**

يُمثّل النفاق حركة سياسية مضادة وخطيرة بالنسبة إلى المجتمع الإسلامي وإلى الحكم الإسلامي؛ ولذلك نجد أنّ القرآن الكريم أعطاها أهمية كبيرة، فعندما نراجع السّور المدنيّة نجد أنّها تتحدّث كثيراً عن المنافقين، وتُعالج مختلف الجوانب في حركة النفاق، وتتابع مواقف المنافقين وأقوالهم وأحاديثهم، حتى الأمور الجزئية، وتتحدث عنها، ممّا يُدلّل على شدّة ضرر النفاق من الناحية السياسية، وما يلحقه بالمجتمع وبالحكم الإسلامي.

وقد ذكر القرآن الكريم الأبعاد الثلاثة المتقدّمة في ما جاء من قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ فكانوا يخاطبون الكافرين بهذا الخطاب.

ثمّ يقول تعالى: ﴿**فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ۞ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ۞ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً**﴾[1].

فحالة الضلالة وعدم الاهتداء نتيجة عدم السبيل ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً ۞ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**

---

(١) النساء: ١٤١ ــ ١٤٣.

وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۞ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

## موقف الإسلام من النفاق

للإسلام مواقف حاسمة من حركة النفاق، تتجسّد في التالي:

**أولاً**: الفضح والكشف لتفاصيل ومواقف هذه الحركة، حيث كشف القرآن الكريم في آيات كثيرة، مواقف المنافقين وأعمالهم وتصرفاتهم، وما كانوا يتحدّثون به سراً فيما بينهم، عندما يخلون إلى شياطينهم، وماذا يقولون حين يتحدّثون مع المؤمنين، فكل هذه القضايا كان القرآن الكريم يرصدها ويبينها؛ لأنّ النفاق مرض خبيث يشبه السرطان الذي يصيب الإنسان، وينتشر في بدنه تدريجياً، فيحتاج إلى ملاحظة دقيقة لكل خلية من خلاياه؛ حتى يُتمكن من القضاء عليه.

**ثانياً**: دعوة المؤمنين للإعراض عن المنافقين، وعدم الاستماع إلى أحاديثهم وكلماتهم وأطروحاتهم، وعدم الانسجام مع مواقفهم، وبيان أنّ هذه الكتلة النفاقية إذا أُضيفت إلى المسلمين لا يمكن أن تُضيف لهم قدرة وقوة، بل يزيدونهم خبالاً وضعفاً كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ

(١) النساء: ١٤٤ ــ ١٤٦.

**يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾**[1].

فهؤلاء وإن كان لهم وجود، ولكن من حيث الواقع والتأثير فالأمر عكس ذلك؛ ولذلك طلب القرآن الكريم من المسلمين الإعراض عنهم، وعدم الاهتمام بهم أو الاستماع إلى أقوالهم، وعدم انتظارهم عند السير في الطريق المستقيم وإن كانوا ـ ظاهراً ـ جزءً من الكتلة الإسلامية.

نعم، لو كان هؤلاء من المؤمنين لكان من المفروض الاهتمام بآرائهم وبوجهات نظرهم وتصوراتهم ورؤيتهم للواقع وللمواقف.

**ثالثاً:** عدم السماح للمنافقين في إيجاد تكتّل سياسي ضمن المجتمع الإسلامي، فإذا كانت ممارستهم السياسية ممارسة شخصية يُكتفى بكشف هذه الممارسة، مع عدم الاهتمام بآرائهم ووجهات نظرهم، أمّا إذا كانت ممارستهم السياسية جماعية، بحيث يتحوّل المنافقون إلى مجموعة سياسية تعمل ضمن المجتمع الإسلامي؛ من أجل تفجيره وضربه من الداخل فلابدّ حينئذٍ من موقف صارم تجاه هذا العمل السياسي الجماعي، وهو عدم السماح لهم بمثل هذه الممارسة، وعدم إعطاء الفرصة لتكتلهم السياسي.

وهذا الموقف يُجسّد نظرة الإسلام والقرآن الكريم إلى قضية الحرية السياسية داخل المجتمع الإسلامي، فإذا كانت الحرية تُمارس بشكل فردي يُسمح بها حتى لو كانت ضد أصل النظام ما لم تتطوّر إلى حمل السلاح، وأمّا إذا كانت ممارسة جماعية، أي على شكل كتلة

---

(١) التوبة:٤٧.

سياسية داخل المجتمع فلا يُسمح لها.

وقد وردت الإشارة في القرآن الكريم إلى هذا الموقف، من خلال التعرّض إلى قضية مسجد ضرار، حيث عمدت مجموعة من المنافقين إلى بناء مسجد في أطراف المدينة المنورة، واتخذوه مركزاً للاجتماع والتحرك السياسي ضد الدولة الإسلامية، فنزل الوحي على النّبيﷺ، وطلب منه هدم هذا المسجد، ومنع المنافقين من الاجتماع والصلاة فيه.

فمع أنّ هدم المسجد من القضايا ذات الحسّاسية الكبيرة؛ باعتبار أنه شعار للمسلمين، خصوصاً في ذلك العصر الذي يُمثّل بداية تأسيس الدولة الإسلامية، وبداية تأسيس مساجد المسلمين، لكن رغم ذلك كله أمر الله تعالى نبيهﷺ بهدمه، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1]، فهدمه النّبيﷺ[2].

---

(١) التوبة:١٠٧.

(٢) قال علي بن إبراهيم القمي: «وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً﴾ فإنّه كان سبب نزولها أنّه جاء قوم من المنافقين إلى رسول اللهﷺ، فقالوا: يا رسول الله أتأذن لنا أن نبني مسجداً في بني سالم للعليل والليلة المطيرة والشيخ الفاني، فأذن لهم رسول اللهﷺ وهو على الخروج إلى تبوك، فقالوا: يا رسول←

كما وردت الإشارة إلى ذلك أيضاً في السنّة الشريفة، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه هدّد مجموعة من الذين تركوا صلاة الجماعة[1] في

➡الله لو أتيتنا فصليت فيه، قال ﷺ: أنا على جناح السفر، فإذا وافيت إن شاء الله أتيته فصليت فيه.

فلمّا أقبل رسول الله ﷺ من تبوك نزلت عليه هذه الآية في شأن المسجد وأبي عامر الراهب، وقد كانوا حلفوا لرسول الله ﷺ أنّهم يبنون ذلك للصلاح والحسنى، فأنزل الله على رسوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، يعني أبا عامر الراهب كان يأتيهم فيذكر رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ يعني مسجد قبا ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ قال: كانوا يتطهرون بالماء، وقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۞ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: مسجد ضرار الذي " أسس على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم " قال علي بن إبراهيم: قوله: ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى في موضع حتى تنقطع قلوبهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، فبعث رسول الله ﷺ مالك بن الدجشم (دجشم خ ل) الخزاعي وعامر بن عدي أخا بني عمرو بن عوف على أن يهدموه، ويحرقوه، فجاء مالك فقال لعامر انتظرني حتى أخرج ناراً من منزلي، فدخل فجاء بنار، وأشعل في سعف النخل، ثمّ أشعله في المسجد فتفرّقوا، وقعد زيد بن حارثة حتى احترقت البلية، ثمّ أمر بهدم حايطه». تفسير القمي ١: ٣٠٥.

(١) وكما هو معروف في الإسلام أنّ حضور صلاة الجماعة ليس من الأمور➡

المسجد النبوي الشريف، حيث كان هناك مجموعة من المنافقين يتهربون من حضور صلاة الجماعة، إلى حد أصبح عدم الحضور يشكّل ظاهرة مناوئة ومضادة للعمل الإسلامي الذي كان يقوم به النّبيﷺ في المدينة، الأمر الذي أدى بهﷺ إلى تهديد أولئك المنافقين بحرق دورهم عليهم إن لم يلتحقوا بصلاة الجماعة، وهناك عدة روايات وردت في هذا المضمون(١).

وهذا الأمر يُدلل على أنّ الحركة النفاقية إذا ما أُخذت كحالة جماعية يكون الموقف منها حينئذٍ المواجهة، وعدم السماح بها.

رابعاً: عدم التصدّي المادي للمنافقين، أي عدم قتلهم أو سجنهم ما لم يشهروا السلاح ضدّ المسلمين، ويشنّوا الحرب المسلحة عليهم، فإذا تحوّلت حركة النفاق إلى حركة مسلحة في وجه الدولة الإسلامية

---

➡الواجبة، وإنّما هو من المستحبات العظيمة التي يترتّب عليها ثواب عظيم، نعم الحضور في صلاة الجمعة من الأمور الواجبة. منهﷻ.

(١) رُوي عن أبي عبد اللهؑ أنّه قال: **((اشترط رسول اللهﷺ على جيران المسجد شهود الصلاة، وقال لينتهين أقوام لا يشهدون الصلاة أو لآمرن مؤذنا يؤذن ثمّ يُقيم ثمّ آمر رجلاً من أهل بيتي وهو عليؑ فليحرقن على أقوام بيوتهم بحزم الحطب لا يأتون الصلاة))** المحاسن١: ٨٤، باب عقاب من ترك الجماعة، ح٢٠.

وروي عنهﷺ أنّه قال: **((إنّ أناسا كانوا على عهد رسولﷺ، أبطأوا عن الصلاة في المسجد، فقال رسول الله: ليوشك قوم يدعون الصلاة ــ أي يتركون الصلاة ــ في المسجد أن نأمر بحطب فيوضع على أبوابهم فتوقد عليهم نار فتحرق عليهم بيوتهم))** جامع أحاديث الشيعة٦: ٣٩٥، باب فضل الجماعة، ح٥١.

يكون الموقف منها حينئذ المواجهة والردع، وقتل من يقوم بالعمل المسلح تجاهها.

ولم يُحدثنا التاريخ في أيام النّبيﷺ عن تجرأ المنافقين وحملهم السلاح في وجه رسول اللهﷺ؛ ولذلك لم يُعرف أنّهﷺ قتل أحداً منهم، مع أنّ عددهم كبير، وإنّما اكتفى بمراقبة هذه الكتلة وتفتيتها وكشفها وفضحها وإهمالها في مقام التحرّك العام.

أمّا في زمن الإمام علي عليه السلام فالقضية تختلف، حيث إنه عليه السلام لم يقاتل الخوارج ـ بالرغم من خروجهم عن طاعته واعتزالهم عنه ـ إلاّ بعد حملهم السلاح في وجهه، والاعتداء على المسلمين، وقتل ذلك المسلم[1]، وبقر بطن زوجته، والتي على أثرها اتخذ الإمام علي عليه السلام

(١) وهو عبد الله بن خباب. قال الخطيب البغدادي: «عن أبي الأحوص قال: كنّا مع علي يوم النهروان فجاءت الحرورية فكانت من وراء النهر، قال: والله لا يقتل اليوم رجل من وراء النهر، ثمّ نزلوا فقالوا لعلي: قد نزلوا. قال: والله لا يقتل اليوم رجل من وراء النهر. فأعادوا هذه المقالة عليه ثلاثاً كل ذلك يقول لهم علي مثل قوله الأول. قال فقالت الحرورية بعضهم لبعض: يرى علي أنّا نخافه. فأجازوا، فقال علي لأصحابه: لا تحركوهم حتى يحدثوا حدثا. فذهبوا إلى منزل عبد الله بن خباب وكان نزله على شط النهر فأخرجوه من منزله، فقالوا: حدثنا بحديث حدثك أبوك سمعه من رسول اللهﷺ، فقال: حدثني أبي أنّه سمع من رسول اللهﷺ يقول: **((تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الساعي))**. فقدّموه إلى الماء فذبحوه كما تذبح الشاة فسال دمه في الماء مثل الشراك ما أمذقر. قال الحكم: فسألت أيوب: ما أمذقر؟ قال: ما اختلط. قال: وأخرجوا أمّ ولده فشقّوا عما في بطنها، فأخبر علي بما صنعوا. فقال: الله أكبر، نادوهم أخرجوا لنا قاتل عبد الله بن خباب. قالوا: كلنا قتله، فناداهم ثلاثا كل ذلك يقولون هذا القول. فقال←

قراراً بقتالهم[١].

## الاستفادة الثانية: ظواهر المقت الإلهي

لاشك أنَ المشاعر التي يحسَ بها الإنسان في حياته لا يمكن أن تكون هي بنفسها قائمة في ذات الله سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٢]، ولا يمكن أنَ يكون بغضه ومقته للأشياء هو نفس ما نشعر به من التنفر والانزعاج وعدم الارتياح، بل لمقت الله سبحانه وتعالى مظاهر ثلاثة يتجسَد فيها، وهي:

### الأولى: العذاب الدنيوي

يُمثّل العذاب الدنيوي الذي يُصيب المتخلّفين من المسلمين مظهراً من مظاهر المقت الإلهي، لأنّ تخلّفهم لا ينحصر بهم فقط وإنّما سيؤدي إلى عملية تراجعية وانتكاسة لمجتمع المسلمين، بحيث يصبح مُجتمعاً مُمتحناً ذليلاً مُضطهداً مُستضعفاً مُسيطراً عليه.

---

➜علي لأصحابه: دونكم القوم. قال: فما لبثوا أن قتلوهم [جميعا].» تاريخ بغداد ١: ٢١٩.

(١) وهذا ما حصل أيضاً في عصرنا الحالي، فبالرغم من تحرك المنافقين في المجتمع الإيراني المسلم إلاَ أنَ الإمام الخميني لم يقاتلهم ابتداءً، بل تصدّى أولاً لفضحهم وبيان طبيعتهم وارتباطاتهم بالدول الأجنبية وبالاستكبار العالمي، وبيان عدم الاهتمام والاعتناء بهم، وغضَ الطرف عنهم، حتى شهروا السلاح في وجه الثورة الإسلامية، وأخذوا بقتل الناس، عندئذ تصدى لهم؛ باعتبارهم بغاة وخارجين على الدولة الإسلامية. منه رحمه الله.

(٢) الشورى: ١١.

ويمكن فهم هذه الحقيقة من لسان بعض الآيات الواردة في الجهاد، وسبب تشريعه[١]، حيث لم يكن هذا التشريع رغبة قائمة في الدين الإسلامي، وهدفاً من أهدافه، ومبدأً من مبادئه، وإنّما يُتبنى؛ باعتباره وسيلة لتحقيق الأهداف التي يسعى إليها الإسلام عندما تنفد كل الوسائل الأخرى لتحقيقها.

ويمكن أيضاً فهم هذه الحقيقة من خلال الآيات التي تعرّضت إلى فلسفة الجهاد والقتال، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٢]، أي لولا الجهاد لما بقي هناك مركز من مراكز العبادة والاتصال بالله سبحانه وتعالى ـ مهما اختلفت طبيعة هذه العبادة والديانة التي تتبناها ـ ولما تمكّن الإنسان من إقامة الحقّ والعدل.

وهناك بعض الآيات الأخرى التي تصف الجهاد بأنّه الحياة للناس والمجتمع، وأنّ الفتنة إذا حصلت فإنّها تعمّ الآخرين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَاتَّقُوا

---

(١) كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ البقرة:١٩٣، وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الأنفال:٣٩.

(٢) الحج:٤٠.

**فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[1].

ففي الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث فُسرت الدعوة إلى الحياة بالدعوة إلى الجهاد، فقرن القرآن الكريم حياة الناس وبقاءهم واستمرارهم في هذه الحياة بالجهاد، فتخلُّف الإنسان عنه معناه الموت.

وأشارت الآية الثانية إلى عدم اختصاص الفتنة ـ التي يُعلّق عليها العقاب الشديد الذي يصيبهم في هذه الحياة الدّنيا ـ بأولئك المتخلّفين، وإنّما تشمل كل المجتمع، الظالم منه وغيره.

ثمّ جاءت الآية الثالثة وأشارت إلى أنّ خلاص المجتمع ـ الذي نزل فيه القرآن الكريم ـ من حالة الاستضعاف والذلّ التي كان يعيشها إنّما يكون من خلال الجهاد في سبيل الله، والذي يُؤدي بدوره إلى الحياة المستقرّة الآمنة.

وفي آية أُخرى قد يكون المضمون أوضح في هذا المجال، قال تعالى: **﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**[2]، حيث يُفسّر العذاب الأليم في هذه الآية بعذاب الآخرة، ولكن بقرينة ما جاء بعد هذا العذاب الأليم قد يكون الراجح تفسيره بالعذاب الدنيوي.

---

(١) الأنفال: ٢٤ ــ ٢٦.

(٢) التوبة: ٣٩.

فالخلاصة: إنّ عدم تطابق أعمال المؤمنين مع أقوالهم ـ بالمعنى المتقدّم من عدم التطابق، أي في الأمر الذي يكون فيه حسم للموقف لصالح الإسلام في مرحلة متقدّمة من مسيرة البشرية ـ يؤدي إلى تعرّضهم في الدّنيا للعذاب والفتن والذلّ والاستضعاف.

وما أجمل ما روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام بهذا الصدد حيث يقول: ((**أمّا بعد: فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه وسوغهم كرامة منه لهم ونعمة ذخرها، والجهاد هو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة[1]، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء[2] وفارق الرضا[3] وديث بالصغار[4] والقماءة[5]، وضرب على قلبه بالأسداد[1] وأديل[2] الحق منه بتضييع**

(١) استعار للجهاد لفظ اللباس والدرع والجنة لأنّه به يُتقى العدو وعذاب الآخرة.

(٢) وفي رواية أخرى (وشملت البلاء)، والشملة هي عبارة عن اللباس الذي يلبس والمعنى واحد من حيث المؤدى. راجع كتاب العين٦: ٢٦٦، والصحاح٥: ١٧٣٩.

(٣) أي الإنسان الراغب عن الجهاد يكون في حالة دائمة من القلق وعدم الرضا والارتياح. منه دام ظله.

(٤) أي يصبح هذا الإنسان ذليلاً ممتحناً. قال ابن منظور: «ديث الأمر: لينه، وديث الطريق: وطأه. وطريق مديث أي مذلل، وقيل: إذا سلك حتى وضح واستبان. وديث البعير: ذلله بعض الذل. وجمل مديث ومنوق إذا ذلل حتى ذهبت صعوبته. وفي حديث علي (كرم الله وجهه): وديث بالصغار، أي ذلل» لسان العرب٢: ١٤٩.

(٥) «رجل قميء: ذليل على فعيل، والجمع قماء وقماء، الأخيرة جمع عزيز، والأنثى قميئة. وأقمأته: صغرته وذللته. والصاغر القميء يصغر بذلك، وإن لم يكن قصيرا. وأقميت الرجل إذا ذللته» لسان العرب١: ١٣٤.

**الجهاد وسئم الخسف[٣] ومنع النصف))[٤].**

**الثانية: العذاب الأخروي**

لا شك أنّ العذاب الأُخروي أكبر وأعظم من العذاب الدّنيوي، والإنسان لم يُخلق لهذه الدّنيا، وإنّما خُلق للآخرة، فهذه الدّنيا دار مجاز، ودار لهو ولعب، ومتاعها قليل، وأمّا الحياة الحقيقية للإنسان فهي الحياة الآخرة، وإلاّ فعمر الإنسان ليس محدوداً بعمر الدّنيا، وإنّما له امتداد في الحياة الأخرى، والتي يعدل فيها اليوم ـ كما ورد في القرآن الكريم ـ ألف سنة[٥]، وأمّا بالنسبة إلى يوم القيامة فيُوصف بأنّه مساوي لخمسين ألف سنة[٦]، وبالتالي فتعرّض الإنسان؛ نتيجةً للتخلّف عن الجهاد إلى العذاب الأُخروي يُمثّل ويُجسّد أكبر ألوان المقت الإلهي لهذا الإنسان.

ثمّ إنّ الإنسان عندما يتخلّف قد يحتفظ ببعض المعالم لهذه الحياة،

---

(١) الأسداد: جمع سد، قال الفيروز آبادي: «وضربت عليهم الأرض بالأسداد: سدت عليه الطرق، وعميت عليه مذاهبه» القاموس المحيط١: ٣٠١.

(٢) الإدالة: الغلبة. راجع النهاية في غريب الحديث٢: ١٤١.

(٣) الخسف: النقيصة. راجع القاموس المحيط٣: ١٣٣.

(٤) الكافي٥: ٤، باب فضل الجهاد، ح٦.

(٥) قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ الحج:٤٧.

(٦) قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المعارج:٤.

وبشيء من الراحة والدعة، إلاّ أنّ المجتمع عندما يتخلّف فالمصيبة والآلام والمعاناة تعمه كله، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١]، فالإنسان عندما يتخلّف عن هذا الدور وينجو بنفسه من الآلام والمحن في الحياة الدنيا سيواجه أشدّ ألوان العذاب والمحن والآلام في الحياة الأخرى. وقد وردت الكثير من الآيات الكريمة التي تؤكّد هذا المعنى[٢].

**الثالثة: الاستبدال**

عند تخلف الجماعة عن موقفها في مرحلة الحسم، فتارة يكون التخلّف موقفاً عاماً للأمة وللجماعة التي تتحرك باتجاه التغيير، وأخرى لا يكون كذلك، بل يبقى هناك عدد كاف من المؤمنين، الصامدين، الصابرين، المتمكّنين من مواصلة عملية التغيير، واتخاذ الموقف المناسب لحسم الأمر لصالح الإسلام.

إذا كان التخلّف من النوع الثاني فسيتعرّض حينئذ كل من تخلّف للعذاب الدّنيوي والأخروي، إلاّ أنّ الأمة تبقى أمة حية قوية متحركة ببركة وجود فئة مستعدّة للتضحية والفداء والصبر والاستمرار في هذا الطريق.

---

(١) الأنفال:٢٥.

(٢) منها قوله تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ آل عمران:١٧٨، وقوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النحل:١١٧، وقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لقمان:٢٤، وغيرها من الآيات.

وفي القرآن الكريم ما هو شاهد على ذلك، فقد ورد في قصة الملأ من بني إسرائيل تمكّن طالوت مع جماعته المؤمنة القليلة التي بقيت معه من تحقيق الغلبة على جالوت وقتله، وبالتالي تمكّنوا من دخول الأرض المقدّسة، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾(١).

أمّا لو كان التخلّف بالشكل الآخر، أي كانت كل الأمة وكل الجماعة متخلّفة في موقفها تأتي هنا المسألة التي تعرّض لها القرآن الكريم، والتي تُشكّل في الواقع النظرية القرآنية في حركة التاريخ، والتي تعتمد في أحد أركانها وأسسها على قضية الاستبدال، حيث يستبدل الله سبحانه وتعالى هذه الأمة المتخلّفة بأمة أخرى.

فالتاريخ لا يقف، وليس فيه حركة تراجعية، بل هو في تقدّم دائم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من أجل أن يكون خليفة له في الأرض، وبالتالي فلابدّ له من ممارسة إعمار الأرض، وتحقيق الأهداف والغايات التي خلقه من أجلها، فحركة التاريخ تبقى حركة متقدّمة ومتغيّرة حتى تصل إلى النتيجة.

وهذا المفهوم ليس خاصاً بالإسلام، بل من المفاهيم التي جاء بها

---

(١) البقرة:٢٤٩.

كل الأنبياء عليهم السلام؛ ولذلك نجد أنّ كل الأنبياء قد بُشّروا بالمصلح الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظُلماً وجوراً.

ومعنى هذا أنّ الحركة ستستمر إلى أن تصل إلى ذلك المصلح عليه السلام، وهذا ما أكّد عليه القرآن الكريم في مجموعة من الآيات الشريفة، كقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**[1]، وقوله تعالى: **﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾**[2].

فالأمة الإسرائيلية كانت هي الأمة المعتمدة في حركة التاريخ وفي حركة الأنبياء، إلاّ أنّها عندما تخلّفت عن تحقيق الأهداف المرجوة منها استبدلها الله سبحانه وتعالى بأمة أخرى[3]، وهي أمة أبناء عمهم العرب الذين نزل بلغتهم القرآن الكريم، وجاء منهم النّبي محمد صلى الله عليه وآله، والتي كانت تعيش الحالة الجاهلية، لكنها عندما آمنت برسول صلى الله عليه وآله

---

(١) الأنبياء:١٠٥.

(٢) الأعراف:١٢٨.

(٣) وكما هو معروف من الناحية التاريخية والقرآنية أنّ الإسرائيليين استنكفوا من الإيمان بالنّبي صلى الله عليه وآله بالرغم من معرفتهم بحقّانيته وصدقه، حيث كانوا يستفتحون به على المشركين سابقاً، أي كانوا يقولون للمشركين بأنّ هناك نبياً سيبعث، وسنكون من أنصاره، وسنتمكّن من الهيمنة والسيطرة عليكم وعلى كل الجزيرة، فكانوا يعلمون كل هذه الحقائق لكن مع ذلك رفضوا الالتحاق به صلى الله عليه وآله **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾**. منه دام ظله.

وارتبطت به وحملت لواء الإسلام وتوجهات وتعاليم السماء من قيم ومُثل تمكّنت من إحداث تغييرٍ عظيم جداً في العالم.

ولم تكن هذه الأمة على علاقة خاصة مع الله سبحانه وتعالى باعتبارها أمة تتحدث بلسان معين أو لكونها من جنس معين، كما ادعى اليهود من أنّهم أبناء الله وأحباؤه، وقد أنبأهم القرآن الكريم عن هذه الدعوات في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(١)، أي إذا كنتم أبناء الله وأحباءه فتمنّوا الموت؛ لكي تلتحقوا به سبحانه وتعالى، وتكونوا قريبين منه.

إذن، فالقضية دائماً هي قضية المضمون الحضاري، والمُثل والقيم التي تُؤمن بها الأمة، ولهذا نجد أنّ القرآن الكريم يُحذّر الأمة من العذاب الذي ستواجهه فيما لو خرجت عن المثل والقيم.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى

---

(١) الجمعة:٦.

(٢) التوبة:٣٩.

(٣) محمد:٣٨.

**الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**[1].

قد وقع الكلام بين المفسرين[2] حول هوية الذين يعد الله سبحانه وتعالى بهم في قوله: **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾**.

من جملة ما يُذكر في ذلك: ((**أنّ ناساً من أصحاب رسول الله** ﷺ **قالوا: يا رسول الله! من هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه، وكان سلمان إلى جنب رسول الله** ﷺ**، فضرب بيده على فخذ سلمان فقال: هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس**))[3].

ومعلوم أنّ القضية هنا ليست قضية عرب أو فرس أو كرد أو ترك أو أي قومية أخرى؛ وإنما أنّ الأمة التي تستمر في حمل الراية حتى تحقق الهدف المرجو لا تُستبدل بغيرها، أمّا إذا تخلّفت عن ذلك ـ خصوصاً في المواقف الحاسمة التي تؤثّر على مسيرة التاريخ ـ استبدلها الله سبحانه وتعالى بأمة أخرى.

ويمكن فهم هذا الأمر أيضاً من قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ**

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) راجع تفسير مجمع البيان٣: ٣٥٨.

(٣) تفسير مجمع البيان٩: ١٨٠، وأخرجه الترمذي في سننه٥: ٦٠، والطبراني في المعجم الأوسط٨: ٣٤٩، وغيرهم.

**وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾**(1).

فالقرآن الكريم يشير إلى أنّ أيّ أمة عندها حالة الدّعة والراحة وحب المال والأهل والأولاد والمساكن فعليها التربّص بصدور أمر إلهي تكويني في حقها، وهو استبدالها بأمة غيرها **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**(2).

وهناك من فسّر هوية الذين يحبهم الله ويحبونه بتفسيرات غريبة، ولكن من ملاحظة مجموع القرائن القرآنية يتبيّن أنّ المقصود من الأمر ومن هذا القرار الإلهي هو قرار الاستبدال بأمة أخرى، والله العالم.

فيتضح من كل ما تقدّم أنّ استبدال الأمة بغيرها يمكن أن يكون أحد مظاهر المقت الإلهي المذكور في قوله تعالى: **﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾**(3).

## الاستفادة الثالثة: الكيفيّة القتالية للمسلمين

لقد طرحت بعض آيات المقطع الأول موضوعاً مهماً، وهو الكيفية التي يجب أن يكون عليها المقاتلون المسلمون، أو الكيفية التي يجب أن يكون عليها القتال من قبل المسلمين، في قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾**.

---

(1) التوبة: ٢٤.

(2) يس: ٨٢.

(3) الصف: ٣.

فالآية وإن تناولت القتال، وأنّ الله سبحانه وتعالى يُحب الذين يقاتلون في سبيله إلاّ أنّها ركّزت على كيفية هذا القتال وشكله وصفاته.

وهذا المفهوم الكلي الذي نستفيده من الآية الكريمة يطرح عدّة قضايا، لابدّ من الحديث عنها، وهي:

### القضية الأولى: النظم في المجتمع الجاهلي

واجهت الرسالة الإسلامية منذ بدايتها مشكلة النظم التي تسود أوساط المجتمع الذي جاءت فيه، حيث كان مجتمعاً بعيداً عن المفاهيم الحضارية، وعن الحياة الاجتماعية المنظّمة القوية المحكمة.

ومع غض النظر عن عبادة الأوثان والتقاليد والأحكام والشرائع التي تحكمه بشكل عام، لم يكن هذا المجتمع مجتمعاً متماسكاً خاضعاً لأنظمة معينة، بل كان يعيش حالة من التفرّق والتوزّع والانتشار، حيث كانت هناك حكومة القبائل والعشائر والشيوخ هي التي تحكمه.

وكان الوضع في خارج الحاضرة الرئيسية ـ مكة ـ أكثر تفرّقاً وعدم انسجام، وبصورة عامة كانت هناك مجموعة من القبائل منتشرة في الجزيرة العربية دون أن تحكمها قوانين معينة، وإنّما كان لكل قبيلة تقاليد تختلف عن تقاليد القبيلة الأخرى، وحتى تلك التقاليد لم يكن لها تلك القوة التشريعية والقانونية عند الناس، حيث كانت تلك التقاليد تُخرق بسهولة من قِبل أبناء نفس القبيلة، ولذلك كان البعض يخرج عن تقاليد قبيلته، ويتولّى تقاليد وقوانين قبيلة أخرى، ويدخل معها في حلّ وعهد، وهذا ما يُعبر عنه بـ(الولاية).

إذن، الأوضاع الاجتماعية بشكل عام لم تكن محكومة بنظام معين، وحتى في تفاصيل حياة المجتمع الجاهلي لم يكن هناك نظام فضلاً عن الهيكل العام لهذا المجتمع.

لقد نزلت الرسالة الإسلامية في هكذا مجتمع، وجاءت من أجل تغييره، وجعله مجتمعاً قوياً، وقاعدةً تنطلق منها إلى كل العالم، وبالتالي تُغيِّر كل العالم. وتُعتبر عملية التغيير هذه من أصعب العمليات التي واجهت الرسالة المحمدية في بداية الدعوة.

وهذا في الواقع يُفسِّر لنا ظاهرة قرآنية، قد لا يتوجّه إليها البعض، وحاول بعض أعداء الإسلام استغلالها في الطعن بالقرآن الكريم والإسلام، وهذه الظاهرة هي تناول القرآن الكريم في جملة من آياته بعض التفصيلات الجزئية والبسيطة من الحياة الاجتماعية.

فأحياناً يتحدّث عن كيفية التخاطب مع النبيﷺ، كما في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾**[1]، فقضية أن يأتي الإنسان ويتحدّث بصوت يعلو صوت النبيﷺ فهذه من القضايا الجزئية جداً، وأحياناً أخرى يتحدّث عن التفسّح في المجالس كما في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ**

---

(١) الحجرات:٢.

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١]، وهي من الأمور الجزئية أيضاً، وأحياناً أخرى تتعرّض الآيات الكريمة إلى الطريقة اللائقة لتناول الطعام في حضرة رسول الله ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ...﴾[٢]، وهكذا[٣].

فالقرآن الكريم يتعرّض إلى تفاصيل دقيقة تتعلّق بالسلوك العام للإنسان، وبأوضاعه الاجتماعية والأسرية، مع أنّ هذه التفاصيل قد تخطر في ذهن الإنسان من دون رجوع إلى القرآن الكريم، كما كان من الممكن ترك بيانها للسنة النبوية، كما بيّنت الكثير من تفاصيل الشريعة.

ويجدر بالقرآن الكريم بما أنه الكتاب المركزي للرسالة عدم التعرض إلى هذه المواضيع الجزئية، والاكتفاء بالتعرّض إلى القضايا الأساسية المرتبطة بالمجتمع ككل، وبالتالي فهؤلاء المستشكلون أو المتسائلون يريدون القول بأنّ القرآن الكريم تأثّر بالظروف المعاشة آنذاك، ولو كان وحياً إلهياً لما تأثّر بها؟!

إن هذا التشكيك هو أحد محاور الحملات التي قام بها المستشرقون في مرحلة الغزو الثقافي التي سبقت الغزو العسكري، ودخول

---

(١) المجادلة:١١.

(٢) الأحزاب:٥٣.

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ النساء:٨٦.

الاستعمار إلى البلاد الإسلامية، حيث أثيرت الكثير من الشبهات حول القرآن الكريم، كما أُلفت مجموعة كبيرة جداً من الكتب؛ من أجل إثارة أمثال هذه الشبهات، تضعيفاً لمكانة القرآن الكريم في نفوس المسلمين.

وجواب هذه الشبهة واضح، وذلك على أساس أنّ المجتمع الجاهلي كان مجتمعاً متفرّقاً متمزّقاً، لم يكن فيه قانون أو نظام يحكمه، وهكذا مجتمع لا يمكن أن يتحمّل المسؤوليات العظيمة التي تريد الرسالة أن تُحمّلها إياه، فكانت هناك مهمة صعبة جداً وعظيمة يفترض بالرسول ﷺ القيام بها، وهي صياغة هذا المجتمع صياغة أخرى، بحيث يجعل منه مجتمعاً منظّماً تحكمه القوانين والأنظمة، وفيه شيء من التناسق والترابط والإحكام.

وهذه المهمة من غير الممكن حصولها بإعطاء مفاهيم كليّة، كأن يقول القرآن: أيها الناس انتظموا واهتمّوا بالنظم في أموركم، أو اهتموا بالانسجام في أموركم، لأن عملية التغيير هذه شبيه بما يمارسه الطبيب الذي يعالج مرضٍ مُستعصٍ، فلا يمكن له الاكتفاء بإعطاء توجيهات عامة، بل لابدّ من جعل المريض تحت نظره بصورة دائمة، ومتابعة حالاته من درجة حرارته وانخفاضها واضطراب نبضات القلب وخصوصيات الدم والتنفس.

والمجتمع الجاهلي كان يشكو من العلل والأسقام، وجاء القرآن الكريم ليعالج هذا المجتمع ويستأصل منه كل العادات السيئة وحالات الإرباك؛ ولذلك احتاج القرآن الكريم إلى طرح مثل هذه القضايا والتأكيد عليها، من خلال ملاحظته للقضايا المختلفة في كل موضع

موضع.

ومن جملة ما اهتم به القرآن الكريم هو موضع التنظيم في الحرب، وذلك من خلال ملاحظة عدد من العناصر والأركان التي تُشكّل بمجموعها قضية الانتظام والانسجام فيها، وهي:

**العنصر الأول: النظم**

إن من جملة الآيات التي أشارت إلى هذا العنصر هو قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾**، حيث يُراد من مفهوم الصف حالة النظم بين الأشياء، بحيث تُجعل بشكل مستقيم ومنتظم.

فمع قلة الموارد التي جاءت فيها كلمة (الصف) في القرآن الكريم إلاّ أننا نجد أنها قد وردت في هذا المعنى، من قبيل قوله تعالى: **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾**[١]، وقوله تعالى: **﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۞ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾**[٢]، وقوله تعالى: **﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾**[٣]، وقوله تعالى: **﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾**[٤].

وهذه الآية تُريد أن تُعبّر عن حالة الانتظام التي يكون عليها الملائكة والروح يوم القيامة، لدرجة ألاّ يتكلّم منهم أحد إلاّ مع الإذن من الله

---

(١) الفجر: ٢٢.

(٢) الغاشية: ١٤ ـ ١٥.

(٣) الطور: ٢٠.

(٤) النبأ: ٣٨.

سبحانه وتعالى.

**العنصر الثاني: توزيع المسؤوليات**

إنّ من جملة ما يُعبّر عن قضية الانتظام هو توزيع المسؤوليات، حيث يُشير القرآن الكريم إلى ضرورة توزيع المسؤوليات والمواقع في عملية القتال، فسابقاً كان حصول القتال عند العرب بشكل عشوائي وفوضوي؛ وذلك بأن تهجم قبيلة على أخرى، فيضرب بعضهم بعضاً، ولذلك كانت قضايا الأفراد هي القضايا المطروحة في القتال، فيقال مثلاً: فلان يُعدّ بألف فارس أو بمئة، فكان هناك شخص واحد يبرز وقد يُغيّر مجرى القتال كله.

والسبب في ذلك؛ أنّ المعارك كانت شبيهة بالمعارك الفردية، ولم يكن فيها روح الجماعة، ولكن عند مجيء الإسلام أكّد على قضية النظم وتوزيع المسؤوليات والمواقع على المقاتلين، ولذلك نجد أنّ القرآن الكريم في بعض الآيات يحثّ النبيّ ﷺ على توزيع المسؤوليات على المسلمين ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[1].

**العنصر الثالث: الطاعة**

أكّد القرآن الكريم على مسألة الطاعة في القتال لأولي الأمر، والقيادة، وذلك لأنها تدخل كعنصر أساسي في قضية النظم العام، وكما هو المعروف من الناحية التاريخية أنّ النبيّ ﷺ قام بتوزيع

---

(١) آل عمران: ١٢١.

المواقع على المسلمين، وأعطى مسؤولية أحد المواقع القتالية إلى مجموعة من المسلمين، ولكن حينما اختلفت بعد ذلك فيما بينها، وتخلّى قسم كبير منها عن ذلك الموقع، أدّى إلى فشل المعركة، والذي كان نتيجة طبيعية لمخالفتهم أمر النّبيﷺ.

**القضية الثانية: الإتقان في العملية القتالية**

لقد أكّد القرآن الكريم على الإحكام والإتقان في عملية القتال ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾، فالذي يُستفاد من مفردة (مرصوص) هو الانسجام والتعاون بين أفراد المجموعة المقاتلة، وهي قضية أساسية جداً في الجهاد، حيث يُفرض تارة أنّ كل نفر من المجموعة يُقاتل بصورة منفردة، وكأنّه الوحيد في المعركة، وأُخرى يُفرض وجود التعاون والانسجام بين أفراد المجموعة، بحيث يعاون ويساعد بعضهم البعض الآخر، أي يُقاتل وكأنّه يُقاتل عن الآخر، وهذه هي الحالة المطلوبة والمحبوبة لله سبحانه وتعالى، والتي يمكن أن نفهمها من كلمة (مرصوص)؛ لأنّ الرص يحصل من حالة الانسجام بين الأطراف وبين الأشياء المتعدّدة، وإذا حصل الانسجام حصل النصر.

وقد أشار القرآن الكريم في آيات أخرى إلى الانسجام وأهميته، كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[1]، حيث وردت هذه

---

(١) الأنفال: ٤٦.

الآية في مقام بيان الحالة التي يجب أن يكون عليها القتال، وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢)، فقضية الصبر هنا واضحة، وأنَّ الله تعالى يُحب تحلّي المقاتلين المؤمنين به، ومعنى (صابروا) أنْ يَصبِّر كل واحد منهم الآخر ويُثبِّته، وهذا فيه دلالة أيضاً على قضية التعاون والتلاحم بين الأشخاص.

وهكذا ما ورد في وصف المؤمنين من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾(٣)، وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(٥).

فالمراد من تحسّونهم أي تواجهونهم في المعركة، وتصبحون قريبين منهم، وهذا ما حصل في معركة أُحد، والمراد من حصول النزاع

---

(١) التوبة:٤١.

(٢) آل عمران:٢٠٠.

(٣) البلد:١٧.

(٤) العصر:٣.

(٥) آل عمران:١٥٢.

الاختلاف وعدم الانسجام في الأمر.

ومما ورد في ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(١)، حيث تحدّث القرآن الكريم في الآية الكريمة عن عدم انسجام المنافقين مع المؤمنين، وما لهم ولحضورهم من دور سلبي في المعركة، الذي قد يؤدي إلى خسران المعركة.

فيتضح مما تقدم أنّ الانسجام بين المقاتلين قضية أساسية ومركزية في المعركة، وبدونه ستكون النتائج سلبية.

## الاستفادة الرابعة: المعادلة الإسلامية في النصر

من أجل فهم النظرية الإسلامية في معادلة النصر نطرح سؤالاً هاماً في المقام، وعند الإجابة عليه ستندفع بعض الشبهات التي تُثار حول قضية الاهتمام بالجانب المادي في عملية النصر، وسيتضح أيضاً أهمية العنصر المادي في قضية النصر، حيث إن الكثير من العاشقين لله سبحانه وتعالى والمرتبطين به قد يغفلون في الجهاد في سبيل الله عن أهمية الجوانب والعناصر المادية في تحقيق النصر، وقد يعتبرونها من المسائل الجانبية.

والسؤال هو: المعروف والمفهوم في الإسلام أنّ النّصر من الله سبحانه وتعالى، وهو سبحانه وتعالى حاضر مع المؤمنين على كل حال، وهو الذي يمنحهم النصر.

---

(١) التوبة:٤٧.

فإذا كان كذلك، فلماذا إذن هذا الاهتمام القرآني بالتأكيد على وصف القتال، وعلى الجانب المادي فيه، بحيث يُطلب من المؤمنين والمسلمين القتال صفاً وكأنّهم بنيان مرصوص، وأن يكونوا منسجمين في القتال، وأن يُهيئوا كل شروطه المادية، حيث ورد في قوله تعالى: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾**(١).

فلماذا هذا التأكيد على إعداد القوة مع أنّ الله سبحانه وتعالى أكبر من كل قوة، وأقوى وأعزُ من كل أحد، وبالتالي هو الذي يمنح النصر، فالمهم هو أن يكون الإنسان مع الله سبحانه وتعالى، ولا نحتاج إلى توفير كل هذه الأمور؟

وقد يُطرح السؤال بصيغة أخرى: إنّ الإنسان اذا كان مؤمناً بالله سبحانه وتعالى وسائراً على الطريق المستقيم ولديه أهداف صحيحة وعالية ومقدسة فنفس هذه الأمور تُوصله إلى تحقيق النصر الإلهي؛ لأنّ الغلبة في النهاية إنّما تكون إلى جانب الحقّ، حيث ينصر الله سبحانه وتعالى الحقّ وأهله، وبما أنّ الإنسان المؤمن على الحقّ فلا يحتاج حينئذ إلى مزيد من الاهتمام بتوفير الجوانب المادية من أجل الوصول إلى تحقيق النصر؟

إنّ هذا التساؤل يدعونا إلى ذكر مجمل المعادلة التي تتعلّق بالنصر الإلهي، فمن خلال المراجعة لمجمل الآيات القرآنية نجد أنّ تحقيق النصر مرهون بمجموعة من العوامل والشروط، بعضها مرتبط بالبعض

---

(١) الأنفال: ٦٠.

الآخر، وهي:

**العامل الأول: الهدف**

إذا كان الهدف من القتال صحيحاً وحقاً، وأنّ هناك مُثلاً وقيماً مقدّسة يسعى الإنسان من أجلها، تحقق النصر.

وقد ورد في القرآن الكريم تأكيد هذه الحقيقة، كقوله تعالى: **﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾**(١).

حيث وردت الآية الشريفة عند حديث القرآن الكريم عن قصة موسى عليه السلام، وبيان أنّ الأرض لابدّ أن يرثها الصالحون من عباد الله، وأن تكون العاقبة للمتقين، وعليه فإذا كان الإنسان على طريق الحقّ فلابدّ أن يتحقق النصر له.

وفي آية أخرى ورد قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**(٢)، حيث تؤكد الآية الكريمة أيضاً على نفس الحقيقة المتقدّمة.

ومن الطبيعي أن يكون هدف الإنسان المؤمن في جهاده وقتاله ـ كما أشار القرآن الكريم ـ إقامة الحقّ والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر **﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾**(٣)، وفي آية

---

(١) الأعراف:١٢٨.

(٢) الأنبياء:١٠٥.

(٣) الحج:٤١.

أخرى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾(١).

فقتال المؤمنين من أجل تحقيق الهدف الصحيح يُعتبر عنصراً أساسياً ورئيسياً في تحقيق النصر، أمّا عندما يستهدف في قتاله أموراً أخرى غير حقّة فسيفقد بذلك أحد العناصر الأساسيّة المرتبطة بالنصر.

**العامل الثاني: النصر الإلهي**

لابدّ أن يكون الإنسان مع الله سبحانه وتعالى، وأن يكون الله عز وجل معه كي يتحقق النصر الإلهي، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٢).

فإذا كان الإنسان مع الله سبحانه وتعالى كان الله معه، وبالتالي يأذن بالنصر، وينزّل عليه الملائكة ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(٣).

فهذه القوى عندما تتنزل على المؤمن بأمر من الله سبحانه وتعالى ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ

---

(١) النساء:٧٦.

(٢) محمّد:٧.

(٣) فصلت:٣٠.

بَنَانٍ﴾[1]، تُصبح معه قوى هائلة غيبية تتحرّك وتتصرّف في هذا الكون، وبالتالي يمكن أن تحقق له النصر، لكن هذه الملائكة إنّما يمكن أن تكون مع هذا الإنسان المؤمن أو تتنزل عليه عندما يأذن الله سبحانه وتعالى بالنصر، ولا يأذن الله تعالى بالنصر إلاّ إذا كان هدف الإنسان صحيحاً وحقّاً.

**العامل الثالث: العامل المادي**

يؤكّد القرآن الكريم على العامل المادي كشرط في تحقيق النصر، بمعنى إذا توفر هذا العامل لدى الإنسان مضافاً إلى العوامل الأخرى فسيكون الله سبحانه وتعالى معه، ومن هنا لابدّ للإنسان أن يكون على استعداد كامل للتضحية والفداء والعطاء؛ حتى يُنزّل الله سبحانه وتعالى عليه النصر.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفي القران الكريم ما يدلّ على هذا كقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾**[2]. أي أن يكون لديه إيمان بالله سبحانه وتعالى هذا أولاً، وثانياً أن يلتزم بهذا الإيمان، ويتحمّل نتائجه وآلامه، وكما يعبر القرآن الكريم: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ**

---

(١) الأنفال: ١٢.

(٢) فصلت: ٣٠.

﴿قَرِيبٌ﴾[1]، أي بعد أن تمسّهم البأساء والضراء ويصلوا إلى حالة الحيرة عندئذ يتنزل عليهم النصر الإلهي، وبدون هذا لا يتحقق النصر الإلهي، حيث إنّ السنّة التي وضعها الله سبحانه وتعالى في حياة الإنسان؛ من أجل وصوله إلى النصر تقتضي مروره بالمحنة والمعاناة، وهذا من القوانين الطبيعية التي وُضِعت في حياة الإنسان بشكل خاص ليتمكّن من تحقيق أهدافه.

ولا شك أنّ العنصر الأساسي الذي أُخذ في العامل المادي هو الجانب الكيفي، الذي هو عبارة عن بذل كلّ الطاقات والإمكانات الموجودة لدى الإنسان، قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

هذا مع غض النظر عن حجم هذه الطاقة ومقدارها، فالحجم الكمي ككثرة العدد أو السلاح لا يمثّل الأساس في العامل المادي، بل الجانب الكيفي هو الأساس بأن يبذل الإنسان كل ما لديه، وكما يعبّر المثل المعروف (غاية الجود بذل الموجود).

وهذا كما لو افترضنا أنّ هناك إنساناً فقيراً وارده اليومي نصف دينار، وتصدّق بربع دينار، وإلى جواره إنسان غني وارده اليومي مئة دينار، وتصدّق بعشرة دنانير. فربع الدينار وإن كان من حيث القيمة الشرائية والكم أضعف من العشرة دنانير، ولكن من الناحية الكيفية دوره أكبر؛ لأنّ ربع الدينار يُمثّل بالنسبة إلى الفقير شيئاً أكبر ممّا تُمثّله

---

(١) البقرة: ٢١٤.

(٢) التوبة: ٤١.

العشرة دنانير بالنسبة إلى الغني.

وبالتالي فالجانب الكيفي في (صدقة الفقير) أكبر من الجانب الكيفي في (صدقة الغني) وإن كان من حيث الكم الأمر معكوساً.

إذن الجانب الذي أُخذ في معادلة النصر الإلهي هو الجانب الكيفي، وأمّا الجانب الكمي فليس بمهم هنا بل المهم أن يكون الإنسان على استعداد لأن يُعطي ويبذل كل ما لديه من مال وإمكانات وقدرات.

نعم إذا قصّر في هذا ـ وإنْ كان هذا التقصير قليلاً ـ ولم يعطي كل ما لديه أثّر ذلك على مسألة النصر، وإن كان من حيث الحجم والكم قد لا يُؤثر تأثيراً كبيراً؛ لأنّ كل ما لديه محدود، ولكن من حيث الكيف سيُؤثر، وسينعكس هذا التأثير على نتائج النصر بشكل طبيعي.

ونحن في معركتنا الحالية مع قوى الاستكبار العالمي قد يكون لدينا تحسّب في قضية الكم، حيث نجد أنّ قوى الاستكبار العالمي تملك كمّاً كبيراً جداً من الأفراد والأسلحة والإمكانات الهائلة، لكنّنا إذا أردنا الدخول في معركة معها ـ ونحن الآن بالفعل في معركة معها ـ وكان حساب الكيف في بذل المسلمين وفي تضحياتهم فالمسلمون عندهم استعداد لبذل كل ما لديهم فالمعادلة ستتبدّل إلى صالحهم؛ لأنّ هدفهم صحيح، وأنّ الله سبحانه وتعالى معهم، وهم على استعداد لبذل كل ما لديهم من طاقة وقدرة وإن كانت محدودة.

ففي الصدر الأول وبالتحديد في معركة بدر كان المسلمون من حيث الكم أقل بكثير من المشركين، حيث كان عددهم ما يقارب ثلث

عدد المشركين، أو أقل من ذلك[١]، ومن حيث السلاح إذ لم يملك المسلمون إلاّ فرسين، مضافاً إلى أن المشركين كانوا متدربين جيداً على استخدام السلاح، وكان فيهم مَن يُعدّ بألف، من قبيل عمرو بن عبد ودّ العامري الذي اشترك في معركة بدر وجُرح فيها[٢] وقتل بعد ذلك على يد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في معركة الخندق[٣]، وأمثاله كثيرون ممّن هم معروفون بتجاربهم القتالية.

وأمّا أهل المدينة الذين يمثّلون عامة جيش المسلمين فقد كانوا مجموعة من الفلاحين الذين لا يمتلكون معرفة بالقتال وفنونه، وإذا تقاتلوا فيما بينهم تقاتلوا بالجريد[٤] والعصي، ولذا كان أكثر سلاحهم في معركة بدر من الجريد، ولكن مع كل ذلك الجانب الكيفي عندهم عالياً، لدرجة أنهم كانوا على استعداد تامّ لبذل كل ما لديهم،

---

(١) كان تعداد المسلمين في معركة بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً. ونقل الشيخ الكليني بسنده عن شهر بن حوشب قال: «قال لي الحجاج وسألني عن خروج النبي صلى الله عليه وآله إلى مشاهده، فقلت: شهد رسول الله صلى الله عليه وآله بدراً في ثلاثمائة وثلاثة عشر، وشهد أحداً في ستمائة، وشهد الخندق في تسعمائة، فقال: عمن؟ قلت: عن جعفر بن محمد عليهما السلام فقال: ضلّ والله من سلك غير سبيله» الكافي٥: ٤٥، ٤٦.

(٢) راجع شرح الأخبار١: ٢٩٣.

(٣) ذكر الشيخ المفيد في الإرشاد حول معركة الخندق: ((فتقدم عمرو ابن عبد ود الجماعة الذين خرجوا معه، وقد أعلم ليرى مكانه، فلمّا رأى المسلمين وقف هو والخيل التي معه وقال: هل من مبارز؟

لا تحسبن الله خاذل دينه * ونبيه يا معشر الأحزاب))

الإرشاد١: ٩٨، ٩٩.

(٤) وهي عبارة عيدان سعف النخيل.

وبالفعل دخلوا المعركة بتلك الروح التي ذكرها المقداد بن أسود عندما سأل النّبيّ ﷺ المسلمين عن رأيهم في دخول المعركة فأجابه المقداد: ((**يا رسول الله لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكم مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لسرنا يا رسول**))[2]، وفعلاً لموقفهم هذا حقق الله سبحانه وتعالى لهم النصر[3].

ومّما تقدّم يمكن فهم سبب اهتمام القرآن الكريم والإسلام بقضية الإعداد الكيفي، الذي هو من ناحية شرط ضروري؛ لتربية الإنسان

---

(١) «برك الغماد: موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن دفن عنده عبد الله بن جدعان التيمي القرشي». معجم البلدان١: ٣٩٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد١٤: ١١٢.

(٣) وأمامنا الآن تجربة الثورة الإسلامية في إيران، ففي الوقت الذي نجد فيه أنّ قوى الاستكبار العالمي في الشرق والغرب تتآمر عليها، وتجنّد كل قدراتها وكل إمكاناتها وخبراتها؛ من أجل الإطاحة بها، ولكن مع ذلك نجد أنّ الثورة الإسلامية تنتصر يوماً بعد يوم، وتلحق الهزائم بأعداء الله؛ وذلك نتيجة لهذا الاستعداد على البذل والعطاء.

وكذا توجد لدينا تجربة أخرى وهي تجربة المؤمنين في لبنان، وهي تجربة واضحة جداً على انّ عنصر الكيف من العوامل المهمة في النجاح، حيث كان المجاهدون في حزب الله على استعداد تامّ لبذل كل شيء بما في ذلك وجودهم؛ في سبيل إلحاق الهزيمة بإسرائيل، وفعلاً تمكّنوا من إلحاق الهزيمة بها، هذه الأسطورة التي كان يُروّج لها بأنّها لا يمكن أن تُغلب بأي شكل من الأشكال وإذا بها تُغلب على يد فئة مؤمنة قليلة جداً؛ نتيجة لهذا الاستعداد للتضحية.منه ﷺ.

وتكامله، ومن ناحية أخرى شرط مهم أيضاً؛ لتحقيق الإذن الإلهي بالنصر.

# المقطع الثاني

## البشارة بالنبي الخاتم صلى الله عليه وآله

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۞ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

يتناول المقطع الشريف مسألة إيذاء الأنبياء والمرسلين، فقد تحدّث عن موسى عليه السلام وموقف قومه منه، وعن عيسى عليه السلام وموقف قومه منه.

ومن الواضح أنّ موسى وعيسى عليهما السلام لهما موقع متميز في حركة تاريخ النبوات؛ باعتبارهم من أولي العزم، ومن أنبياء بني إسرائيل، وكانوا يُعايشون الأمة التي بُعث فيها النبي محمّد صلى الله عليه وآله.

ولذلك فنقل الحديث من موسى عليه السلام إلى عيسى عليه السلام له أهداف وغايات مؤثّرة في المجتمع الذي نزل فيه القرآن الكريم.

ومن الأمور المهمة التي تناولها المقطع أيضاً، هو الحديث عن الرسالات السماوية وتسلسلها، ونسخ بعضها للبعض الآخر. مع كونها من مصدر واحد، وكذلك الحديث عن موقع رسالة محمّد صلى الله عليه وآله، وعن البشارة به من قِبل عيسى عليه السلام، وعن اتهامه بالسحر، وما سينال من يفتري على الله سبحانه وتعالى الكذب من عدم الهداية.

ويقع البحث في ثلاث جهات:

---

(١) الصف:٥ ــ ٧.

## الجهة الأولى: بحث المفردات

يحتوي المقطع على عدة مفردات يجدر بحثها، وهي:

**المفردة الأولى:** مفردة (أحمد) الواردة في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾**.

أُخذ اسم (أحمد) من أفعل التفضيل في الحمد، ويقال: أنّه مأخوذ من اسم لفاعل، فيكون معناه: الإنسان الذي يكون حامداً مع كثرة الحمد[1]؛ ليتناسب مع أفعل التفضيل، شأنه في ذلك شأن أجود،

---

(١) قال الجوهري: «وأحمد: صار أمره إلى الحمد، وأحمدته: وجدته محموداً، تقول: أتيت موضع كذا فأحمدته، أي صادفته محموداً موافقاً، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه. وقولهم في المثل: (العود أحمد) أي أكثر حمداً، قال الشاعر:

فلم تجر إلا جئت في الخير سابقا * ولا عدت إلا أنت في العود أحمد».

الصحاح٢: ٤٦٧.

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي: «الحمد: نقيض الذم، يقال: بلوته فأحمدته، أي وجدته حميداً محمود الفعال، وحمدته على ذلك، ومنه المحمدة. وحماداك أن تفعل كذا أي: [حمدك]، وحماداك أن تنجو من فلان رأساً برأس. والتحميد: كثرة حمد الله بحسن المحامد. وأحمد الرجل: أي: فعل فعلاً يُحمد عليه، قال الأعشى:

وأحمدت إذ نجيت بالأمس صرمة * لها غددات واللواحق تلحق

والحمد: الثناء. وخمسة من الأنبياء ذوو اسمين: أحمد ومحمدﷺ، وعيسى والمسيح، وذو الكفل وإلياس، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون عليهم السلام وعلى غيرهم من أنبيائه...» العين٣: ١٨٨، ١٨٩.

وأكرم[١].

**المفردة الثانية:** مفردة (السحر) الواردة في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.**

السحر لغةً: كل ما كان من الشيطان فيه معونة[٢]. وهو علم من العلوم، لكنّه يختلف عنها من جهة أنّ هدفه باطل ـ كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك[٣] ـ لا يصبُّ في خدمة النّاس، بل في الغالب يُراد منه الخداع والتضليل والتعتيم عليهم؛ ولذلك حُرّم السحر في الشريعة المقدسة، بخلاف العلوم الأخرى التي دعا إليها الإسلام، واهتمّ بها اهتماماً بالغاً.

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

---

(١) قال السمعاني في تفسيره: «أمّا معنى اسمه (أحمد) على وجهين: أحدهما: لأنّه كان يحمد الله كثيراً. والثاني: لأنّ النّاس حمدوه في فعاله» ٥: ٤٢٦.

(٢) العين٣: ١٣٥.

(٣) كقوله تعالى: **﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** البقرة:١٠٢، وقوله تعالى: **﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾** يونس:٨١.

ولا فرق بين السحر والشعبذة من جهة حرمتهما في الإسلام، لوحدة الهدف. نعم تفترق الشعبذة عن السحر من ناحية حقيقتها، فالشعبذة تعتمد على سرعة حركة الأعضاء، بحيث تُوهم الآخرين بأشياء مخالفة للواقع، وتُؤثّر على حواسهم(١).

**المفردة الثالثة:** مفردة (الافتراء) الواردة في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾.

الفرية لغةً: الكذب، فرى كذباً فرياً وافتراه اختلقه(٢). والافتراء ـ كما يبدو من خلال استعماله في القرآن الكريم ـ ليس مجرد الكذب الذي يصدر من الإنسان، وإنّما يتضمّن ثلاث قضايا، إذا ضُمّ بعضها إلى البعض الآخر تحقق الافتراء، وهي:

**القضية الأولى:** الكذب، بأن يدعي الإنسان شيئاً لا يكون متطابقاً مع الواقع.

**القضية الثانية:** أن يتضمّن الحديث تهمة ما، ونسبة شيء غير

---

(١) قال أبو هلال العسكري: «الفرق بين السحر والشعبذة: أنّ السحر هو التمويه، وتخيل الشيء بخلاف حقيقته، مع إرادة تجوّزه على من يقصده به، وسواء كان ذلك في سرعة أو بطء، وفي القرآن ﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**﴾، والشعبذة ما يكون من ذلك في سرعة، فكل شعبذة سحر وليس كل سحر شعبذة» الفروق اللغوية: ٢٧٢.

(٢) لسان العرب١٥: ١٥٤. وفرّق أبو هلال العسكري بين افترى واختلق بقوله: «أن افترى قطع على كذب وأخبر به، واختلق قدّر كذباً وأخبر به؛ لأنّ أصل افترى قطع وأصل اختلق قدر على ما ذكرنا» الفروق اللغوية: ٦٢.

متطابق مع الواقع إلى شخصٍ آخر.

**القضية الثالثة:** الالتفات إلى أنّ هذه النسبة هي نسبة كاذبة، وغير واقعة.

فإذن لتحقق الافتراء لابدّ من ادعاء شيء غير مطابق للواقع، وأن يكون متضمّناً تهمة لشخص آخر، وأن يكون المدعَي ملتفتاً إلى كذب هذه النسبة وبطلانها.

فقد يُخبر الإنسان عن أكله وشربه بشيء غير متطابقٍ مع الواقع، لكن لا توجد فيه رائحة الاتهام ونسبة الباطل إلى الآخرين، بخلاف الافتراء الذي فيه كذب، ورائحة اتهام الآخرين، وتارة ينسب الإنسان التهمة إلى شخص من دون معرفة بطلانها، بل يعتقد أنّها مطابقة للواقع، وأُخرى يكون عالماً ببطلان النسبة، وبمخالفتها للواقع، وهذا هو الافتراء كنسبة تهمة السحر إلى الأنبياء[1].

---

(١) قال أبو هلال العسكري: «الفرق بين الكذب والافتراء والبهتان:

الكذب: هو عدم مطابقة الخبر للواقع، أو لاعتقاد المخبر لهما على خلاف في ذلك.

والافتراء: أخص منه؛ لأنّه الكذب في حقّ الغير بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب فإنّه قد يكون في حقّ المتكلم نفسه، ولذا يقال لمن قال: (فعلت كذا ولم أفعل كذا) مع عدم صدقه في ذلك: هو كاذب، ولا يقال: هو مفترٍ، وكذا من مدح أحداً بما ليس فيه، يقال: إنّه كاذب في وصفه، ولا يقال: هو مفترٍ؛ لأنّ في ذلك مما يرتضيه المقول فيه غالباً.

وقال سبحانه حكاية عن الكفار: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ لزعمهم أنّه أتاهم بما لا يرتضيه الله سبحانه مع نسبته إليه.

وأيضاً قد يحسن الكذب على بعض الوجوه، كالكذب في الحرب، وإصلاح ذات البين، وعدة الزوجة، كما وردت به الرواية، بخلاف الافتراء...» الفروق اللغوية ⬅

**المفردة الرابعة:** مفردة (أظلم) الواردة في قوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**. أُخذت أظلم من ظلم، «وأصله ـ ظلم ـ وضع الشيء في غير موضعه. ويقال: (من أشبه أباه فما ظلم). وفي المثل: (من استرعى الذئب فقد ظلم)»[1].

وجاءت صيغة (أظلم) في الموارد التي يُذكر فيها التكذيب بآيات الله سبحانه وتعالى، وعدم الالتزام بعهوده، كما في قوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾**.

وقد جاء مفهوم الظلم في القرآن الكريم في صيَغ ومناسبات مختلفة وكثيرة[2]؛ باعتباره يُعبِّر عن غريزة وظاهرة موجودة في تاريخ الإنسانية، وهي ظاهرة بارزة وواضحة أكثر من ظاهرة العدل،

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

➡٤٤٩، ٤٥٠.

(١) الصحاح٥: ١٩٧٧. وقريب منه ما ورد في غريب الحديث لابن قتيبة١: ٢٠٢.

(٢) فقد جاء الظلم بصيغة (يظلم)، كما في قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾** النساء:١١٠، وبصيغة (ظلم)، كما في قوله تعالى: **﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً﴾** الكهف:٨٧، وبصيغة (ظالمون)، كما في قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾** النحل:١١٣، وبصيغة (ظلموا)، كما في قوله تعالى: **﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾** البقرة:٥٩، وبصيغة (أظلم)، كما في قوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾** الأنعام:٢١. وغيرها من الصيغ والآيات.

فبالرغم من أنّ العدل شيء مطلوب، ويؤكد عليه القرآن الكريم، إلاّ أنّ مفردة الظلم تكرّرت أكثر منها؛ لأنّ ظاهرة الظلم من ظواهر التاريخ الإنساني.

**المفردة الخامسة:** مفردة (الإسلام) الواردة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

الإسلام لغةً: هو الاستسلام لأمر الله تعالى، والانقياد لطاعته، والقبول لأمره(١). ولعلّ إطلاق اسم الإسلام على المسلم؛ باعتبار حالة التسليم والخضوع لله سبحانه وتعالى(٢).

## الجهة الثانية: البحث التفسيري

يتمحور البحث في هذه الجهة عن تفسير آيات المقطع الشريف.

---

(١) العين٧: ٢٦٦. وقال الجوهري: «وأسلم، أي دخل في السلم، وهو الاستسلام. وأسلم من الإسلام» الصحاح٥: ١٩٥٢.

(٢) قال ابن منظور: «يقال فلان مسلم، وفيه قولان: أحدهما هو المستسلم لأمر الله، والثاني هو الخلوص لله في العبادة، من قولهم سلم الشيء لفلان أي خلصه، وسلم له الشيء أي خلص له.

وروي عن النبي ﷺ، أنّه قال: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

قال الأزهري: فمعناه أنّه دخل في باب السلامة حتى يسلم المؤمنون من بوائقه.

وفي الحديث: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» لسان العرب١٢: ٢٩٣، ٢٩٤.

## الآية الأولى: إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. تتكون الآية الكريمة من فقرتين:

**الفقرة الأولى:** قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾(١).

تشير الفقرة الكريمة إلى موقف معين لبني إسرائيل تجاه موسى عليه السلام، فبعد أن واجه موسى عليه السلام محاولة اغتياله ورأى إصرار فرعون وقومه على اضطهاد بني إسرائيل وتعذيبهم، ووجد عدم نفع تلك الآيات والمواعظ معهم صمم على الخروج ببني إسرائيل من مصر، والعبور بهم إلى جهة الأرض المقدسة، إلا أن فرعون لم يقف مكتوف اليدين أمام هذه الهجرة، بل جمع جنده من جميع المدائن، وقرر ملاحقة موسى وبني إسرائيل وإرجاعهم إلى عبوديته بالقوة.

ونتيجة لهذه المطاردة وجد موسى عليه السلام وقومه أنّ البحر من أمامهم وفرعون وجنوده من خلفهم، فارتاع بنو إسرائيل وكادوا أن يكذّبوا موسى عليه السلام بما وعدهم به من الخلاص، غير أنّ موسى عليه السلام بإيمانه الوطيد أخبرهم أنّ الله سبحانه سيهديه إلى طريق النجاة، وفعلاً تحقق ذلك؛ إذ أوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾(٢).

---

(١) الصف:٥.

(٢) الشعراء:٦٣.

فانشق البحر وعبر موسى ببني إسرائيل، ولما أراد فرعون ومن معه العبور أغرقهم الله سبحانه وتعالى، ولكن مع هذا الموقف الإعجازي المهم يقف بنو إسرائيل من موسى عليه السلام موقفاً سلبياً.

فتارة يطلبون منه بعد مرورهم على قوم يعبدون الأصنام أن يتخذ لهم أصناماً يعبدونها كما أن لهؤلاء أصناماً، وأخرى يطلبون منه أن يدعو الله سبحانه وتعالى لاستبدال المن والسلوى التي تفضل بها عليهم ببعض المآكل الأخرى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[1].

وفي تطور خطير يواجه موسى عليه السلام ردة مجموعة من بني إسرائيل عند ذهابه لميقات ربه لتلقي الشريعة، حيث أخبره الله تعالى بعبادتهم للعجل الذي صنعه السامري، فرجع غضباناً أسفاً، وعتب بقسوة على أخيه هارون الذي استخلفه عليهم مدة ذهابه[2]، وطرد السامري،

---

(١) البقرة: ٦١.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف: ١٥٠، وقال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ ⬅

وفرض عليه عقوبة المقاطعة وحرق العجل ونسفه، كما فرض على بني إسرائيل عقاباً صارماً حتى يتوب عليهم[1].

وعلى هذا المنوال يذكر لنا القرآن الكريم أحداثاً مختلفة عن حياة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، كقضية البقرة، ونتق الجبل[2]، والدعوة للدخول إلى الأرض المقدسة، وذهابهم للمواعدة عندما طلبوا رؤية الله جهرة[3]، وقصة قارون وتآمره مع المنافقين على موسى عليه السلام.

وقد كان الغرض من الإشارة إلى هذا الأمر هو من أجل المقارنة

---

﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ طه:٨٦.

(١) وقد ذكر القرآن الكريم هذا العقاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة:٥٤.

(٢) «النتق: الجذب، ونتقت الغرب من البئر إذا اجتذبته بمرة جذبا. ونتقت الملائكة جبل الطور أي اقتلعوه من أصله حتى أطلعوه على عسكر بني إسرائيل فقال موسى عليه السلام: خذوا التوراة بما فيها، وإلاّ ألقي عليكم هذا الجبل، فأخذوها، فقال تعالى: وإذ نتقنا الجبل فوقهم» العين٥: ١٢٩، ١٣٠.

وقد أشارت إلى نتق الجبل أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأعراف:١٧١.

(٣) قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ البقرة:٥٥، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ النساء:١٥٣.

بين موقف أصحاب النبي ﷺ تجاهه وموقف بني إسرائيل تجاه موسى عليه السلام، وكذلك موقفهم تجاه عيسى عليه السلام من تكذيبه ومخالفته بعد أن جاءهم بالبينات ـ بناءً على أنّ الذي جاء بالبينات هو عيسى عليه السلام ـ وفي هذا تذكير لأصحاب النبي وتحذير لهم من الوقوع في مثل هذه المواقف والمخالفات التي تؤدي بهم إلى النفاق وقول ما لا يفعلون.

**الفقرة الثانية:** قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.**

تشير الفقرة الكريمة إلى آثار انحراف وزيغ قوم موسى عليه السلام، فقد شدّد الله سبحانه وتعالى عليهم، نتيجة انحرافهم عما جاء به موسى عليه السلام من الله سبحانه وتعالى من كتاب، فأزاغ قلوبهم، وجعلها تميل عن الحقّ.

لقد أودع الله سبحانه وتعالى في الإنسان مجموعة من الشهوات والرغبات والميول، وفي الوقت نفسه أودع فيه العقل والإرادة ليبقى الإنسان قادراً على اختيار الخير أو الشر، عندما يتعرّض للامتحان والفتنة ويكون أمامه طريقان، طريق الضلال، وطريق الهُدى.

فإذا اختار الأول ـ نتيجة لوقوعه تحت تأثير الشهوات والرغبات ـ فالله سبحانه وتعالى كعقوبة له على اختياره هذا قد يزيده ضلالاً وزيغاً، قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.**

ولا تعتبر عقوبة الإضلال ظلماً له؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى أقام

عليه الحجة، وتفضّل عليه بوسائل الهداية الذاتية[١] والخارجية[٢]، ولكنّه هو مَن اختار الضلال.

أمّا إذا اختار طريق الهدى والصلاح فالله سبحانه وتعالى وكمثوبة له على هذا الاختيار يعينه ويزيده هدى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[٣].

## الآية الثانية: بشارة عيسى عليه السلام بالنبي

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

تتكون الآية الكريمة من فقرات ثلاث:

**الفقرة الأولى:** قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

تُشير الفقرة الشريفة إلى ما ذكره عيسى عليه السلام من أنه رسول من قبل الله سبحانه وتعالى، ومصدّق لما جاء في التوراة.

والحديث في هذه الفقرة حديث عن الرسالات السماوية التي تُمثّل

---

(١) كهداية الفطرة وهداية العقل.

(٢) كإرسال الأنبياء، وإنزال الكتب والتعاليم السماوية.

(٣) محمد:١٧. هذا مضافاً إلى آيات أُخرى، كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ الكهف:١٣، وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً﴾ مريم:٧٦.

مسيرة واحدة في تاريخ الإنسانية، ونسخ بعضها للبعض الآخر مع كونها من مصدر واحد، والهدف من هذا النسخ وخلفيته، وما هي حدود تصديق عيسى عليه السلام للتوراة، هل كان تصديقا كاملاً لها، أو كان هناك تصرف على مستوى التوراة، وما هي حدود هذا التصرف، وما هو موقع رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وآله؟

ولعلّ هذا البحث من أهم البحوث القرآنية التي تحتاج إلى الكثير من البحث والتمحيص، والذي يرتبط بالنظرية الإسلامية والقرآنية حول تفسير التاريخ وحركته. فالنظرية القرآنية في حركة التاريخ تعتبر أنّ الرسالات والتغيرات التي تحصل فيها تُمثّل عنصراً أساسياً في حركة التاريخ، وفي التغيّر الذي يحصل في هذه الحركة.

وفي مقابل ذلك توجد مدارس أخرى في تفسير التاريخ وتفسير حركته والعوامل المؤثّرة فيه، كالمدرسة المادية التي تفترض أنّ التاريخ يتحرك ويتأثّر بالعامل الاقتصادي الذي يكون عاملاً أساسياً في تحريكه، وإيجاد التغيرات الفوقية والسطحية فيه.

وقد أشار بعض المفسرين[1] في تفسير الآية الكريمة إلى نكتة بيانية،

---

(١) منهم الآلوسي في تفسيره، حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: «ولعله ــ أي عيسى عليه السلام ــ لم يقل: (يا قومي) كما قال موسى عليه السلام، بل قال: (يا بني إسرائيل)؛ لأنّه ليس له النسب المعتاد، وهو ما كان من قبل الأب فيهم، أو إشارة إلى أنّه عامل بالتوراة، وأنّه مثلهم في أنّه من قوم موسى عليه السلام هضما لنفسه بأنّه لا أتباع له ولا قوم، وفيه من الاستعطاف ما فيه، وقيل: إنّ الاستعطاف بما ذكر لما فيه من التعظيم، وقد كانوا يفتخرون بنسبتهم إلى إسرائيل عليه السلام» تفسير الآلوسي٢٨: ٨٥، ٨٦.

وهي: إنّ خطاب موسى عليه السلام في الآية السابقة كان بطريقة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾، بينما خطاب عيسى عليه السلام كان بشكل آخر: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

ففي الآيتين المخاطب هم بنو إسرائيل، لكن الخطاب تارة جاء بشكل غير مباشر ﴿يَا قَوْمِ﴾ وأخرى جاء بشكل مباشر ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

والسرُّ في ذلك يعود إلى أن ارتباط موسى عليه السلام ببني إسرائيل كانت قضية واضحة، إذ لم يكن هناك شك في انتسابه إليهم ـ وإن كان تربّى في بيت فرعون ـ فقد كان عليه السلام من أسرة معروفة بين الاسرائيلين، حيث كان لها دور الزعامة فيهم، فقد كان هارون عليه السلام من زعماء بني إسرائيل وكان له موقع متميز.

أمّا عيسى عليه السلام فلم تكن هذه النسبة معروفة ـ على أقل تقدير ـ عند الاسرائيلين الذين كانوا يعايشونه، حيث كان هناك شك في شخصيته وانتسابه؛ باعتبار المعجزة التي حصلت في ولادته عليه السلام، والتي تحدّث عنها القرآن الكريم[1]؛ ولذلك فانتسابه إلى بني إسرائيل لم يكن بالشكل الذي ينتسب فيه موسى عليه السلام إليهم، فعندما يخاطبهم موسى عليه السلام بـ (يا قومي) يكون خطابه هذا خطاباً طبيعياً وعادياً لدى المخاطبين، أمّا بالنسبة إلى عيسى عليه السلام فالاسرائيليون لم ينظروا إليه على أنّه منهم، ولذلك لم يخاطبهم بـ (يا قومي) وإنّما خاطبهم بـ (يا

---

(١) وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ آل عمران: ٥٩.

بني إسرائيل).

**الفقرة الثانية:** قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾.

ترتبط هذه الفقرة من الآية ببشارة عيسى عليه السلام بالرسول الذي يأتي من بعده، والذي اسمه (أحمد)، فهناك أمران لابدّ من التعرّض لهما:

## الأمر الأول: تسمية النبي ﷺ

تُعتبر تسمية النبي ﷺ من الأمور المهمة التي يجب البحث فيها، فالمعروف بين النّاس وكذا المعروف في القرآن الكريم أنّ اسمه (محمّد) ﷺ، حيث جاء هذا الاسم في أربعة مواضع من القرآن الكريم[1]، أمّا اسم (أحمد) فلم يرد إلاّ في هذه الآية الكريمة فقط؛ ولذلك استحق هذا الموضوع البحث فيه.

تقدّم سابقاً[2] أنّ معنى اسم (أحمد) كثير الحمد، فهو مأخوذ من أفعل التفضيل. وأمّا اسم (محمّد) فهو مأخوذ أيضاً من أفعل التفضيل، لكنّه مأخوذ من اسم المفعول، فيكون معناه الشخص الذي

---

(١) حيث ورد في كل من الآيات التالية: قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ آل عمران:١٤٤، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ الأحزاب:٤٠، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ محمد:٢، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الفتح:٢٩.

(٢) راجع صفحة ١٢٢.

يكثُر حمده، ويكثُر مدحه بالحمد[1]، شأنه في ذلك شأن (المكرَم) الذي يصدر منه الكرم، ويكون ممدوحاً به.

ويذهب بعض اللغويين إلى: أن كل واحد من الاسمين (أحمد ومحمَد) قد يستخدم في موضع الاسم الآخر، فكما أنَ (محمَد) يستخدم بمعنى اسم المفعول فيقال: (محمود) أو بمعنى اسم الفاعل فيقال: (حامد)، كذلك (أحمد) يمكن أن يستخدم في كلا هذين المعنيين المتقدَمين.

ويبدو أنَ الذي ورد في الإنجيل وجاءت به البشارة هو اسم (أحمد)؛ إذ لم تكن بشارة عيسى عليه السلام مجرَدة عن ذكر الاسم، واستخدام هذا الاسم (احمد) دون ذاك؛ باعتباره أحد أسماء الرسول صلى الله عليه وآله أيضاً[2]، واتيان القرآن الكريم في هذه الآية بهذا الاسم الذي جاءت به البشارة في الإنجيل يشكَل بنفسه دليلاً على دقَة القرآن الكريم.

---

(١) وقال البغوي في تفسيره٤: ٣٣٧: «والألف فيه للمبالغة في الحمد. وله وجهان، أحدهما: أنَه مبالغة من الفاعل، أي الأنبياء كلهم حمَادون لله عزَ وجلَ، وهو أكثر حمداً لله من غيره. والثاني: أنَه مبالغة من المفعول، أي الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة، وهو أكثر مناقب، وأجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد بها».

(٢) نقل الفيض الكاشاني في تفسيره الأصفى عن القمي ما حاصله: ((سأل بعض اليهود رسول الله لم سمَيت أحمد؟ قال: لأنَي في السماء أحمد مني في الأرض)). وورد: ((إنَ اسمه في صحف إبراهيم الماحي، وفي توراة موسى الحاد، وفي إنجيل عيسى أحمد، وفي الفرقان محمد)) (٢: ١٢٩٩، ١٣٠٠).

ومن جهة ثانية يكون دليلاً على الوحي الإلهي؛ وذلك أنّ النبي الأمي الذي لم يكن يقرأ ويكتب، ولم يخط القرآن بيده **﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾**(١)، ما كان ليطّلع على مثل هذه الخصوصيات الدقيقة في كتاب الإنجيل، التي لم يكن يطّلع عليها إلاّ الأخصائيون من علماء الإنجيل.

وعليه فمن دون طريق الوحي الإلهي لم يكن من الممكن لرسول الله ﷺ الاطلاع على مثل هذه الخصوصية، بحيث يستخدم هذه الصيغة في مقابل تلك الصيغة.

**الأمر الثاني: البشارة بالنّبي ﷺ**

يبدو من خلال مراجعة القرآن الكريم أنّ الأنبياء جميعهم قد بُشّروا بالنّبي ﷺ، وبمجيئه في عصره، كما يبدو منه أيضاً أنّ الله سبحانه وتعالى أخذ من الأنبياء ميثاقاً في نصرة هذا الرسول.

ومعنى النصرة ـ مع قطع النظر عن قضية الرجعة(٢) ـ هنا هي البشارة به، وبأنّه مرسل من قبل الله سبحانه وتعالى، فيبشّرون به أقوامهم، وبالتالي يكون هذا حثّ منهم لأقوامهم وتحريض على أنْ يكونوا إلى جانب هذا النبي، وأن يُؤمنوا به، كما قال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا**

---

(١) العنكبوت:٤٨.

(٢) والرجعة من الأفكار المعروفة في مذهب أهل البيت عليهم السلام، والمقصود بها رجعة الصالحين في آخر الزمان، وذلك عندما يظهر الإمام المهدي عليه السلام. منه دام ظله.

مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(١).

حيث يُفهم من الآية الكريمة أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أخذ الميثاق ـ الذي هو الإيمان بهذا النبي، والنصرة له ـ من هؤلاء النبيين، وشدَّد عليهم فيه تشديداً غليظاً، وجعله مقيَّداً لحركتهم ولدعوتهم.

ثم إنَّ الآية مورد البحث وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(٢)، تريد القول بأنَّ عيسى عليه السلام قد بشَّر بالرسول صلى الله عليه وآله، لكن هل هذه البشارة مكتوبة في الإنجيل أو لا؟

لم تتعرَّض الآية الكريمة إلى ذلك، ولكنَّ في آية أُخرى نجد أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله هو من الأنبياء الذين صرِّح بهم في التوراة والإنجيل، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

---

(١) آل عمران: ٨١.

(٢) الصف: ٦.

(٣) الأعراف: ١٥٧.

وفي آية أخرى وردت الإشارة أيضاً إلى هذا المعنى المتقدّم[١]، ليس فقط إلى شخص رسول الله ﷺ، بل وإلى أمته أيضاً، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْأَنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[٢]، وكانت الإشارة في هذه الآية الكريمة على شكل ضرب المثل الأعلى، لا على شكل التصريح بالاسم، أمّا في الآية السابقة الواردة في سورة الأعراف ففيها تصريح بشخصية هذا الرسول، وخصوصياته.

وفي آية أخرى إشارة إلى تنبّؤ أهل الكتاب ـ الذين عايشوا المسلمين في المدينة ـ بقرب ظهور هذا النبي، الأمر الذي يدلّل على وجود علامات في التوراة على هذا المعنى، وإلاّ أنّى لهم معرفة ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٣]، حيث كان اليهود يستفتحون على المشركين برسول الله وبعثته.

---

(١) وهو وجود البشارة في التوراة والإنجيل.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣) البقرة: ٨٩.

فعندما تحدث صراعات ونزاعات بين اليهود والمشركين آنذاك كان اليهود ـ الذين هم من أهل الكتاب والوحي ـ يقولون لهم: سيبعث الله رسولاً وكتاباً وسنكون من أنصاره وأصحابه وأوليائه وبه نتغلب عليكم وننتصر، ونفتح به بلادكم.

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿**وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾، بمعنى انهم كانوا يجعلونه وسيلة الفتح والنصر لهم على بقية المشركين.

وبالطبع من الناحية الخارجية استبدل الله سبحانه وتعالى هؤلاء اليهود والذين كانوا يستفتحون برسول الله قبل ظهوره بالمشركين الذين كانوا يُستفتح عليهم، فهؤلاء آمنوا برسول الله ﷺ ونصروه وأمّا اليهود فقد خذلوا رسول الله ﷺ.

فيتضح مما تقدم أنّ في هذه الآية إشارة واضحة على بعثة النبي ﷺ وأنها كانت من القضايا المطروحة والمعروفة عند اليهود، ولم تكن مكتوبة في كتبهم الخاصة فقط.

**الفقرة الثالثة:** قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾[1].

اختلف المفسرون[2] في عود ضمير الفاعل في قوله تعالى:

---

(١) الصف: ٦.

(٢) قال الشيخ الطوسي: «وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قيل فيه قولان: أحدهما: انّ محمداً لمّا جاء كفّار قومه بالبينات ـ أي المعجزات ـ قالوا هذا سحر واضح بيّن. وقال قوم: معناه فلمّا جاء عيسى قومه بالبينات ←

﴿جَاءَهُمْ﴾ في أنّه هل يرجع إلى النبي عيسى عليه السلام، أو إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله، فعلى الأول يكون مدلول الفقرة هو: فلمّا جاءهم عيسى بالبينات قالوا هذا سحر مبين[1]، وعلى الثاني يكون مدلولها هو: فلمّا جاءهم محمّد صلى الله عليه وآله بالبينات قالوا هذا سحر مبين[2]؟

في الواقع إنّ كل واحد من الاحتمالين ممكن ومعقول في نفسه، والدلالة واحدة؛ باعتبار أنّ هذه التهمة من التهم التي تُوجّه إلى الأنبياء عليهم السلام بشكل عام.

وهذا ما يبدو من خلال استعراض مجموع الآيات التي تناولت هذه التهمة، وأشارت إليها، ومن جانب آخر نفس سياق آيات سورة الصف المباركة تدلّ على هذا المعنى، فبلحاظ ما ورد بعد هذه الآية الكريمة وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ

---

والمعجزات قالوا له هذا القول» التبيان٩: ٥٩٤.

(١) وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين منهم: مقاتل بن سليمان في تفسيره٣: ٣٥٦، والسمرقندي في تفسيره٣: ٤٢١.

(٢) وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين منهم: الشيخ الطبرسي في تفسير مجمع البيان٩: ٤٦٣، والسيد الطباطبائي في تفسير الميزان١٩: ٢٥٤، والشيخ ناصر مكارم الشيرازي في الأمثل في (تفسير كتاب الله المنزل) ١٨: ٢٨٩، وابن جرير الطبري في جامع البيان٢٨: ١١١، وغيرهم.

**كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾**(١)، والذي يتحدث عن رسول الله ﷺ يفترض رجوع الضمير في ﴿**جَاءَهُمْ**﴾ إلى النبي ﷺ، وبلحاظ نفس هذه الآية الكريمة ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ**﴾، والتي تناولت الحديث عن عيسى عليه السلام وأيضاً بلحاظ أنّ القرآن الكريم يريد التحدّث عن عيسى عليه السلام، وعن موقف بني إسرائيل منه، فمن المعقول جداً أن يكون مرجع الضمير في ﴿**جَاءَهُمْ**﴾ إلى عيسى عليه السلام.

ويكون هذا في الواقع أسلوب من أساليب القرآن الكريم التي يستخدمها في الانتقال من موضوع إلى آخر.

ومع غض النظر عن هوية هذا النبي، هل هو عيسى عليه السلام أو محمد ﷺ، فالاتهام بالسحر من التهم التي لم تكن مختصة بقوم دون قوم، بل كانت رائجة بين مختلف أقوام الأنبياء، فعندما يأتي الأنبياء بالرسالات وبالأدلة الواضحة على هذه الرسالات يواجهون بهذه التهمة.

والذي يبدو من خلال القرآن الكريم أنّ هذه التهمة لم تروّج في مقابل المعجزات ذات الطبيعة المادية(٢) فقط، من قبيل خسف القمر أو

---

(١) الصف:٨ ــ ١٠.

(٢) من الشواهد القرآنية على ترويج تهمة السحر في مقابل المعجزات ذات الطبيعة المادية قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا**←

تكلم الحجر أو تحرّك الشجر التي كانت من معجزات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أو من قبيل إحياء الموتى أو إبراء الأكمه والأبرص التي كانت من معجزات عيسى عليه السلام، أو من قبيل تحوّل العصا إلى حيّة تسعى، أو خروج اليد من الجيب بيضاء من غير سوء، التي كانت من معجزات موسى عليه السلام، وأمثال ذلك من المعاجز المادية، بل كانت تُروّج أيضاً في مقابل المعجزات ذات الطابع المعنوي[1]، من قبيل دعوى الارتباط بالوحي، ونزول الملائكة على الأنبياء، أو الارتباط بعالم الغيب، وغير ذلك مما كان يدعيه هؤلاء الأنبياء، كما حصل بالنسبة إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله.

فمع أنّ القرآن الكريم لم يكن معجزة مادية بالمعنى المتقدّم من المعاجز، وإنّما كان عبارة عن مضامين عالية تُمثّل قيماً ومُثُلاً وتصورات عن الكون والحياة، وتُمثّل تشريعات وقوانين لتنظيم العلاقات في المجتمع، والى غير ذلك من المضامين التي ترتبط بالجانب المعنوي، ولكن مع ذلك واجهت هذه المضامين تهمة السحر، التهمة

---

﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ المائدة:١١٠، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ القصص:٣٦، وغيرها من الآيات.

(١) وهناك عدّة شواهد قرآنية على ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سبأ:٤٣، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الاحقاف:٧، وغيرها من الآيات.

الرائجة التي كانت تستخدم كسلاح وكأداة من أدوات العدوان في مواجهة الأنبياء، ومحاولة تسقيطهم وإضعاف شخصيتهم ووجودهم في المجتمع.

ولذا كان استخدام هذه التهمة ضدهم حتى بعد وضوح الرسالة ووجود الأدلة الكافية عليها، الأمر الذي يكشف عن أنّ هذه التهمة هي مجرد ادعاءٍ وتهمةٍ لا يُراد منها إلاّ الإيذاء والتسقيط، ولم تكن تستند إلى عوامل موضوعية، ولا إلى واقع في نفوس هؤلاء الأقوام الذين ليس لديهم أيّ شكٍ في حقيقة هذه الرسالة وصدقها.

وبما أنّ هذه التهمة لم تستند إلى واقع موضوعي نجد أنّ القرآن الكريم لم يهتم بمعالجتها، فلو كانت بالفعل تستند إلى الشك لكان من الواجب عندئذ إقامة الحجة، وذكر الأدلة لتوضيح الحقيقة، ورفع الشك وتبديله باليقين، ومن الواضح أنّ هذا لا يتم من خلال طرح القرآن الكريم لهذه التهمة دون معالجتها، ممّا يُدلّل على وضوح بطلانها.

وتُستخدم هذه التهمة عندما لا تبقى للمشركين حجة أمام الرسالة، وعندما تصبح الأدلة واضحة، والبيّنات قائمة، ولا عذر لهم في عدم الاستجابة بعد إتيان النبي بالبينات والأدلة، فمن أجل التهرّب من هكذا موقف يلجأ هؤلاء المشركون إلى مثل هذه التهمة.

وفي قوله تعالى ما يُشير إلى ذلك: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ**﴾، أي بعد قيام الحجة عليهم ووضوح الطريق قالوا هذا سحر.

وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي تشابه ما ورد في الآية

المتقدّمة[١]، كما توجد بعض الآيات أكثر وضوحاً في هذا المجال[٢]، منها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٣]، فكأن استخدامهم لتهمة السحر لابد منها حتى مع وجود هذه الدرجة العالية من الوضوح.

وقد أشار القرآن الكريم في سورة الإسراء إلى المطالب التي كان يتوسل بها المشركون؛ من أجل تعجيز رسول اللهﷺ عند الاستدلال على صدق دعواه، وأشار أيضاً إلى أنّه حتى لو نُفّذت هذه المطالب ـ التي هي في الواقع مطالب غير معقولة ـ فإنهم لن يؤمنوا به وبدينه؛ لأنّ المسألة ليست منشؤها عدم وجود الدليل أو الحجة، وإنّما هي عناد مع الحقّ، وتمسّكهم بمثل هذه التهم؛ من أجل التهرّب من الإيمان بالله سبحانه وتعالى، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾[٤]، أي عندما جاءهم الهدى لم يمنعهم إلاّ الهوى والأنا، فكانوا يقولون كيف يبعث الله إلينا رسولاً من البشر مع أنّنا من البشر، بل المفروض أن ينزّل علينا الملائكة؟

---

(١) كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يونس:٧٦، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ القصص:٣٦، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ الزخرف:٣٠، وغيرها من الآيات.

(٢) أي بعد قيام البينة ووضوح الحجة يتهم الأنبياء بتهمة السحر.

(٣) الأنعام:٧.

(٤) الإسراء:٩٤.

فيقول تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾[١].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾[٢]، أي مع وجود هذه الأمثلة والبيّنات والآيات عاند هؤلاء الناس، وكفروا، وأرادوا من النبي مطالب تعجيزية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ۞ وَتَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾[٣]، أي حتى لو صعدت إلى السماء ورأينا ذلك بأعيننا، مع ذلك لا نؤمن لرقيّك هذا، ولو نزّلت علينا منها كتاباً أيضاً لا نؤمن حتى نقرأه بأعيننا.

ويشير القرآن الكريم في سورة الأنعام إلى أنّه حتى لو نُزّل هذا الكتاب ولمسوه بأيديهم لقالوا هذا سحر مبين ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٤].

---

(١) الإسراء:٩٥.

(٢) الإسراء:٨٩.

(٣) الإسراء:٩٠ ــ ٩٣.

(٤) الأنعام:٧.

## الآية الثالثة: الموقف الإلهي من تهمة السحر

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

اقتضى السياق القرآني في الآية الكريمة ذكر الموقف الإلهي تجاه تهمة السحر التي اتُهِمَ بها النبي[1]، حيث تقيّم الآية الكريمة هذا الافتراء والاتهام وتبيّن أنه ظلم شديد، حيث اُستُخدمت هنا صيغة الاستفهام الاستنكاري، مع استخدام أفعل التفضيل بالنسبة إلى الظلم، وهذا فيه دلالة على أنّ هذا النوع من الافتراء ليس مجرد ظلم عادي، وإنّما هو ظلم شديد.

لقد جاءت صيغة (أظلم) في الموارد التي يُذكر فيها التكذيب بآيات الله، وعدم الالتزام بعهوده، منها الآية الكريمة مورد البحث ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾.

ولعلّ استخدام الظلم بصيغة أفعل التفضيل هنا؛ بسبب وجود مجموعة من الأبعاد في هذا الافتراء،منها:

**البعد الأول:** إنّ الافتراء المتقدم فيه ظلم لله سبحانه وتعالى، وبطبيعة الحال يتضاعف الظلم ويكبر عندما يكون المظلوم كبيراً وعظيماً؛ ولذلك ظلم المؤمن يكون أشدّ من ظلم الكافر، وظلم العالم أشدّ عند الله سبحانه وتعالى من ظلم الجاهل، وظلم الإمام عند الله سبحانه وتعالى أشدّ من ظلم المأموم، وهكذا ظلم النّبي وإيذائه يكون

---

(١) سواء كان هذا النبي هو عيسى عليه السلام أم النبي الأكرم محمد ﷺ، حيث تقدم سابقاً الخلاف في المراد من النبي الذي جاء بالبينات.

أشدّ من إيذاء المؤمن العادي، فكيف إذا كان الظلم ظلماً لله سبحانه وتعالى، خالق الكون، فلاشك أنّه يكون أشدّ أنواع الظلم؛ ولذلك نجد أنّ الكذب على الله سبحانه وتعالى وعلى رسوله من جملة المفطّرات في شهر رمضان وغيره.

فالكذب في نفسه وان كان من المحرّمات ومن الكبائر الشديدة إلاّ أنّه ليس بمفطّر، ولكنّ الكذب على الله سبحانه وتعالى؛ باعتبار ما فيه من درجة الحرمة الكبيرة ودرجة عالية من التمرّد على الله سبحانه وتعالى يكون أكبر من أصل الكذب، ويكون مفطّراً.

**البعد الثاني**: في الوقت الذي يكون هناك ظلم لله سبحانه وتعالى في الافتراء يكون هناك ظلم أيضاً للإنسان نفسه؛ لأنّ الإنسان بتمرّده على الله سبحانه وتعالى يخرج عن خط العدل، وخروجه يُسمّى ظلم، وهذا الظلم لا يؤذي الله سبحانه وتعالى، ولا يضره؛ فالإنسان لا يمكن له إنزال الضرر بالله سبحانه وتعالى، وإنّما يكون ضرره على نفسه، وبالتالي يتعرّض الإنسان إلى ظلم نفسه؛ ولذلك يُعتبر هذا النوع من الظلم ـ أي ظلم الإنسان لنفسه ـ من الأمور التي تلازمه في كل حياته.

وهذا يفسر لنا ما يُذكر من أنّ الظلم غريزة في الإنسان، فالإنسان إذا لم يظلم غيره فقد يظلم نفسه؛ وذلك عندما يُقصّر أمام الله سبحانه وتعالى، فأيّ تقصير للإنسان تجاه الله سبحانه وتعالى يكون نوعاً من أنواع الظلم للنفس[1]. وعليه فإذا كان في هذا الظلم افتراء كان هذا

---

(١) من الواضح أنّ عدم شكر النعمة بالدرجة المناسبة يعتبر أيضاً نوعاً من أنواع الظلم، ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ ←

إضراراً بالنفس، وهو ظلم لها، وبالتالي يشتدّ الظلم.

**البعد الثالث:** أنّ شدّة الظلم هنا لما يتضمّنه الافتراء من حالة العلم بالواقع وإنكاره، فهؤلاء المفترون يعلمون أنّ النبي ليس ساحراً، وأنّه قد جاء بالبينات والأدلة، ولكن مع ذلك قالوا عنه ساحر، وهذا نوع من أنواع العناد، ومن الواضح أنّ الظلم إذا كان مع الإصرار والعناد يصبح أكثر شدّة.

ولعلّ مجموع هذه الأبعاد هو الذي اقتضى إتيان الصيغة بهذا الشكل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾.

ثمّ إنّ ورود مفردة الإسلام في الآية الكريمة ـ كما يفترض بعض المفسرين[1] ـ قرينة على أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هو نبينا ﷺ؛ باعتبار أنّه نبي الإسلام، وهو الذي يدعو إليه.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

ولعلّ إطلاق هذا الاسم (الإسلام) على المسلم؛ باعتبار حالة التسليم والخضوع لله سبحانه وتعالى، ولهذا ففي هذا الاسم جنبة

---

﴿الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤]. فباعتبار أنّ نعم الله سبحانه وتعالى نعم مستغرقة لكل حياة الإنسان، ولكل وجوده، فمهما شكر الإنسان لا يتمكّن من استيعاب نعم الله سبحانه وتعالى، وعليه فيبقى بدرجة من الدرجات ظالماً لنفسه، غاية الأمر أنّ بعض درجات هذا الظلم ليس محرّماً؛ لعدم تمكّن الإنسان من الوصول إلى تلك الدرجة العالية من شكر النعم شكراً كاملاً؛ لأنّه لو شكر بالدرجة الأعلى لكان قد انتهى إلى درجة أعلى من الكمال، وعندما يتخلّف عن ذلك فهو ظالم لنفسه. منه ﷺ.

(١) راجع تفسير الميزان ١٩: ٢٥٤.

أخلاقية ومعنوية، لا ينبغي النظر إليه على أساس أنّه مصطلح أو اسم كباقي الأسماء، من قبيل اسم زيد أو عمرو، أو أي اسم آخر.

فالإنسان إنّما يصدق عليه هذا العنوان فيما إذا كان مسلّما لله سبحانه وتعالى، وخاضعاً له، وفيما إذا كانت كل معالم سلوكه وأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته متطابقة مع الأحكام الشرعية، ومع الأوامر الإلهية، وأمّا مع عدم وجود هذه الحالة من التسليم عنده فعنوان المسلم لا ينطبق عليه حقيقةً[1].

---

(١) قال السيد الطباطبائي: «الإسلام والتسليم والاستسلام بمعنى واحد، من السلم، وأحد الشيئين إذا كان بالنسبة إلى الآخر بحال لا يعصيه ولا يدفعه فقد أسلم وسلم واستسلم له، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ البقرة:١١٢، وقال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام:٧٩.

ووجه الشيء ما يواجهك به، وهو بالنسبة إليه تعالى تمام وجود الشيء، فإسلام الإنسان له تعالى هو وصف الانقياد والقبول منه لما يرد عليه من الله سبحانه من حكم تكويني، من قدر وقضاء، أو تشريعي من أمر أو نهي أو غير ذلك.

ومن هنا كان له مراتب بحسب ترتب الواردات بمراتبها:

**الأولى:** من مراتب الإسلام، القبول لظواهر الأوامر والنواهي بتلقي الشهادتين لساناً، سواء وافقه القلب أو خالفه، قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الحجرات:١٤.

ويتعقّب الإسلام بهذا المعنى أول مراتب الإيمان وهو الإذعان القلبي بمضمون الشهادتين إجمالاً، ويلزمه العمل في غالب الفروع.

**الثانية:** ما يلي الإيمان بالمرتبة الأولى، وهو التسليم والانقياد القلبي لجل الاعتقادات الحقّة التفصيلية، وما يتبعها من الأعمال الصالحة، وإن أمكن التخطي في بعض الموارد، قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾

﴿وكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ الزخرف:٦٩، وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ البقرة:٢٠٨، فمن الإسلام ما يتأخر عن الإيمان محققاً، فهو غير المرتبة الأولى من الإسلام، ويتعقب هذا الإسلام المرتبة الثانية من الإيمان، وهو الاعتقاد التفصيلي بالحقائق الدينية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الحجرات:١٥، وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الصف:١١، وفيه إرشاد المؤمنين إلى الإيمان، فالإيمان غير الإيمان.

**الثالثة:** ما يلي الإيمان بالمرتبة الثانية، فإنّ النفس إذا أنست بالإيمان المذكور، وتخلّقت بأخلاقه تمكّنت منها، وانقادت لها سائر القوى البهيمية والسبعية، وبالجملة القوى المائلة إلى هوسات الدنيا وزخارفها الفانية الداثرة، وصار الإنسان يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، ولم يجد في باطنه وسره ما لا ينقاد إلى أمره ونهيه، أو يسخط من قضائه وقدره، قال الله سبحانه: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ النساء:٦٥.

ويتعقّب هذه المرتبة من الإسلام المرتبة الثالثة من الإيمان، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ المؤمنون:٣، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى غير ذلك، وربما عُدت المرتبتان الثانية والثالثة مرتبة واحدة. والأخلاق الفاضلة من الرضاء والتسليم، والحسبة والصبر في الله، وتمام الزهد والورع، والحب والبغض في الله من لوازم هذه المرتبة.

الرابعة: ما يلي المرتبة الثالثة من الإيمان، فإنّ حال الإنسان وهو في المرتبة السابقة مع ربه حال العبد المملوك مع مولاه؛ إذ كان قائماً بوظيفة عبوديته حقّ القيام، وهو التسليم الصرف لما يُريده المولى أو يحبه ويرتضيه، والأمر في ملك ربّ العالمين لخلقة أعظم من ذلك وأعظم، وإنّه حقيقة الملك الذي لا استقلال

وهذه التسمية كما يبدو من القرآن الكريم أنها تسمية قديمة، ولم تستحدث في عصر النبي(ص)، ولعلّها كانت من زمن إبراهيم(ع)، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ..﴾[1]، بل قد يفهم من القرآن الكريم أنَّ أصل الدين ومضمونه الذي دعا إليه الأنبياء(ع) هو هذه الحالة من التسليم لله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[2]

وبناءً عليه فلا يكون هذا الاسم مختصاً بهذه الأمة، بل غاية الأمر أنَّ هذه الأمّة لمّا كانت هي الأمة الخاتمة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[3]، وهي آخر الأمم التي ترتبط بالأديان استقرَّ عليها هذا الاسم الذي توارثه الأنبياء واحداً بعد واحد، وكان لكل المسلمين.

فإذا أخذنا الإسلام بهذا المفهوم العام يكون معنى الآية حينئذٍ أنَّ

---

دونه لشيء من الأشياء لا ذاتاً ولا صفة، ولا فعلا على ما يليق بكبريائه جلت كبريائه...» تفسير الميزان١: ٣٠١، ٣٠٢.

(١) الحج:٧٨.

(٢) آل عمران:١٩.

(٣) آل عمران:١١٠.

أشدّ النّاس ظلماً هو من يفتري على الله الكذب، فهؤلاء في الوقت الذي يدعون فيه إلى الله سبحانه وتعالى، وللتسليم له، وإذا بهم بعد قيام الحجج والبيّنات يتنكّرون لذلك، ويتّهمون النّبي بالسحر، فهؤلاء يكونون من أشدّ الناس ظلماً.

وهذه القضية عامة، وليست مختصة بمن ينكر نبوة النّبيﷺ، فكلّ من ينكر نبوة نبيٍ يدعو إلى الإسلام وإلى الله بعد قيام الحجة فهو من أشدّ الناس ظلماً لله سبحانه وتعالى.

وبهذا يظهر الارتباط والصلة بين هذه الآية الكريمة وبين الآيات التي قبلها.

## الجهة الثالثة: استفادات عامة

يكون البحث في هذه الجهة حول بعض الاستفادات العامة من آيات المقطع الشريف.

## الاستفادة الأولى: الهداية والضلالة

عند مراجعة مجمل الآيات القرآنية التي تناولت موضوع الهداية والضلالة وأسبابهما والآثار المترتبة عليهما نلاحظ أنّ هناك مجموعة من الأمور بعضها مرتبط ومكمّل للبعض الآخر، وهي:

### الأمر الأول: سُبل الهداية

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان مختاراً مريداً، أي متمكّناً من

اختيار الهدى أو الضلال ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1]، ثمّ منّ عليه سبحانه وتعالى بلطفه ورحمته بأن خلق في داخله هدايتين:

١ـ **هداية العقل:** وهو ما أودعه الله سبحانه وتعالى في الإنسان من النظر والفكر والعقل، ولذلك نجد في القرآن الكريم تركيزاً على استخدام العقل في مقام التعرّف على الحقائق، وأنه هو الذي يهتدي به الإنسان إلى المعرفة والعلم، ويصبح من خلاله إنساناً مهذباً ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2].

ويؤكّد القرآن الكريم أيضاً على أهمية دور العقل واللّب في معرفة الحقائق والوصول من خلاله إلى الهداية والاستقامة[3].

٢ـ **هداية الفطرة:** وهي تلك الأحاسيس والمشاعر التي أودعها الله سبحانه وتعالى في نفس الإنسان، والتي توجّهه نحو الله سبحانه وتعالى، وتجعله عارفاً به، فيما إذا لم يقع تحت تأثير المؤثّرات الخارجية، فالإنسان الذي يركب البحر، ويواجهه الموج، وتتقطع به السبل نجده يتجه إلى نفسه وذاته، وبالتالي يتوجه إلى الله سبحانه

---

(١) الكهف:٢٩.

(٢) فاطر:٢٨.

(٣) لقد وردت في هذا المعنى آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ الرعد:١٩، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الزمر:٩، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الزمر:١٨.

وتعالى، ويستغيث به[١].

وهناك الكثير من المشاهد والصور التي تحدّث عنها القرآن الكريم والتي ترتبط بهذا المعنى[٢].

وقد أكّد القرآن الكريم على أنّ الفطرة[٣] هي التي تدعو الإنسان إلى التوجّه إلى الله سبحانه وتعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾**[٤].

ومضافاً إلى هاتين الهدايتين المودعتين في ذات الإنسان، هناك هداية أخرى خارجية، وهي الهداية الخارجية.

**الهداية الخارجية**

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل؛ من أجل تعريف الإنسان بخالقه، وتعريفه بطريق الحق والصواب، وتعليمه الحكمة، فمن أجل ذلك أنزل الله سبحانه وتعالى مع هؤلاء الأنبياء الكتب

---

(١) كما في قوله تعالى: **﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾** لقمان:٣٢.

(٢) قال تعالى: **﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** يونس:١٢.

(٣) الفطرة لغةً: هي «التي طُبعت عليها الخليقة من الدين، فطرهم الله على معرفته بربوبيته، ومنه حديث النبي ﷺ: **((كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه))**» العين٧: ٤١٨.

(٤) الروم:٣٠.

والشرايع[١].

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾ الذي يبين فيه إن إرسال الأنبياء إنما هو لبيان الحقيقة وإرشاد الناس إلى الطريق المستقيم الذي فيه مصلحتهم؛ إذ لا يضل الله تعالى قوماً حتى يبيّن لهم الحقيقة والواقع، ولا يضلهم بدون تلك الرحمة الإلهية المتمثّلة بإرسال الرسل وإنزال الكتب والشرائع.

---

(١) وقال الشهيد الحكيم في كتاب (تفسير سورة الحمد): «إنّ تفسير حاجة الإنسان إلى مزيد من الهداية حتى بعد أن يهتدي، ويقف موقف العبودية والاستعانة بالله تعالى، راجع إلى أنّ الإنسان وإن تيسّرت له أسباب الهداية الذاتية، مثل العقل الذي يهديه إلى الله بما تفضّل الله به عليه، وكذلك الفطرة التي تجعله يتجه إلى الله تعالى، لأنّ الإنسان ينزع إلى الكمال كما ذكرنا، والله هو الكمال المطلق، فلابدّ أن يتجه إليه بفطرته.

ولكن بالرغم من كل ذلك هو بحاجة إلى الهداية الخارجية؛ لعدم كفاية العقل والفطرة وحدهما في تحقيق هدايته وتكامله وإيصاله إلى الدرجات العالية في مواقع القرب من الله تبارك وتعالى.

وهذه الهداية الخارجية تارة تكون هي الوحي الإلهي والكتب السماوية والرسالات الإلهية التي جاءت على يد الأنبياء والمرسلين، وأخرى تكون بالتدخّل الإلهي المباشر في الهداية.

ولا شك أنّ الإنسان يشعر دائماً بالحاجة إلى الهداية الخارجية الثانية، والتي يُعبّر عنها بعض المفسرين بالتوفيق الإلهي، لأنّ الإنسان يرى أنّ مجرد دلالة العقل والفطرة الإنسانية وكذلك خط النبوة والرسالات الإلهية على الطريق إلى الله غير كافٍ في تحقق الهداية خارجاً ــ وإن كانت كافية في إقامة الحجة عليه من الله تعالى ــ حيث قد يتحقق الجحود والتمرّد من هذا الإنسان» تفسير سورة الحمد: ٢٥٦، ٢٥٧.

بعد كل هذا قد يُعاقب الله سبحانه وتعالى الإنسان بالإضلال فيما لو اختار الضلال قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[(١)]، ثمّ يقول تعالى: ﴿...فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(٢)].

والظاهر أنّ المراد من الإشاءة في الآية الكريمة هي الإشاءة الكلية لله تعالى، التي تتماشى وفق النظام العام الذي وضعه للإنسان، وهو نظام الاختيار الذي جعل الإنسان مختاراً يشاء الكفر والضلال أو الإيمان والهدى، وعلى أساس هذا النظام العام نُسبت الإشاءة في الآية إلى الله سبحانه وتعالى.

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾[(٣)]، التي تشير الآية الكريمة إلى أنّ الإنسان عندما يواجه الامتحان والابتلاء قد يختار الهدى، وقد يختار الضلال؛ وذلك نتيجة لمختلف المؤثّرات التي تؤثّر عليه في حياته، مع بقائه مختاراً مريداً، والمقصود من الفتنة في الآية الكريمة هو الامتحان الذي يتعرّض له الإنسان من خلال ما أودعه الله سبحانه وتعالى في ذاته.

---

(١) التوبة:١١٥.

(٢) إبراهيم:٤.

(٣) الأعراف:١٥٥.

فالمتحصّل إذن، أنّ الإنسان خُلق مريداً، متمكّناً من اختيار الهداية أو الضلالة، كما انّ الله سبحانه وتعالى لم يترك الإنسان لمجرد إرادته، وإنّما تفضّل عليه بوسائل الهداية أيضاً، الوسائل التي يهتدي بها إلى طريق الحقّ والصواب.

ومن خلال مراجعة الآيات القرآنية الشريفة التي تناولت بعثة الأنبياء وإرسال الرسل وأسبابها وغاياتها نجد أنّ الهدف من ذلك هو هداية الإنسان[1].

**الأمر الثاني: اختيار الإنسان للضلالة**

إنّ اختيار الإنسان لطريق الضلال، مع وجود العوامل الذاتية في داخله من العقل والفطرة والوجدان، ومع وجود العامل الخارجي أيضاً، تثير تساؤلاً كبيراً لابد من الإجابة عليه.

ويشير القرآن الكريم في عدد من آياته إلى أن الهوى هو السبب في الاختيار[2]، فالله سبحانه وتعالى كما أودع في الإنسان تلك المشاعر

---

(١) من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد:٧، وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ المائدة:٤٦، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف:٥٢، وغيرها من الآيات الكريمة.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ الكهف:٢٨، وقوله تعالى: ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ طه:١٦، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ

الفطرية التي تهديه إلى الحقّ، وتعرّفه به، كذلك أودع فيه غرائز ونوازع وأحاسيساً، يُسمّى مجموعها بـ(الهوى) الذي يجر الإنسان إلى طريق الضلالة؛ لأنه يجعله مرتبطاً بالمادة، وبالدّنيا بما فيها من شهوات وملذات، ممّا يؤدّي به بالتالي إلى تعرّضه للضلالة والانحراف، قال تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾**[1].

وقد يُطرح تساؤل آخر عن سبب خلق الهوى في نفس الإنسان الذي ربما يؤدّي به إلى الانحراف، وبعبارة أخرى: ما الحكمة من خلق الهوى الذي قد يؤدي إلى تضارب ميول هذا الإنسان مع ميول الآخر؟ لماذا لم يخلق الله تعالى الإنسان كما خلق الشمس والقمر بما فيهما من حالة انسجام دائم؟

إنّ الأحاسيس والغرائز التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الإنسان تُمثّل طاقات محرّكة له، من دونها لا يمكن له التكامل، والوصول إلى الله سبحانه وتعالى، ففي الوقت الذي يمكن أن تدفع هذه الأحاسيس الإنسان نحو الضلال يمكن أن تدفع به نحو الكمال إذا استخدمها استخداماً صحيحاً، طبق التوجيهات التي جاء بها الأنبياء، وأما إذا أساء استخدامها دفعت به نحو الضلال. فبدون هذه الأحاسيس لا

---

﴿أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ القصص: ٥٠، وغيرها من الآيات الكريمة.

(١) الجاثية: ٢٣.

يمكن للإنسان التعرّض إلى المحنة والابتلاء والفتنة التي بها يصل إلى الكمال، فهذا هو الطريق الوحيد الذي يتكامل من خلاله الإنسان، وهذا النوع من التكامل لا يمكن أن يتمّ إلاّ من خلال تعريض الإرادة لمختلف المؤثّرات الداخلية والخارجية.

أمّا الشمس والقمر فلا يمكن لهما التكامل، بل كل الموجودات التي ليس فيها هذه القابلية من التكامل تبقى على حالها الذي خلقها الله سبحانه وتعالى عليه، سواء كان في هذا الوجود نقص أم كمال.

كما أنّ وجود الشهوات والرغبات والميول لا تفقد الإنسان إرادته، بل يبقى مُريداً في كل مراحل حياته، ويبقى قادراً على اختيار الخير أو الشر؛ ولذلك يتكامل الإنسان أو يتسافل.

**الأمر الثالث: الإضلال من قبل الله**

لو اختار الإنسان نتيجة للظروف التي مرّ بها، ونتيجة لوقوعه تحت تأثير الشهوات والرغبات طريق الضلال فالله سبحانه وتعالى وكعقوبة له على اختياره هذا قد يزيده ضلالاً وانحرافاً وزيغاً، قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ**

(١) الصف:٥.

(٢) البقرة:١٠.

بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[١].

ففي هذه الآيات وغيرها يشير القرآن الكريم إلى أنّ الضلال يؤدي إلى مزيد من الإضلال من قبل الله سبحانه وتعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[٢] أراد القرآن الكريم بيان أنّ هؤلاء المنافقين عندما اكتسبوا الضلال والانحراف والعمل غير الصالح أركسهم الله، وكما تُعبّر الآية الخامسة من سورة الصف ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فإنّ مثل هؤلاء لا يمكن لهم أن يهتدوا بعد أن أضلهم الله سبحانه وتعالى؛ لأنهم اختاروا طريق الضلال منذ البداية عند تعرضهم للامتحان والفتنة، وبعد اختيارهم هذا كان التدخل الإلهي بمزيد من الإضلال عقوبةً لهم.

ولا تعتبر هذه العقوبة ظلماً لهم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى أقام عليهم الحجة، وتفضّل عليهم بوسائل الهداية الذاتية والخارجية، لكنّهم هم مَن اختار الضلال.

وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم بالنسبة للكافرين والمنافقين على حد سواء، حيث تحدّث القرآن الكريم عن الكافرين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[٣]،

(١) الروم: ٢٩.

(٢) النساء: ٨٨.

(٣) البقرة: ٦.

وعن المنافقين بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(١)، فعندما ينحرف أمثال هؤلاء الناس، ويكونون في معرض إضلال الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن تأتيهم الهداية بعد ذلك.

ويُشير القرآن الكريم أيضاً إلى هذا الأمر في أوائل سورة البقرة، وذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾(٢)، فالقرآن الكريم يُجيب هؤلاء الكافرين على تساؤلهم الاستهزائي عن ضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالبعوضة، ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾، فهذا المثل في واقعه يُمثّل لوناً من ألوان الامتحان والابتلاء، ولكن ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾، فالفاسقون هم الذين يتعرّضون لمثل هذا الضلال الذي تشير إليه الآية الكريمة.

### الخلاصة

ويظهر ممّا تقدّم أنّ الذي يتعرّض لعقوبة الإضلال هو الشخص الذي يتحوّل عنده الهوى إلى إله يعبده، وهذا الأمر يُشير إلى نقطة مهمة تفتح باب الأمل للإنسان؛ لأنّ لتأثير الهوى على الإنسان

---

(١) المنافقون:٦.

(٢) البقرة:٢٦.

حالتين:

**الأولى:** أن يكون التأثير فيها محدوداً، أي بعد أن يقع الإنسان تحت تأثير الهوى يستغفر الله سبحانه وتعالى ويتوب إليه، ويرجع إلى حالة الهدى.

وفي مثل هذه الحالة يقبل الله سبحانه وتعالى توبته ويُكفّر عنه سيئاته، ولذلك دعا القرآن الكريم الناس إلى التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى؛ حتى يُكفّر عنهم سيئاتهم.

**الثانية:** أن يكون هذا التأثير فيها كاملاً وغيرَ محدودٍ، بحيث يتحوّل الهوى عند بعض الناس إلى إله يعبده من دون الله، ويكون كل وجوده وتصرفاته وسلوكه وأعماله تحت تأثير هذا الهوى، شأنه في ذلك شأن الذين طبع الله على قلوبهم.

فمثل هذا الإنسان يُصبح في معرض إضلال الله سبحانه وتعالى ـ وهذه الحالة هي التي تمّ الكلام عنها قبل قليل ـ ولعلَّ أشدَّ عقوبة يتعرّض لها الإنسان في حياته هي عقوبة الإضلال.

فالإنسان الذي يضله الله سبحانه وتعالى لن يجد له سبيلاً، فيتحوّل قلبه إلى قلب أعمى، وبالتالي لا يرى طريق الهداية أبداً، ومَن لا يرى طريق الهداية أبداً يكون مصيره الخلود في النّار، شأنه في ذلك شأن الكافرين والمنافقين، ولذلك على الإنسان السيطرة على شهواته وملذاته ونوازعه وميوله، وعليه أن يُجنّب نفسه التعرّض إلى عقوبة الإضلال من قبل الله سبحانه وتعالى.

## الاستفادة الثانية: التغيّر في الرسالات السماوية

يُعتبر هذا البحث من أهم البحوث القرآنية التي تحتاج إلى الكثير من التدقيق والتمحيص، الذي قلّما تناولته البحوث القرآنية بشيءٍ من التفصيل.

يرتبط البحث بالنظرية الإسلامية والقرآنية حول تفسير التاريخ وحركته، حيث يعتبر القرآن أنّ الرسالات الإلهية والتغيّرات التي تحصل فيها تُمثّل عنصراً أساسياً في حركة التاريخ، وفي التغيّر الذي يحصل في هذه الحركة. وتوجد هناك مدارس في تفسير التاريخ وفي تفسير حركته والعوامل المؤثّرة فيه، كالمدرسة المادية، التي تفترض أنّ التاريخ يتحرك ويتأثر بالعامل الاقتصادي.

وللقرآن الكريم نظريته الخاصة في حركة التاريخ، وهي ذات أبعاد متعددة وسنشير إلى أحدها، وهي قضية التغير في الرسالات.

إنّ الذي يُفهم من آيات القرآن الكريم أنّ النّاس حينما خلقهم الله سبحانه وتعالى كانوا أُمةً واحدةً.

وكانوا ـ فيما يخص العلاقات الاجتماعية ـ مُتفقين ومُجتمعين على أمر واحد، وعلى طبيعة واحدة.

ويُمكن أن يفسّر ذلك على أساس أنّ المجتمع في بداية خلقته كان مجتمع الفطرة، والعلاقات بين أفراده تقوم على أساسها، ثمّ بعد أن تطوّر المجتمع تدريجياً، أصبحت العلاقات الاجتماعية تبعاً لذلك معقّدة ومتطوِّرة ومتداخلة، وظهر التزاحم والتنافس والتضاد والصراع بين المتطلّبات المختلفة لبني الإنسان وبرز الاختلاف بين الناس، مما جعلهم بحاجة عندئذٍ إلى الرسالات والأنبياء والكتب.

فأنزل الله سبحانه وتعالى الكتب، وبعث الأنبياء لهدايتهم، ولحل الاختلافات التي حصلت بينهم، وبما أنّ أسباب الصراع باقية؛ لأنها موجودة في ذات الإنسان[١]، اقتضى ذلك استمرار إرسال الأنبياء وإنزال الكتب والشرائع والقوانين[٢].

وفي القرآن الكريم عدة شواهد تدلّ على أنّ الناس كانوا أمة واحدة ثمّ اختلفوا بعد ذلك فبعث الله سبحانه وتعالى لهم الأنبياء. كقوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[٣].

حيث تشير الآية إلى اختلاف الناس بعد أن كانوا أمة واحدة فبعث الله النّبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب؛ ليحكم فيما اختلف فيه هؤلاء الناس.

ومن خلال النظر في آيات القرآن الكريم نجد أنّ هذه الرسالات لم تكن رسالة واحدة، وإنّما رسالات متعدّدة ومتغيّرة، حيث كان في مراحل من التاريخ يبعث الله سبحانه وتعالى رسولاً برسالة ما، وفي

(١) لأنّ السبب والعنصر الأساسي في هذا الخلاف والصراع هو الهوى والشهوات التي أودعها الله سبحانه وتعالى في نفس الإنسان بشكل لا يفقد معها إرادته في اتخاذ القرار. منه ﷺ.

(٢) وهذا ما يُعبّر عنه بالهداية الخارجية.

(٣) البقرة:٢١٣.

ظله وخطه يُبعث مجموعة من الأنبياء المرتبطين برسالته إلى فترة معينة من الزمن، ثمَّ بعد ذلك يبعث رسولاً آخر، وفي ظله أيضاً مجموعة من الأنبياء أو الأولياء أو الصالحين المستمرِّين على نفس خط هذه الرسالة، وهكذا إلى أنْ وصل الحال إلى الرسالة الخاتمة.

فمن جملة الرسالات الواضحة هي الرسالة التي بُعث بها موسى عليه السلام، حيث أُنزلت عليه التوراة، وكان في ظله مجموعة من أنبياء بني إسرائيل يؤكّدون رسالته عليه السلام.

وبعد انتهاء هذه الرسالة جاءت رسالة عيسى عليه السلام، وكان في ظله أيضاً مجموعة من الصالحين، وهم الحواريون الذين أكدّوا رسالته.

وبعد انتهاء أمدها المحدد جاءت الرسالة الخاتمة، التي كان في ظلها أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومن بعدهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **((إنَّ علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل))**[(١)].

**أسباب تعدّد الرسالات**

رغم التغيّر والتعدّد في الرسالات إلاّ أنّ كلها تُؤكّد على قضايا مركزية واحدة، كوحدانية الله سبحانه وتعالى، وصفات الكمال له تعالى، وقضايا الوحي والشرائع وضرورة الدين، وقضايا ترتبط بالنفس الإنسانية، من قبيل ما للأهواء والنزعات والميول من تأثير سلبي على حياة الإنسان.

---

(١) بحار الأنوار ٢: ٢٢.

ومن قبيل القضايا المرتبطة بضرورة الالتزام بالعدل والقسط والقيام بالأعمال الصالحة، ومن قبيل قضايا الارتباط بالله سبحانه وتعالى، وتجسيدها، من خلال ممارسات سلوكية معينة، كالصلاة والصوم والحج والزكاة، وغير ذلك من الأعمال التي كان هؤلاء الأنبياء يركزون عليها، فهذه الخطوط ومثيلاتها هي الخطوط العامة والمركزية التي تؤكّد عليها كل النبوات.

وعليه فمعنى أنّ الرسالة تتغير برسالة أخرى، أو تنتهي رسالة وتأتي أخرى لا يعني ذلك أنّ الرسالة الثانية تأتي بأمور غير التي أتت بها الرسالة السابقة.

نعم، التغير يكون في غير الأمور الأساسية والقضايا المركزية، وإلاّ فما يتعلق بالقضايا الأساسية والمركزية التي ترتبط بعلاقة الإنسان بالله سبحانه تعالى، ودوره في الأرض، الذي هو دور الخلافة لله سبحانه وتعالى، وطبيعة تكوين الإنسان، والعوامل المؤثّرة في حياته وإرادته، وغير ذلك من الخصوصيات الأخرى التي تتعلّق بمثل هذه القضايا المركزية والأساسية واحدة غير متعددة.

فإذن كل الرسالات الإلهية في واقعها رسالات مشتركة تؤكّد على قضايا ومفاهيم مشتركة.

ومن هنا قد يطرح تساؤل عن أهمية هذا التغيّر في الرسالات، مع أن القضايا الأساسية هي قضايا مشتركة بين كل الرسالات، فقد صدّق موسى عليه السلام ما جاء به إبراهيم عليه السلام، وصدّق عيسى عليه السلام ما جاء به موسى عليه السلام، فقد ورد في القرآن الكريم عن لسانه عليه السلام: ﴿**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ**﴾.

وهكذا نبينا صلى الله عليه وآله أيضاً كان يؤكّد ما جاء به الأنبياء الصادقون، وما جاءت به التوراة والإنجيل.

فهذه المفاهيم والقضايا هي مشتركة بين الناس ولها شيء من الثبات والاستمرار، وبالتالي فلا بدّ لكل الرسالات السماوية من التأكيد عليها، بل وفي القرآن الكريم ما يُؤكّد على أنّ أصل الدين عند الله هو الإسلام **﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾**(١)، فالإسلام كان ثابتاً وموجوداً حتى قبل مجيء النبي الأعظم صلى الله عليه وآله.

ويتضح الجواب عن التساؤل المذكور من خلال الإشارة إلى نقاط ثلاث، وهي:

**النقطة الأولى: تطوّر الحياة الإنسانية**

تقدّم أنّ المجتمع الإنساني في بدايته كان مجتمع الفطرة، ثمّ تعقّدت علاقاته، وظهر التنافس والتزاحم بين البشر فبعث الله سبحانه وتعالى الأنبياء ونزّل الكتب؛ لهدايتهم.

وهذا التطوّر الذي اقتضى تنزيل الكتب والرسالات قد يقتضي أيضاً الإتيان برسالة جديدة تتناسب مع تطوّر الإنسان الفكري والاجتماعي، إذ لاشك أنّ تجارب الإنسان وتصوراته عن الحياة والكون تتطوّر وتنمو باستمرار كلما زادت تجاربه.

---

(١) الحج:٧٨.

فمثلاً عندما أرسل موسى عليه السلام إلى قومه بقي فيهم مدّة طويلة يدعوهم إلى إله واحد، امتدت منذ البعثة حتى خروجه من مصر وعبوره البحر، وهي سنين طويلة يعلن فيها الدعوة إلى الله وإلى التوحيد المطلق، وكان أول خطابه لفرعون يطلب منه التنازل عن ادعاء الربوبية، وأن يعبد الله تعالى، ويلتزم بعبادته(١).

كما أنه عليه السلام يعتبر هو المنقذ لبني إسرائيل من الاضطهاد والظلم الفرعوني.

ولكن مع كل هذا عندما عبروا البحر ومرّوا على قوم يعبدون الأصنام وإذا بهم يلتفتون إلى موسى عليه السلام، ويطلبون منه أن يتخذ لهم إلهاً كما لهؤلاء آلهة: **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾**(٢).

وحادثة أخرى تؤكد وجود اتجاه نفسي وروحي كان يعيشه الإسرائيليون، وقد جسّدوه في غيبة موسى عليه السلام، عند ذهابه إلى لقاء ربه ومناجاته في الجبل، حيث اتخذوا من حليهم عجلاً يعبدوه من دون الله، قال تعالى: **﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ**

---

(١) حيث قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۞ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ النازعات:١٥ ــ ١٩، وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الزخرف:٤٦.

(٢) الأعراف:١٣٨.

بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾[١].

فهذه الظاهرة يمكن أخذها بشكلها الساذج، وافتراض أنْ بني إسرائيل لم يكونوا مؤمنين بالله سبحانه وتعالى إيماناً حقيقياً، وإنّما كانوا مجموعة من المنافقين الذين بقوا على حالة الوثنية وعبادة الأصنام، وليس لديهم أي معرفة بالله سبحانه وتعالى، ولديهم الإصرار في البقاء على هذه الحالة.

ويمكن أخذها بعمقها الحقيقي الواقعي؛ لأنّ هذا التفسير الساذج لا يتناسب أبداً مع كل تلك المقدّمات التي أشرنا إليها والذي يفترض انّ قدرة بني إسرائيل ـ في تلك الفترة الزمنية ـ على استيعاب فكرة الإله الواحد كانت محدودة، فهم وإن كانوا يعتقدون بوجود إله وربّ، وهو ربّ موسى عليه السلام، وهو الذي يبعث الأنبياء والرسل، وهو المهيمن على كل العالم، والمتصرّف به، لكن مع ذلك كانت فكرة التوحيد الخالص اكبر من قدرتهم على الفهم والاستيعاب، حيث كانوا يتصورون أنّ هذا الربّ لا يُعبد إلاّ من خلال تجسيد خارجي معين له، وفكرة التخلي عن هذه الحالة التجسيدية والواسطة بينهم وبين ذلك الإله كانت أكبر من قدرتهم على الفهم والاستيعاب، مما يعني أن حالة الوثنية كانت متمركزة في نفوسهم.

وإذا انتقلنا إلى الفترة التي جاء فيها النبيﷺ إلى العرب نجد أنْ العرب في تلك الفترة كانوا مشركين ووثنيين يعبدون الأصنام، وأنّ تاريخهم يختلف عن بني إسرائيل، فبني إسرائيل هم بالأصل أولاد

---

(١) البقرة:٥١.

الأنبياء، أمّا هؤلاء العرب فلم يكونوا كذلك، باستثناء بعضهم القليل الذي كان من ولد إبراهيمؑ، ففي هكذا وضع جاء النبيﷺ ودعاهم إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، فقاوموه وعارضوه، ودخلوا معه في صراع مرير إلى أن انتصر الإسلام، وأصبحت فكرة التوحيد مقبولة لديهم.

وإذا تمت المقارنة بين حالة استيعاب العرب لفكرة وحدانية الله، وبين الحالة الإسرائيلية لاستيعاب هذه الفكرة، نجد أنّ هناك فارقاً كبيراً جداً بين الحالتين، لأنّ هؤلاء الوثنيين عندما آمنوا بالوحدانية رفضوا الوثنية بكل أشكالها، حتى أنّهم رفضوا السعي بين الصفا والمروة[١] وقالوا: انّ هذه حجارة، ونحن رفضنا الوثنية فلا يمكن أنْ نسعى بين حجرين[٢]، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ

---

(١) الصفا والمروة: وهما جبلان بين بطحاء مكة والمسجد، أمّا الصفا فمكان مرتفع من جبل أبي قبيس، بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق، ومن وقف على الصفا كان بحذاء الحجر.

والمروة: واحدة المرو الذي قبله: جبل بمكة يعطف على الصفا، قال عرام: ومن جبال مكة المروة جبل مائل إلى الحمرة. راجع معجم البلدان للحموي٣: ٤١١ و٥: ١١٦.

(٢) قال القمي في سبب نزول هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾: «فإنّ قريشاً كانت وضعت أصنامهم بين الصفا والمروة، وكانوا يتمسّحون بها إذا سعوا، فلمّا كان من أمر رسول اللهﷺ ما كان في غزاة الحديبية، وصده عن البيت، وشرطوا له أن يخلوا له البيت في عام قابل حتى يقضي عمرته ثلاثة أيام ثم يخرج عنها، فلمّا كان عمرة القضاء في سنة سبع من الهجرة دخل مكة، وقال لقريش ارفعوا أصنامكم ←

**اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾**[1].

وهذا يعني أنهم عندما أخذوا فكرة التوحيد أخذوها بشكلها الكامل، واستوعبوها أيضاً بشكلها الكامل، بحيث أخذوا هم أنفسهم يبادرون ويلاحظون وينتقدون هذا اللون من ألوان العبادة للحجارة، وتوهّموا أنّ نفس السعي نحو من أنحاء العبادة للحجارة.

إذن هناك فرق كبير بين هؤلاء وأولئك الذين يُطالبون وفي اليوم الأول من خروجهم من حالة الاضطهاد بأن يتخذ موسى عليه السلام لهم صنماً للعبادة، ويصرّون على هذا الموقف إلى أن اتخذوا العجل.

**النقطة الثانية: الاختلاف على المفاهيم**

إن من جملة القضايا التي تقتضي تبديل وتغيير الرسالات حصول الاختلاف في الأمة على المفاهيم التي جاء بها الرسول الذي آمنت به، واستجابت له، وهذا الاختلاف قد يتعقّد ويشتدّ ويتصاعد حتى تصبح الكثير من القضايا التي جاءت بها تلك الرسالة قضايا غامضة، أو

---

➜من بين الصفا والمروة حتى أسعى، فرفعوها فسعى رسول الله صلى الله عليه وآله بين الصفا والمروة وقد رفعت الأصنام، وبقي رجل من الطواف، ردّت قريش الأصنام بين الصفا والمروة فجاء الرجل الذي لم يسع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال قد ردّت قريش الأصنام بين الصفا والمروة ولم أسع، فأنزل الله عز وجل: **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾** والأصنام فيهما» تفسير القمي١: ٦٤.

١) البقرة:١٥٨.

مُحرّفة بدرجة لا يبقى منها شيء حقيقي، من قبيل ما حصل لليهود من الغموض في بعض المفاهيم، مما أدى إلى حالة الانكفاء على الذات، والانطواء، والشعور الكاذب بالعظمة.

فاليهود في مرحلة من تأريخهم وبسبب الغموض في بعض المفاهيم اختلفوا فيما بينهم ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١)، وأدّى بهم هذا الاختلاف إلى نزول البلاء والمصاعب والتشريد والتهجير والإبعاد والقمع لهم ولعلمائهم. فعدم وضوح الرسالة في فترة تاريخية معينة أدّى باليهود إلى الانطواء والشعور الكاذب بالعظمة لدرجة أنّهم اعتبروا أنفسهم أبناء الله وأحباءه ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢)، وما عداهم من الناس يمثلون طبقة ثانية؛ ولذلك كانوا يستحلّون التصرف بأموال غيرهم، ويخونون الأمانات.

وقد تحدّث القرآن الكريم عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣)، فالقران الكريم يريد التفريق ـ فيما يرتبط بالأمانة ـ بين المسيحيين واليهود،

(١) الزخرف:٦٣.

(٢) الجمعة:٦.

(٣) آل عمران:٧٥.

فالمسيحيون يؤدون الأمانة، وأمّا اليهود فلا، بحيث إذا ائتمنت أحدهم على دينار واحد لم يُؤده إليك، إلاّ إذا كنت مسيطِراً وقادراً عليه ولديك المواثيق عندئذٍ يمكن استرجاعه منه.

**النقطة الثالثة: الاستبدال**

إنّ تقاعس الأمة وتخلّفها عن تحمّل مسؤولية الرسالة التي بعث الله سبحانه وتعالى من أجلها النّبي يستدعي استبدالها بأمّة غيرها.

صحيح أنّ الرسالة إنّما تُبعث لكل العالم، إلاّ أنّه لابدّ من وجود مجموعة من الناس يتبنونها، ويقومون بنشرها، فعند عدم نشرها في بقية أنحاء العالم؛ نتيجة لتقاعس هذه الأمة أو هذه المجموعة من الناس يؤدي إلى استبدال هذه الأمة بغيرها.

وهذا ما حصل لليهود، حيث انحصرت هذه الديانة ببني إسرائيل؛ نتيجة لتقاعسهم، وهذا ما حصل أيضاً للمسيحية التي انتشرت في مختلف أنحاء العالم، لكنّها تشوهت وتغيّرت من صورة الرسالة التي تحمل مفاهيم وقيم ومثل السماء إلى صورة أخرى تحمل مفاهيم التسليم والخضوع والخنوع للطغاة والجبابرة[1].

وعليه عندما تتحوّل كل الجماعة أو كل الأمة التي تؤمن برسالة معينة إلى جماعة مستسلمة، خانعة، قابلة بالظلم والطغيان، ولا

---

(١) وتوجد أمامنا أمثلة كثيرة لذلك، منها: زيارة البابا لبعض المناطق التي تعتبر من أكثر المناطق وحشية في أنظمتها وتعاملها مع بني الإنسان، أكثر الأنظمة بُعدا عن المثل والقيم، فهو وللأسف يزورها، ويتعامل معها تعاملاً عادياً دون أن ينبس ببنت شفة في مواجهة هذا الطغيان والجبروت. منه‌رحمه‌الله.

تتحمّل مسؤولية الرسالة حينئذٍ تُستبدل بجماعة وبأمّة أخرى، وعند ذلك يحتاج هذا الاستبدال إلى رسالة جديدة تتناسب مع الأمة الجديدة.

أمّا الرسالة الإسلامية فلمّا كانت هي الرسالة الخاتمة فالاستبدال فيها لم ولن يحصل لكل الأمة، وإنّما قد يحصل لمجموعات من داخلها؛ التزاماً بالوعد[1] الذي قطعة الله سبحانه وتعالى لهذه الرسالة، والذي يتناسب مع القوانين والسنن التاريخية التي وضعها الله سبحانه وتعالى في حركة التاريخ، باعتبار أنّ هذه الأمة هي الأمة الخاتمة **﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**[2].

وقد وصلت إلى درجة من التكامل بحيث يمكن لها دائما أن تستبدل بعض أطرافها بأطرافٍ أخرى، إذ معنى التكامل هنا أنّ الأمة لديها القدرة على التعويض الذاتي، فتعوّض نفسها بنفسها.

فالله سبحانه وتعالى أراد لهذا الدين الخاتم البقاء، ببقاء مجموعة من أبناء هذه الأمة متحمّلة مسؤولية هذه الرسالة، ولذلك نرى أنّ تحمّل هذه المسؤولية موجود دائما في هذه الأمة، غاية الأمر أنّ الذي يتحمّلها تارة العرب وأخرى الترك وثالثة الكرد ورابعة الفرس،

---

(١) سيأتي الحديث عن هذا الوعد، وذلك عند التعرّض إلى تفسير الآية التاسعة من هذه السّورة المباركة.

(٢) آل عمران: ١١٠

وهكذا إلى ظهور مهدي أهل البيت عليهم السلام الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً.

## الاستفادة الثالثة: البشارة بين الادّعاء والحقيقة

لقد أثير حول البشارة بالنّبي الأكرم صلى الله عليه وآله جدل كثير من قِبل المستشرقين، وعملاء الاستكبار والاستعمار والكفر العالمي. فقَبل الغزو العسكري الغربي لبلاد المسلمين كان ثمة غزو ثقافي وفكري، حيث كانت هناك حملة واسعة من قبل المبشّرين والمستشرقين ضد الإسلام.

وكان للقرآن الكريم الحظ الأوفى من هذه الحملة الواسعة؛ باعتباره يُمثّل الكتاب المركزي والمقدس للمسلمين، فأُثيرت حوله شبهات كثيرة، خصوصا حول الآية الكريمة التي تناولت قضية البشارة[1]، فقد أنكر المستشكلون وجودها الحقيقي لعدم وجود الدليل عليها.

لاشك ولا ريب أنّ هناك مجموعة من الدلائل والقرآئن التي تدلّ على وجود هذه البشارة في التوراة والإنجيل، ويستطيع كل إنسان منصف وغير متعصب التوصّل إلى هذه الحقيقة إن بحث بطريقة موضوعية.

وفيما يلي دليلان على صحة هذه البشارة:

---

(١) الصف:٦.

## الدليل الأول: البشارة في التوراة والإنجيل

بمراجعة نصوص التوراة والإنجيل نجد أنّ هناك العديد من الأدلة على البشارة برسول الله صلى الله عليه وآله، بل في أحدها البشارة أيضاً بوجود أهل البيت عليهم السلام.

فقد تتبع علماء الإسلام نصوص كتاب العهدين(١) بشكل دقيق، وتمكّنوا من استخراج النصوص الدالة على وجود هذه البشارة من هذه الكتب التي كانت متداولة بين أيدي المسيحيين حتى القرن التاسع عشر.

أمّا فيما يخصّ التوراة فيوجد فيها عدّة نصوص تدلّ على البشارة بالنّبي صلى الله عليه وآله، فقد جاء في الفصل العشرين من السفر الخامس من التوراة البشارة بالنّبي صلى الله عليه وآله، وهذا نصّه: ((**أقبل الله من سيناء، وتجلّى من ساعير، وظهر من جبال فاران معه الربوات الأطهار عن يمينه**))(٢).

---

(١) أي العهد القديم والجديد، والمقصود بالعهد القديم التوراة وما جاء بعدها من نصوص دينية، وأمّا العهد الجديد فهو الإنجيل.منه قدس سره.

(٢) قال العلامة المجلسي: «وقال في التوراة: أقبل من سيناء، وتجلى من ساعير، وظهر من جبل فاران. فسيناء: جبل كلّم الله عليه موسى، وساعير هو الجبل الذي بالشام كان فيه عيسى، وجبل فاران مكة.

وفي التوراة: إن إسماعيل سكن برية فاران، ونشأ فيها، وتعلم الرمي. فذكر الله مع طور سيناء وساعير التي جاء منها بأنبيائه، ومجيء الله إتيان دينه وأحكامه، فلقد ظهر دين الله من مكة وهي فاران، فأتمّ الله تعالى هذه المواعيد لإبراهيم عليه السلام بمحمد صلى الله عليه وآله.

و(سيناء) منطقة معروفة، وهي مهبط الوحي على النّبي موسى عليه السلام[١]، و(ساعير) مهبط الوحي على عيسى عليه السلام[٢]، و(فاران) اسم لجبال مكّة[٣]، وهي مهبط الوحي على النّبي محمّد صلى الله عليه وآله، والشيء الجميل في هذا النص التعبير بـ (معه الربوات الأطهار عن يمينه)، حيث يشعر بمجيء أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّ نسبة (الربوات) إلى جبال (فاران) تتناسب مع نسبة أهل البيت عليهم السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

وجاء في الفصل الحادي عشر من السفر نفسه ما نصه: ((يا موسى

---

فظهر دين الله في مكة بالحج إليها، واستعلن ذكره بصراخ أصحابه بالتلبية على رؤوس الجبال وبطون الأودية، ولم يكن موجوداً إلاّ بمجيء محمّد صلى الله عليه وآله وغيره من ولد إسماعيل عباد أصنام، فلم يظهر الله بهم تبجيله.

ويدلّ على تأويلنا ما قال في كتاب حبقوق: سيد يجئ من اليمن، يقدس من جبل فاران، يغطي السماء بهاءً، ويملأ الأرض نوراً، ويسيل الموت بين يديه، وينفّر الطير بموضع قدميه.

وقال في كتاب حزقيل النبي لبني إسرائيل: إنّي مؤيد بني قيدار بالملائكة ــ وقيدار جد العرب ابن إسماعيل لصلبه ــ وأجعل الدين تحت أقدامهم فيرثونكم بدينهم...» بحار الأنوار١٥: ٢٠٨.

(١) وقريب منه ما نقله الحموي في معجم البلدان، حيث قال: «سينا: بكسر أوله ويفتح: اسم موضع بالشام، يضاف إليه الطور فيقال طور سيناء، وهو الجبل الذي كلّم الله تعالى عليه موسى بن عمران عليه السلام، ونودي فيه، وهو كثير الشجر» معجم البلدان٣: ٣٠٠.

(٢) ساعير: في التوراة اسم لجبال فلسطين، وهو من حدود الروم، وهو قرية من الناصرة بين طبرية وعكا. راجع معجم البلدان للحموي٣: ١٧١.

(٣) راجع معجم البلدان للحموي٤: ٢٢٥.

**إنّي سأقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك، أجعل كلامي في فيه، ومن إخوتهم ـ يعني من بني إسماعيل ـ ويقول لهم ما أمره فيه، والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمي أنا انتقم منه ومن سبطه))**[1].

وواضح أنّ هذا النص وارد في النبي ﷺ أيضاً؛ لأنّه لم يُعرف بعد موسى عليه السلام نبي من أبناء إخوة الإسرائيليين غيره[2].

أمّا فيما يتعلّق بالإنجيل ففيه البشارة لعيسى عليه السلام ـ بالنص اليوناني الأصلي ـ بمجيء شخص له عنوان (البار قليط)، وقد أُتفق على أنّ معنى هذا العنوان متطابق تماماً مع معنى كلمة (أحمد).

وقد حاول المستشرقون والمبشرون المتأخرون تغيير هذا العنوان عند ترجمته، حيث حذفوا حرفاً واحداً منه، فصار معناه (المسلّي والمعزي)[3]، مع أنّ النصوص الإنجيلية وبمختلف اللغات وإلى حد

---

(١) وهذا ما نقله الآلوسي أيضاً في تفسيره عن الفصل الحادي عشر من السفر الخامس، راجع تفسير الآلوسي٢٨: ٨٦.

(٢) قال القطب الراوندي: «وإخوة بني إسرائيل ولد إسماعيل، ولم يكن في بني إسماعيل نبي مثل موسى ولا أتي بكتاب ككتاب موسى غير نبينا محمد ﷺ» الخرائج١: ٧٥.

(٣) ذكر سعيد ايوب في كتاب ابتلاءات الأمم: أنّ «(المعزي) الذي بشّر به المسيح قبل رفعه إلى السماء، ترجمة للكلمة الإغريقية (البارقليط)، ومعناها في قاموس اللغة اليونانية: (المعزي، المحامي، الشفيع، المحمد، المحمود وورد اسم بار قليط، فارقليط، باراكليت، والمعزي، والمحامي، والمؤيد، في تراجم إنجيل يوحنا. ويقول الدكتور حجازي السقا: والحق أن المسيح نطق لفظ (بيرقليط) وهو يترجم:أحمد. ←

أواسط القرن التاسع عشر كلها تؤكّد على مضمون (أحمد).

وقد انتبه علماء الإسلام إلى هذا التحريف، وأشاروا إلى نكتة لطيفة وهي: إنّ النص الإنجيلي بمضمونه يبشّر بمجيء شخص، ومقتضى مدلول البشارة هو أن يكون لهذا الشخص الآتي الذي بشّر به نبي كعيسى عليه السلام دور عظيم في إنقاذ أمته، فلا يمكن أن يكون دوره دور المسلّي والمعزي؛ لأنّه دور محدود غير متناسب مع مفهوم البشارة. فالمحرفون في واقع أمرهم سقطوا في البئر الذي حفروه بأنفسهم عندما حرّفوا هذا العنوان، وأعطوه عنواناً لا يتناسب مع مجمل المواصفات والآثار والأعمال والنشاطات التي يفترض بهذا الشخص القيام بها.

وفي الفصل الخامس عشر من إنجيل يوحنا قال يسوع المسيح: **((إنّ الفار قليط روح الحق الذي يرسله أبي يعلمكم كل شيء))**[1].

فهذه المواصفات (روح الحق)، و(يعلمكم كل شيء) التي تُذكر لـ(الفار قليط) لا تتناسب مع افتراض كون المقصود منه المعزي؛ لأنّ معنى هذه المواصفات أنّه يُمثّل كل شيء، لا كونه فقط معزياً.

وفيه أيضاً قال المسيح: **((إنّ من يحبني يحفظ كلمتي، وأبي يحبه، وإليه يأتي، وعنده يتخذ المنزل، ومن لا يحبني ليس يحفظ كلامي،**

---

⇐ويقول النصارى أنّ المسيح نطق (بارالقليط)، وعلى ذلك فليس هو أحمد، أي أنّ الخلاف في الكسرة والفتحة، فعلى الكسرة يكون اسم أحمد، وعلى الفتحة لا يكون اسم أحمد، بل صفته هي المعزي. وهم يعتمدون رواية الفتحة. ثمّ قدّم الدكتور حجازي السقا الدليل على أنّ بيريكليت اسم والاسم هو أحمد» ابتلاءات الأمم: ١٧٠، ١٧١.

(١) وقد نقل هذا النص أيضاً الآلوسي في تفسيره٢٨: ٨٧.

والكلمة التي تسمعونها ليست لي، بل للأب الذي أرسلني أكلمكم بهذا بهذا، لأني لست عندكم مقيم، والفار قليط روح القدس الذي يرسله أبي باسمي، هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كما قلته لكم))[١].

وفي نص آخر ((إنّ خيراً لكم أن أنطلق لأبي، إن لم اذهب لم يأتكم الفار القليط)).

وهذا أيضاً فيه دلالة على أنّ (الفار قليط) الذي سيأتي سيكون له دور أعظم من دور عيسى عليه السلام.

ثمّ يقول: ((فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء فهو يوبخ العالم على خطيئته ـ أي يكون له هذا الدور العالمي ـ وإنّ لي كلاماً كثيراً أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله[٢] لكن إذا جاء روح الحقّ ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنّه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي، ويعرّفكم جميع ما للأب))[٣].

ويوجد في كل ما تقدّم من النصوص دلالات واضحة على طبيعة الرسالة الخاتمة التي يأتي بها ما يُعبّر عنه بـ(الفار قليط)، الذي يعلم كل شيء، ويبيّن كل ما يقوله الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فهذا لا ينسجم بأي شكل من الأشكال مع مفهوم المعزي.

---

(١) وهذا ما نقله السيد ابن طاووس في كتابه سعد السعود وذلك ـــ حسب قوله ـــ من القائمة الثالثة والثلاثين من الإنجيل الرابع. راجع كتاب سعد السعود، صفحة ٦٢.

(٢) يعني الناس في تلك المرحلة وكما ذكرنا سابقاً لم يكونوا على استعداد لتحمّل مسؤولية هذا الكلام الذي جاء به النبي الخاتم صلى الله عليه وآله. منه قدس سره.

(٣) وهذا ما ذكره الآلوسي أيضاً في تفسيره ٢٨: ٨٧.

ولعلّ من العنايات الإلهية العظيمة بالإسلام وبالنّبيﷺ وجود البشارة في التوراة والإنجيل بالرغم من تعرّضهما للتحريف على مرّ العهود والعصور، الذي كان بعضه قهرياً من دون عناية وقصد، وإنّما كان بسبب الظروف التي مرّ بها اليهود.

فحسب ما يُذكر في تاريخهم أنّهم مرّوا بظروف قاسية، ظروف القمع والتهجير والهدم والتخريب لكل الآثار الدينية، فأُحرقت كتبهم، وتمّ إبعادهم بعد ذلك إلى بابل، وأجبروا على البقاء فيها مدّة طويلة، ثمّ رجوعهم، الأمر الذي أدّى إلى ضياع الكثير من معالم التوراة؛ بسبب عدم وجود النص الحقيقي لها.

وعلى ما يُذكر في التاريخ أنّ علماء اليهود بعد رجوعهم من المنفى ـ أي من بابل ـ وبعد مرور فترة تزيد على مئة عام اجتمعوا، ودوّنوا التوراة والكتب الدينية الأخرى، وذلك على ما كانوا يستظهرونه ويتذكّرونه منها، أي لم تكن هناك نصوص بين أيديهم، وإنّما مجرد ذكريات باقية بعد ثلاثة أو أربعة أجيال قد مرّت، ممّا أدّى إلى وقوع التحريف فيها.

وهكذا الحال بالنسبة إلى الإنجيل، فقد كان عيسى عليه السلام مطارداً، وواقعاً تحت القمع هو ومن معه من الحواريين الذين تفرّقوا بعده، وبالتالي فالإنجيل لم يكتب إلاّ بعد فترة زمنية طويلة، وذلك بعد الحادثة التي رفعه الله سبحانه وتعالى إليه؛ ولذلك كانت هناك أناجيل عديدة.

ومن يقرأ الإنجيل الآن يرى أنه عبارة عن تاريخ سيرة عيسى عليه السلام، وليس هو النص الإلهي الذي نزل عليه، غاية الأمر أنه يوجد في هذا

التاريخ بعض الأقوال والنصوص لعيسى عليه السلام. والحواريون أو طلابهم - أي الجيل الذي أتى بعد الحواريين - هم الذين كتبوا هذا التاريخ، وهذا في الواقع نوع من أنواع التحريف القهري والغير متعمد.

وبعد ذلك مرّت ظروف متعدّدة في تاريخ كل من اليهودية والمسيحية، اقتضت تعرّض هذه الأناجيل والتوراة إلى التحريف بفعل الطغاة والجبابرة الذين حكموا المجتمع اليهودي والمسيحي في بعض الفترات، ولكن بالرغم من كل هذه التحريفات التي تعرّضت لها هذه الكتب نجد أنّ البشارة بالنبي ﷺ وبالإسلام باقية في كتبهم[١].

هذا فيما يتعلّق بالدليل الأول[٢].

---

(١) وتوجد هنا مجموعة من الأبحاث ذات القيمة العلمية المهمة جدا والتي قام بها علماء الإسلام في تتبع مواطن التحريف في العهد القديم والجديد، ومن جملتها كتاب (إظهار الحق)، الذي يعتبر من أجلّ الكتب والبحوث العلمية الدقيقة، هذا الكتاب المتتبع لأبسط القضايا والجزئيات، والذي ينتهي إلى نتائج عظيمة.

وكذلك كتاب (الهدى إلى دين المصطفى) وكتاب (الرحلة المدرسية)، للمرحوم آية الله الشيخ محمد جواد البلاغي، الذي يعتبر من علماء الإسلام المجاهدين ومن الذين قلّ نظيرهم في تاريخ الإسلام؛ باعتبار روح التضحية والإيثار التي كانت موجودة عنده، حيث كان يكتب الكتب ولا يضع اسمه عليها.

ومن كثرة تتبعه وحرصه على الإسلام والدين تعلم اللغة العبرية التي لم تكن تُدرّس في ذاك الوقت، إذ لم تكن هناك مدارس أو دورات أو فرص للتعليم، ولذلك أخذ الشيخ رحمه الله يصادق بعض اليهود؛ من اجل تعلّم العبرية منهم حتى يستطيع تتبع النصوص العبرية والمقارنة بينها وبين النصوص المترجمة ليُظهر مواطن التحريف، وفعلاً قام بعمل مهم انعكس على كتبه. منه قدس سره.

(٢) مضافاً إلى ما ذكره الشهيد الحكيم قدس سره من النصوص والبشارات الواردة في ←

←حقّ النبيﷺ هناك الكثير منها تركه من باب الاختصار، فمثلا ما ذكره علي بن يونس العاملي في كتاب (الصراط المستقيم)، حيث ذكر: «ففي السفر الأول من التورية: نزل الملك على إبراهيم وبشره بإسماعيل أنه يلد اثني عشر عظيما.

إن قيل ليس في هذا ذكر النبوة فجاز كونه ملكا، قلنا: لا يبشر الله تعالى خليله بملوك الكفر في ولده.

وفيها: أقبل الله من سينا، وتجلى من ساعير وظهر بفاران.

وفي كتاب حيقوق: [أنه] سيد يجيء من اليمن، ومقدس من جبل فاران، يغطّي السماء بهاؤه، ويملأ الأرض نوراً.

وفي كتاب حزقيل: إنّي مؤيد بني قيدار بملائكة. وقيدار جد العرب، و قد أيد الله نبيه بالملائكة في بدر وغيرها.

وقال دانيال: ستنزع في قسيك اغراقا، وترتوي السهام بأمرك يا محمد. وفي كتاب شعيا: يظهر في الأمم عبد لي لا يسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العور، ويُسمع الآذان الصم، هو نور الله الذي لا يطفى، حتى تثبت في الأرض حجتي.

وفي مزمور آخر: إنّ الله أظهر من صهيون إكليلاً محموداً. والإكليل مثل الرياسة والإمامة، ومحمود هو محمد.

وفي الإنجيل قال المسيح للحواريين: أنا ذاهب وسيأتيكم الفارقليط، روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه، إنّما يقول كما يقال له من ربه.

وفي حكاية يوحنا عن المسيح: الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، يسوسكم بالحق، ويخبركم بالغيوب.

وفي حكاية أخرى: إنّي سائل ربي أن يبعث لكم فارقليطا آخر، يكون معكم إلى الأبد. وفي موضع آخر: يشهد لي كما شهدت له.

وفي الإنجيل: قال عيسى: إنّ الاليا متوقع على أذيالي.

ورُوي أنّه كان أحمد متوقع، فغيّروه إلى اليا، وكأن اليا هو علي، قيل وإنّما ذكره؛ لأنّه قدام النّبيﷺ في كل حرب. واسم محمد بالسريانية مشفح، والشفح الحمد، فإذا كان الشفح الحمد فمشفح محمد. وفي التورية: أحمد عبدي المختار مولده←

**الدليل الثاني: الظاهرة العلمية التحليلية**

تشتمل الآيات القرآنية التي كانت تُقرأ على مرأى ومسمع من علماء اليهود والنصارى في عهد رسول الله ﷺ على البشارات، فلو كانت هذه البشارات غير موجودة لاحتجّوا عليها.

فالقرآن الكريم يُصرّح ويقول: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**﴾(١).

ويقول أيضاً: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾(٢).

وكذا يقول: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾(٣).

فلو لم تكن هذه القضايا موجودة في التوراة والإنجيل لواجهوا القرآن الكريم، واحتجّوا عليه، خصوصاً وأنّ بعض علماء أهل

---

⬅مكة وهجرته طابة» الصراط المستقيم١: ٥٥، ٥٦.

(١) الأعراف:١٥٧.

(٢) الفتح:٢٩.

(٣) البقرة:٨٩.

الكتاب البارزين آمنوا بالإسلام في الصدر الأول منه لا في فترة متأخرة، من قبيل عبد الله بن سلام(١).

كما أنّ النبي صلى الله عليه وآله دخل في عملية احتجاج ومباهلة(٢) علنية مع علماء المسيحيين، الذين جاءوا إلى المدينة؛ للاحتجاج عليه صلى الله عليه وآله. وفعلاً دخل معهم النبي صلى الله عليه وآله في احتجاج جماهيري، فلو لم تكن هذه البشارات موجودة في كتب الإنجيل والتوراة لكان من المنطقي جداً أن يُواجه رسول الله صلى الله عليه وآله بإنكار ذلك، بأن يقال له مثلاً أنّ ما تدعيه من البشارات غير موجود في كُتُبنا.

وبالتالي يكون هذا بنفسه دليلاً على عدم صحة القرآن الكريم، فهذه أفضل حجة يمكن أن يتمسك بها اليهود والمسيحيون في مواجهة

---

(١) هو عبد الله بن سلام اليهودي، من ولد يوسف بن يعقوب عليه السلام، حليف لبني عوف بن الخزرج، جاء إلى النّبي وسأله مسائل، فلمّا أجابه أسلم، توفي بالمدينة سنة ثلاث وأربعين. راجع مستدركات علم رجال الحديث للشيخ علي النمازي الشاهرودي٥: ٢٦، وغيره من كتب الرجال.

(٢) ومُلخص هذه المباهلة ما رُوي عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي رافع حيث قال: **((لمّا قدم صهيب مع أهل نجران، ذكر لرسول الله صلى الله عليه وآله ما خاصموه به من أمر عيسى بن مريم عليه السلام، وأنّهم ادعوه ولداً، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله فخاصمهم وخاصموه فقال: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين. فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فجمعهم فقال لهم العاقب: ما أرى لكم أن تلاعنوه. فإن كان نبياً هلكتم، ولكن صالحوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو لاعنوني ما وجدوا لهم أهلاً ولا مالاً ولا ولداً))** مصباح المتهجد:٧٥٩.

رسول الله ﷺ، لكن سكوتهم عن هذه الحجة، وعدم إلقائهم لها مع وضوحها، يُعدُّ بنفسه دليلاً على وجود هذه البشارات في كتبهم، فهذا الأمر يُشكّل نقطة واضحة في قضية الاستدلال على وجود هذه البشارة.

## الاستفادة الرابعة: ما بين السحر والمعجزة

يبدو من آيات القرآن الكريم أنّ المعجزات التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام واجهت تهمة السحر[1]، وقد وقع الحديث بين المفسرين في الفرق بين المعجزة والسحر؟ وقبل بيان الفرق بينهما لابدّ من بيان حقيقتهما ولو بصورة مختصرة.

### المعجزة

يعرّف علماء القرآن المعجزة ـ حيث توجد لها تعريفات كثيرة[2] ـ أن

---

(١) دلّت على هذا المعنى آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ المائدة:١١٠، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ النمل:١٣، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ القصص:٣٦، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ القمر:٢، وغيرها من الآيات.

(٢) تُعرّف المعجزة بأنّها «الفعل الناقض للعادة، يتحدى به الظاهر في زمان التكليف؛ لتصديق مدعٍ في دعواه» رسائل المرتضى ٢: ٢٨٣، وتُعرّف أيضاً بأنّها «خارقة ←

يُحدث النّبي حدثاً يتحدّى به القوانين الطبيعية التي عُرفت بالحس والتجربة، حيث يقوم النبي بإحداث شيء، وبإيجاد ظاهرة في الكون تتحدّى القوانين التي تُدرك بالحس والتجربة، من دون فرق بين أن تكون هذه الظاهرة عظيمة جليلة كشق القمر مثلاً، أو تكون بسيطة وجزئية، بحيث يتمكّن الإنسان العادي مُن القيام بها إلاّ أنَ النّبي يقوم بها بطريقة يخُرق بها القوانين الطبيعية، من قبيل جعله الماء يغلي من دون استخدامه لأي سبب من أسباب الحرارة، كالنّار أو الكهرباء، أو غير ذلك من مصادر الطاقة.

---

➡للعادة، مخالفة للمألوف» دلائل الإمامة: ٣٦، وجاء تعريفها في البحار «وهي أمر تظهر بخلاف العادة من المدعي للنبوة أو الإمامة عند تحري المنكرين، على وجه يدلّ على صدقه، ولا يمكنهم معارضته» بحار الأنوار١٧: ٢٢٢، وعرّفها السيوطي بأنّها «أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة» الإتقان في علوم القرآن٢: ٣١١، أمّا تعريفها في رأي المتكلمين «أمر يظهر بخلاف العادة في دار التكليف، لإظهار صدق مدعي النبوة، مع نكول من يتحدى به عن معارضته بمثله» إمتاع الأسماع ٤: ١٧٦، وغيرها من التعاريف.

كما عرّفها الإمام الصادق عليه السلام، حسب ما رُوي عنه **((عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: لأي علة أعطى الله عزّ وجل أنبياءه ورسله وأعطاكم المعجزة؟ فقال: ليكون دليلا على صدق من أتى به، والمعجزة علامةَ لله لا يعطيها إلا أنبياءه ورسله وحججه؛ ليعرف به صدق الصادق من كذب الكاذب))** علل الشرائع١: ١٢٢، باب١٠٠، ح١.

وعرّفها الشهيد الحكيم في كتابه علوم القرآن هي: «أن يحدث النبي تغييراً في الكون يتحدّى به القوانين الطبيعية» علوم القرآن: ١٢٩.

فهذه ظاهرة بسيطة يستطيع الإنسان إيجادها، أو إحداثها باستخدام أحد مصادر الطاقة، لكن إحداثها من دون استخدام ذلك فهو يعدّ معجزة(١).

ويذكر المفسرون(٢) أنّ من خصائص المعجزة أن تكون مقرونة بدعوى النبوة؛ لأنّ المراد منها تعريف الناس بأنّ هذا الإنسان ـ أي صاحب المعجزة ـ له علاقة بالله سبحانه وتعالى، وبعالم الغيب، وبما وراء الطبيعة.

وهذه العلاقة إنّما تُكتشف من خلال قيام هذا الإنسان بعمل يتجاوز فيه القوانين الطبيعية والتجريبية، وهذا يكشف عن ارتباطه بعالم وبقوة فوق هذه القوانين، فلو لم يكن مرتبطاً بهذه القوة وبهذا العالم لما تمكّن من تجاوز هذه القوانين الموجودة في عالم المادة.

وبعبارة أخرى لو كانت ارتباطاته فقط في نطاق عالم المادة والتجربة لكانت الظواهر التي يأتي بها أيضاً تخضع لنفس قوانين هذا العالم، أمّا عندما يأتي بعمل فيه خرق وتجاوز لهذه القوانين فمعنى ذلك أنّه يستمد قوته ووجوده من عالم فوق هذه القوانين، بحيث يُمكّنه من تحدي وخرق هذه القوانين.

وقد يتوهم البعض أنّ مَن وصل إلى القمر أو إلى كوكب أبعد منه

---

(١) ولمزيد من الاطلاع حول تعريف المعجزة وبعض الأمور المرتبطة بها راجع كتاب علوم القرآن لشهيد المحراب ﷺ صفحة ١٢٧، ١٢٨.

(٢) راجع تفسير الأمثل ٩: ٤٣٣، وتفسير القرطبي ٢: ٤٧، وتفسير الألوسي ١٦: ٢٥٤، وتفسير الرازي ٢١: ٩٢، وغيرهم.

في عصرنا الحاضر بأنه جاء بمعجزة، لكن هذا غير صحيح؛ لأنّ وصوله إلى هذا المستوى إنّما كان ضمن القوانين الطبيعية التجريبية، فأي إنسان يكون مالكاً لهذه القوانين والإمكانات الموجودة فيها يتمكّن من تحقيق هذه النتائج. وعليه فكل جماعة من الناس تمتلك الإمكانات التي تملكها الجماعة التي وصلت إلى القمر تستطيع أيضاً الوصول إليه ضمن نفس القوانين، وضمن نفس التجريبيات التي قامت بها تلك الجماعة، مهما كانت هذه الظاهرة عظيمة ومهمة.

ولكن لو افترضنا أنّ إنساناً تمكّن من الذهاب إلى القمر دون هذه التجريبيات والقوانين ـ كما أُسري برسول الله ﷺ إلى السماء ـ فهذا في الواقع معجزة؛ لأنّ فيه خرق لهذه القوانين[1].

---

(١) ذكر العلامة الحلي مجموعة من الشروط التي لابدّ من توفرها في المُعجِز ــ وهو الذي يأتي بالمعجزة ــ وهي ما يلي:

**أحدها:** أن يعجز عن مثله أو ما يقاربه الأمة المبعوث إليها.

**الثاني:** أن يكون من قبل الله تعالى أو بأمره.

**الثالث:** أن يكون في زمان التكليف، لأنّ العادة تنتقض عند أشراط الساعة.

**الرابع:** أن يحدث عقيب دعوى المدعي للنبوة أو جاريا مجرى ذلك. ونعني بالجاري مجرى ذلك أن يظهر دعوى النبي في زمانه، وأنّه لا مدعي للنبوة غيره، ثم يظهر المعجز بعد أن ظهر معجز آخر عقيب دعواه فيكون ظهور الثاني كالمتعقب لدعواه؛ لأنه يعلم تعلّقه بدعواه، وأنّه لأجله ظهر، كالذي ظهر عقيب دعواه.

**الخامس:** أن يكون خارقاً للعادة. كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ٤٧٥.

**السحر**

ينقسم السحر بشكل أساسي إلى أقسام ثلاثة:

**القسم الأول:** ما كان فيه تأثير على حواس الإنسان، فإحساس الإنسان بالأشياء يرجع إلى الإدراك والعقل، فإذا كان هناك تأثير على مركز الحس عنده فقد يختلف عندئذٍ إحساسه بالأشياء عن إحساسه الاعتيادي.

فقد يرى مثلاً تحوّل الحبل إلى أفعى تتحرك، كما في قصة موسى عليه السلام التي تحدّث عنها القرآن الكريم، وكيف أنّ السحرة سحروا أعين الناس، وجاءوا بسحر عظيم[1].

**القسم الثاني:** ما كان فيه تأثير على الجانب الروحي والنفسي للإنسان، وبسبب هذا النوع من السحر يتحوّل الإنسان مثلاً من مُحب لزوجته أو أخيه أو أبيه أو أمه أو أيّ شخص، إلى إنسان مُبغض لهم.

وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم في قصة الملكين ببابل هاروت وماروت كما في قوله تعالى: **﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾**[2]، فالتأثير على الجانب الروحي والنفسي نحو من أنحاء السحر.

**القسم الثالث:** ما كان مطابقاً للعلوم التجريبية الموجودة في عصر

---

(١) قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ الأعراف:١١٦.

(٢) البقرة:١٠٢.

من العصور، مع عدم انتشارها بين الناس، كاستخدام بعض الأعشاب أو المساحيق، وما أشبه ذلك من الأدوية؛ لشفاء مريض من مرضه، أو تحويل مادة إلى مادة أخرى من خلال التجربة، أو غير ذلك من القضايا المرتبطة بالعلوم التجريبية المختلفة، وفي المجالات المختلفة. وعليه فالعلماء عندما كانوا يتوصلون إلى نتائج معينة من خلال تجاربهم كانت هذه النتائج قد تبدو غريبة، وغير معروفة لدى الناس، وبالتالي تبدو وكأنّها سحر.

وتشترك هذه الأنواع الثلاثة في أنّها تخضع لقوانين وأصول معينة تسير بموجبها، بحيث يمكن لهذه القوانين والأصول أن تُنقل من شخص إلى آخر، ومن عالم إلى آخر.

فالإنسان يستطيع معرفة القوانين والأصول التي تُؤثّر على الحواس، أو على الجانب الروحي للإنسان، أو على المادة الخارجية، من قبيل مادة الأحياء أو الفيزياء أو الكيمياء، أو غير ذلك من المجالات الخارجية.

فالسحر كأي علم من العلوم، يمكن تعلّمه وتعليمه؛ وذلك عن طريق تعلّم قوانينه وأُصوله، حيث يمكن للشخص المتعلم الوصول إلى نفس النتائج التي وصل إليها المعلم، وهكذا تنتقل إلى الشخص الثالث والرابع، إلاّ أنّ السحر يختلف عن بقية العلوم في أنّ هدفه باطل؛ لأنه في الغالب ضار.

### الفرق بين السحر والمعجزة

يتضح ممّا تقدّم أنّ هناك عدّة فروق بين السحر والمعجزة، وهي:

١ـ المعجزة لا يمكن تعلّمها، بخلاف السحر الذي يمكن تعلمه، حاله حال بقية العلوم الأخرى.

٢ـ يُفترض في المعجزة أن يكون فيها تحدياً للقوانين، وتجاوزاً لها، وبذلك يثبت ارتباط الإنسان الذي جاء بها بالله سبحانه وتعالى، وبما وراء الطبيعة، بخلاف السحر الذي لا يدل بأي حال من الأحوال على ارتباط صاحبه بالله سبحانه وتعالى.

٣ـ هدف المعجزة سامي، وهو إقامة الدليل على الرسالة الإلهية، والتي تكون بحسب طبيعة مضمونها منسجمةً مع العقل والفطرة والهداية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في ذات الإنسان، بخلاف السحر الذي هدفه في الغالب باطل يُراد من ورائه تضليل الناس وخداعهم.

٤ـ ذكر بعض علماء الكلام[١] فرقاً آخر، وهو اقتران المعجزة دائماً بدعوى النبوة، بخلاف السحر، فلو افترضنا أنّ ساحراً ما أراد خداع النّاس بسحره؛ من أجل ترويج ادعاء كاذب للنبوة، ففي هكذا حالة تعهّد الله سبحانه وتعالى بإبطال هذا السحر، وبكشف كذب مدّعي النبوة.

فمدّعي النبوة كذباً تارة يدّعيها من دون استخدام السحر، فهذا يتركه الله سبحانه وتعالى مع القوانين الطبيعية، فلكي يُصدّق في شيء

---

(١) راجع كتاب بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الامامية١: ٢٣٧، وقواعد المرام في علم الكلام: ١٨٢، وعقائد الامامية: ٥٢، ومحاضرات في الإلهيات: ٢٥٨، وشرح المقاصد في علم الكلام٢: ٤٧، وغيرها من المصادر.

ما لابدّ له من إقامة البرهان عليه، وإلا فيُكذّب من قبل الناس.

وتارة أخرى يدّعيها مع استخدامه للسحر كبرهان على مُدّعاه، ففي هذه الحالة يذهب علماء الكلام إلى أنّ الله سبحانه وتعالى بلطفه وكرمه قد تعهّد بكشف هذا الكاذب وفضحه؛ لاستخدامه السحر هنا كأداة تضليل.

وقد أشار القران الكريم إلى هذا المضمون في قصة موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾(١).

فاستخدام السحرة للسحر هنا لمواجهة دعوة النبوة، وتضليل الناس، ومن الواضح أن سحرة فرعون لم يدّعوا النّبوة، لكنّهم أرادوا استخدامه في مقام إبطال دعوى نبوة موسى عليه السلام.

فاستخدام السحر في مقابل النبوة يجري هنا مجرى استخدامه لادعاء النبوة، وفي ذيل الآية الكريمة قد تعهّد الله تعالى بإبطال هذا السحر، حيث قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾.

أمّا لو جاء شخص آخر ولم يستخدم السحر في قبال دعوى النبوة، ففي هذه الحالة لا يوجد تعهّد من الله سبحانه وتعالى بإبطاله، فقد ينخدع به بعض الناس، فتبقى القضية هنا حسب القوانين الطبيعية التي تجري في قضية الوصول إلى الحقائق. ثمّ إنّ الإنسان إذا أراد استخدام عقله بشكل طبيعي يمكن له كشف حقيقة هذا السحر ومؤداه.

---

(١) يونس: ٨١.

هذا مجمل الحديث عن الفرق بين السحر والمعجزة.

## الاستفادة الخامسة: الظلم

يوجد في قضية الظلم أمران من الحري بنا التكلّم عنهما ولو بصورة إجمالية:

### أ. نهج القرآن في التخاطب مع الناس

لقد استخدم القرآن الكريم في مقام التخاطب مع الناس منهجاً مميّزاً؛ وذلك من أجل التأثير فيهم وتغييرهم، حيث استخدم المفاهيم والعناوين التي يُدركها الإنسان بوجدانه.

أي لم يستخدم مصطلحات بعيدة عن وجدانه كما هو الحال في الكثير من النظريات التي تجعل لها مصطلحات ومفاهيم خاصة تُخاطب من خلالها الناس، بل استخدم القرآن الكريم تلك المعاني والمُثل والقيم والعناوين التي يعرفها الناس بضمائرهم ووجدانهم وأحاسيسهم، هذه العناوين التي يُعبّر عنها علماء الكلام بمدركات العقل العملي ـ التي هي عبارة عن الحسن والقبح العقليين ـ أو بمدركات الفطرة الإنسانية[1].

وقد اختلف علماء المسلمين في وجود هذه المُدركات عند الإنسان،

(١) باعتبار أنّ الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان ــ كما أشرت سابقاً ــ هدايتين: هداية العقل، والذي يُسمّونه بالعقل النظري، أي المدركات العقلية التي يُتوصل إليها من خلال التجربة، أو من خلال المدركات الأولية العقلية، وأودع فيه أيضاً هداية الفطرة، بحيث إنّ الإنسان بفطرته يتّجه إلى أشياء يراها حسنة. منه ﷺ.

أي هل يوجد عنده عقل يُدرك به الحسن والقبح من خلال فطرته، أو لا؟

المذهب الصحيح هو المذهب القائل بوجود هذا العقل، ولعلّ أفضل شاهد على هذه الحقيقة هو المنهج القرآني، عندما أراد تغيير الناس، فقد اعتمد بشكل أساسي على طرح مثل هذه المفاهيم.

فلو لم تكن هذه المفاهيم قائمةً في وجدان الإنسان وضميره لما أمكن القرآن الكريم استخدامها لتغيير الإنسان باتّجاه تلك المدركات الصحيحة، فهي بالأصل مدركات قائمة وموجودة في الإنسان؛ ولذلك نجد القرآن الكريم كثيراً ما يُؤكّد على مفهوم العدل[1] والإحسان[2] والوفاء بالعهد[3] وغير ذلك من المعاني السامية، التي يميل إليها الإنسان ويراها حسنة، ويدرك حسنها بذاته، حيث يُدرك الإنسان بوجدانه أنّ العدل أو الإحسان أو الوفاء بالعهد شيء حسن، وهذا الإدراك غير مختصّ بالإنسان العادل أو المحسن أو الذي يفي بالعهد، بل يشمل حتى الإنسان الذي لم يلتزم بهذه المعاني السامية.

---

(١) كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المائدة:٨.

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ الإسراء:٢٣.

(٣) كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ الإسراء:٣٤.

وهكذا مفهوم الظلم، حيث يُعتبر أيضاً من المفاهيم التي يدرك الإنسان قبحها، ويتنفّر منها مع قطع النظر عن التزاماته بها؛ ولهذا نجد القرآن الكريم يطرح مفهوم الظلم دائماً في مقام اتخاذ الإنسان منه موقفاً سلبياً.

قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾

وطرح القرآن الكريم لمفهوم الظلم؛ باعتبار أنّ قضية الافتراء تُمثّل نحواً من أنحاء الظلم. فلو لم يكن الظلم من المدركات العقلية التي يدرك الإنسان قبحها بوجدانه وفطرته فلا معنى حينئذٍ لقوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ**﴾؛ إذ لو لم يكن الظلم قبيحاً في نظر الإنسان فلا مانع حينئذٍ من الافتراء وإن كان ظلماً، إلاّ أنّ الصحيح هو شعور الإنسان وإدراكه وجداناً بقبح الظلم؛ ولهذا طرح عنوان الظلم تجاه الافتراء.

### ب. الظلم غريزة أم اكتساب؟

وقع الكلام في أنّ الظلم هل هو غريزة من الغرائز القائمة في نفس الإنسان، أو هو قضية مكتسبة وطارئة في حياته؟

يظهر من القرآن الكريم أنّ الظلم غريزة من غرائز الإنسان، فكما أنّ حبه لذاته غريزة، والجنس غريزة، كذلك الظلم، فهو من الغرائز التي أودعها الله سبحانه وتعالى في أصل خلقة الإنسان.

وقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى هذا المعنى، من قبيل قوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ**

**يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾**[١].

وغير ذلك من الآيات التي يمكن أن يُستشهد بها على هذه المسألة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا إذا كان الإنسان قد أُودع فيه الظلم كغريزة من غرائزه[٢] فمعنى هذا أنّ الظلم قد أصبح شيئاً طبيعياً بالنسبة له، شأنه شأن الأمور الأخرى التي يرتكبها الإنسان؟!

من المؤكّد أنّ هذا النوع من التصوّر غير صحيح، وإن كان يبدو أنّ الإنسان قد خُلق وعنصر الظلم قائم في نفسه، إلاّ أنّ قيامه في نفسه لا يعني ضرورة أو جواز ممارسته في الخارج، شأنه في ذلك شأن عنصر الهوى، الذي يكون الظلم من مظاهره، وربما ينطلق منه فيما إذا لم يُوجَّه هذا الهوى توجيهاً صحيحاً.

ولذا اهتم الدين الإسلامي بإيجاد الطرق الكفيلة لمعالجة قضية الهوى، وإيجاد المعادلة المناسبة لها، والتي من خلالها يمكن للإنسان تحويل الغرائز التي أودعها الله سبحانه وتعالى في نفسه من حب الذات وحب التسلّط وحب الدعة والاستقرار والشهوات إلى طاقات تدفع به نحو التكامل؛ لأنّ هذه الدنيا عندما تنسب إلى الدار الآخرة تكون حياة لعب ولهو، ودار غرور ومتاع قليل[٣].

فإذا تحمّل الإنسان المشاق في دار الدنيا، واستطاع التغلّب على

---

(١) الأحزاب:٧٢.

(٢) وقد ذكرنا ــ فيما سبق ــ أنّ فلسفة وجود الغرائز في بناء الذات الإنسانية إنّما هي بمثابة الطاقة المحركة لها نحو التكامل. منه‏‏.

(٣) وفي القرآن الكريم أكثر من شاهد على هذه الحقيقة، كقوله تعالى: **﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾** الأنعام:٣٢.

شهواته ونزعاته؛ استطاع الحصول في الدار الآخرة على ملذات ورغبات وميول أكبر وأفضل فقد ورد في الحديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: **((الدنيا مزرعة الآخرة))**[1].

وهذه المعادلة إنّما نجدها فقط في الرؤية الدينية الإلهية؛ باعتبار وجود الدار الآخرة، وما يعطيه الله سبحانه وتعالى للإنسان فيها، وعليه فالإنسان يترك الظلم؛ لأنّ وراءه عقاباً شديداً، ويأتي بالعدل؛ لأنّ وراءه ثواباً عظيماً.

أمّا بناءً على النظريات الوضعية المادية، فلا يبقى هناك معنى للتضحية بالملذات والشهوات والهوى، حيث لا يوجد ـ بناءً على هذه النظريات ـ شيء أو نتيجة وراء هذه التضحية.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) عوالي اللئالي ١: ٢٦٧.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

# المقطع الثالث

## إظهار الدين

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1].

وردت الآيتان الكريمتان في سياق الآيات السابقة التي تحدّثت عن موقف قوم موسى عليه السلام منه، وعن موقف بني إسرائيل من دعوة عيسى عليه السلام، ومواجهتهم لها[2]، مما يبين أنّ القرآن الكريم والوحي الإلهي تعهّدا بظهور وبقاء واستمرار النّور والذي بُشّر به من قبل الأنبياء السابقين.

والارتباط بين الآيتين المتقدمتين والآيات السابقة واضح؛ باعتبار أنّ الأنبياء عندما يأتون بدعواتهم ورسالاتهم يُواجهون بالتهم والإشاعات ومحاولات التسقيط والتكذيب والافتراء.

فالقرآن الكريم هنا بصدد بيان أنّ الدين الذي جاء به النّبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، لا يمكن أن تؤثّر فيه الإشاعات والتهم، بل هو دين باقٍ، تعهّد الله سبحانه وتعالى بظهوره وبقائه وسيظهر على الأديان كلها.

ويقع البحث في ثلاث جهات:

## الجهة الأولى: بحث المفردات

هناك بعض المفردات في المقطع الشريف يستحسن بحثها، وهي:

---

(١) الصف:٨، ٩.

(٢) بناءً على أنّ المراد من الذي جاء بالبينات في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٢) هو عيسى عليه السلام.

**المفردة الأولى:** مفردة (الإطفاء) الواردة في قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾.

الإطفاء لغةً: من طفأ: طفئت النار تطفأ طفأً وطفوءا، وانطفأت: ذهب لهبها، الأخيرة عن الزجاجي حكاها في كتاب الجمل، وأطفأها هو وأطفأ الحرب منه على المثل، وفي التنزيل العزيز: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ**﴾[1]، فأطفأها أي أهمدها حتى تبرد[2]، والإطفاء إذهاب نور النار، ثمّ استعمل في إذهاب كل نور[3].

**المفردة الثانية:** مفردة (النور) الواردة في قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾.

النور لغةً: الضياء، والجمع أنوار[4]، والنار سُمّيت بذلك لإضاءتها[5].

---

(١) المائدة: ٦٤.

(٢) راجع لسان العرب ١: ١١٤، ١١٥.

(٣) التبيان ٥: ٢٠٧.

(٤) الصحاح للجوهري ٢: ٨٣٨.

(٥) راجع كتاب معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس زكريا ٥: ٣٦٨.

وقال أبو هلال العسكري: «الفرق بين الضياء والنور: هما مترادفان لغةً. وقد يُفرق بينهما بأنّ الضوء ما كان من ذات الشيء المضيء، والنور: ما كان مستفادا من غيره.

وعليه جرى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾.

وقال الراغب: النور الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وهو ضربان: دنيوي وأخروي، والدنيوي ضربان: معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأنوار الإلهية كنور العقل، ونور القرآن. ومنه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ ⬅

وقد استُخدم في القرآن الكريم باستخدامات عديدة، فتارة بمعنى الكتاب، وأخرى بمعنى البراهين والأدلة، وثالثة بمعنى الإسلام والدين، إلى غير ذلك، وسيأتي مزيد من البيان عن ذلك فيما بعد.

## الجهة الثانية: البحث التفسيري

سيتم الكلام في هذه الجهة عن تفسير الآيتين اللتين يتكون منهما المقطع.

### الآية الأولى: النور والهداية

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

ذكر بعض المفسرين[2] في تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أنّ استخدام الإطفاء بالفم في الآية يحتمل فيه معنيان:

**المعنى الأول**: أنْ يكون المراد منه النفخ بالفم، وهو ما يُستخدم عادةً في إطفاء النار أو السراج، فأراد القرآن الكريم - في مقام

---

محسوس بعين التبصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيّرة، كالقمرين والنجوم النيرات، ومنه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾. ومن النور الأخروي قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾». الفروق اللغوية: ٣٣٢، ٣٣٣.

(١) الصف:٨.

(٢) منهم: الشيخ الطوسي في التبيان٩: ٥٩٤، وابن عطية الأندلسي في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز٣: ٢٦، وأبو حيان الأندلسي في تفسير البحر المحيط٥: ٣٤، والآلوسي في تفسيره١٠: ٨٥، وغيرهم.

السخرية بالكافرين ـ القول بأنّ هؤلاء يُريدون أنْ يطفئوا النور العظيم المتمثّل بنور الإسلام بنفخة من فمهم، وهو أمرٌ مستحيل؛ لأنّ نور الإسلام عظيم، لا يمكن إطفاؤه، فكما أن الشمس أو أي نور عظيم لا يمكن إطفاؤها بنفخة فم[1]، فكذلك نور الإسلام.

**المعنى الثاني**: أنّ يكون المرادِ منه ما يصدر منهم من أقوال وإشاعات وافتراءات والتي تصدر عادة من الأفواه، حيث لا يمكن بمثل هذه المحاولات مواجهة الإسلام، والنيل منه، فحرب الإشاعات وحرب الكلام والتهم والأكاذيب والافتراء لا يمكن أن تواجه وتطفيء نور الإسلام.

---

(١) عمد أعداء الإسلام إلى أساليب عدة في حربهم على الإسلام، فتارة اتبعوا أسلوب الأذى والسخرية، وأخرى طريق الحصار الاقتصادي والاجتماعي للمسلمين، وثالثة طريق فرض الحروب ضد الإسلام، كمعركة أحد والأحزاب وحنين، وتجهيز الجيوش القوية لذلك، ورابعة طريق التآمر الداخلي، كما كان عمل المنافقين، وأحيانا كانت حربهم ضد الإسلام عن طريق إيجاد الاختلافات في داخل الصف الإسلامي، أو عن طريق الحروب الصليبية، أو احتلال الأراضي، كما في احتلالهم لأول قبلة للمسلمين، وهي القدس، وأحيانا اعتمدوا أسلوب تجزئة الوطن الإسلامي الواحد إلى أجزاء عديدة. وتارة التأثير على شباب الأمة الإسلامية، وإضعاف متبنياتهم المبدئية والسلوكية والأخلاقية القرآنية، وإلى غير ذلك من الأساليب والوسائل الماكرة. إلاّ أنّ هذه الجهود والمؤامرات الشيطانية غير قادرة على التأثير، وإطفاء شعلة الوهج الرسالي الذي أتى به النبي الأكرمﷺ، وبذلك تحقق التنبؤ القرآني في فشل من يريد بهذا الدين سوءا، وبقي الدين رغم كل ذلك ظاهراً قوياً، له انتشار في كل العالم.

أمّا معنى (النور) الذي أراد الكفّار إطفاءه ففيه عدّة احتمالات[1]:

---

(١) وهناك من ذكر أن الأقوال في معنى نور الله خمسة، كالقرطبي في تفسيره، حيث قال: «وفي (نور الله) هنا خمسة أقاويل:

أحدها: أنّه القرآن، يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول، قاله ابن عباس وابن زيد.

الثاني: أنّه الإسلام، يريدون دفعه بالكلام، قاله السدي.

الثالث: أنّه محمد ﷺ، يريدون هلاكه بالأراجيف، قاله الضحاك.

الرابع: حجج الله ودلائله، يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم، قاله ابن بحر.

الخامس: أنّه مثل مضروب، أي من أراد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلاً ممتنعاً فكذلك من أراد إبطال الحق، حكاه ابن عيسى» تفسير القرطبي١٨: ٨٥.

وهناك من المفسرين الكبار مَن فسّر (نور الله) بولاية أمير المؤمنين عليه السلام واستندوا في ذلك على بعض الروايات الشريفة، التي منها ما نقله الشيخ الكليني عن محمد بن الفضيل، عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: ((سألته عن قول الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؟ قال: يريدون ليطفئوا ولاية أمير المؤمنين عليه السلام بأفواههم.

قلت: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾؟ قال: والله متم الإمامة؛ لقوله عز وجل: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾، فالنور هو الإمام.

قلتُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ﴾؟ قال: هو الذي أمر رسوله بالولاية لوصيه، والولاية هي دين الحق.

قلت: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾؟ قال: يظهره على جميع الأديان عند قيام القائم، قال: يقول الله: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ ولاية القائم، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ بولاية علي.

قلت: هذا تنزيل؟ قال: نعم، أمّا هذا الحرف فتنزيل وأمّا غيره فتأويل)) الكافي١: ٤٣٢، ٤٣٣.

ومن الذين فسّروا (نور الله) بهذا التفسير أو على أقل تقدير نقلوه كقول من الأقوال: محمد بن مسعود العياشي١: ٣٧٢، والفيض الكاشاني في تفسير الصافي٥: ١٧٠، وفي تفسير الأصفى٢: ١٣٠٠، والشيخ الحويزي في تفسير نور الثقلين٢: ٢١٠، ←

فقد فسّره بعض المفسرين بالإسلام[1]، وبعضهم بالقرآن الكريم[2]، وبعضهم بالنبي صلى الله عليه وآله.

لكن لا يبعد أن يكون المقصود منه الهداية بعد ملاحظة الآية التي جاءت بعد هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾[3]، والآيات التي استُخدمت فيها هذه الكلمة؛ باعتبار أنّ النور وسيلة وسبب للهداية.

فمعنى كون الطريق منيراً ومضيئاً هو أن الإنسان الذي يتحرك ويسير فيه يكون على هداية من أمره. فقد استعمل القرآن الكريم (النّور) استعمالات عديدة، يفهم من مجموعها الهداية، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾[4]، فمفردة الكتاب ـ التي هي بمعنى القرآن الكريم ـ عطفت على كلمة النّور، الأمر الذي يُشعر بأنّ المراد من (النّور) معنىً آخر غير خصوص القرآن، وهو كل ما يشتمل على الهداية من قبل الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي

---

والسيد الطباطبائي في تفسير الميزان١٩: ٢٥٧، وغيرهم.

(١) منهم الشيخ الطوسي في التبيان٩: ٥٩٤، والشيخ الطبرسي في جوامع الجامع٣: ٥٥٤، وفي تفسير مجمع البيان٩: ٤٦٣، والسيد الطباطبائي في تفسير الميزان١٩: ٢٥٤، وابن جرير الطبري في جامع البيان٢٨: ١١١، وغيرهم.

(٢) منهم ابن عباس وابن زيد، راجع تفسير القرطبي١٨: ٨٥.

(٣) الصف:٩.

(٤) المائدة:١٥.

أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١]، وإن افترض بعض المفسرين[٢] أنَّ (النور) في هذه الآية الكريمة هو خصوص الكتاب.

ولكن يَرِد عليه بأنَّ الهداية أيضاً أُنزلت مع رسول الله ﷺ، بل كل ما نطق به رسول الله ﷺ هو منزَل من قبل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٤]، فمن الواضح أنَّ المقصود من (النور) هنا هو ما يقابل الظلمات فيكون معناه حينئذ عبارة عن الهداية.

وقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٥]، حيث إنَّ القرآن الكريم بمعنى من المعاني نور؛ باعتباره أحد وسائل الهداية، وأحد أسباب خروج الإنسان من الظلمات إلى النور، شأنه في ذلك شأن النور.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ

---

(١) الأعراف:١٥٧.

(٢) منهم الشيخ الطوسي في التبيان٤: ٥٦٠، والشيخ الطبرسي في تفسير جوامع الجامع١: ٧١١، والسيد الطباطبائي٨: ٢٨٢، وغيرهم.

(٣) النجم:٣ ــ ٤.

(٤) البقرة:٢٥٧.

(٥) إبراهيم:١.

**شَكُورٍ﴾**[١].

وقوله تعالى: **﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**[٢]، فهنا يُحتمل أن يكون المقصود من النور هو الإسلام الذي هو هداية البشر.

فيتّضح ممّا تقدّم أنّ استخدام (النّور) في القرآن الكريم قد جاء في معانٍ عدة، تارةً في معنى (الكتاب) وأخرى في معنى (ما أُنزل من قبل الله سبحانه وتعالى) وأخرى في معنى (الإسلام).

وكل هذه المصاديق هي من مصاديق الهداية، فالكتاب هو سبب من أسباب الهداية، والإسلام يمثل مصداق من الهداية، والمعنى الشامل الكلي الذي يشمل كل هذه الأفراد وكل هذه المصاديق هو الهداية.

ومضافاً لما تقدّم توجد في المقام قرينة على أنّ المراد من النور في الآية هو الهداية، وهي الآية الثانية من المقطع **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾**[٣]. وسيأتي مزيد من البيان عند التعرّض لها.

وأمّا قوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾** فمعناه أنّ نور وهداية الإسلام ليس كالأنوار والهدايات التي نزلت سابقاً؛ باعتبار أنّ تلك الهدايات إنّما نزلت لمرحلة معينة من مراحل التاريخ، أمّا هذا النور سيكون

---

(١) إبراهيم:٥.

(٢) الزمر:٢٢.

(٣) الصف:٩.

نوراً كاملاً لا نقص فيه، وبالتالي يكون خاتماً لكل الأنوار.

وقد جاء هذا المضمون في آيات أخرى من القرآن الكريم، من قبيل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾[1]. فإكمال الدين في الآية الكريمة يشبه إتمام النور في الآية مورد البحث.

## الآية الثانية: حاكمية الإسلام

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

في الآية الكريمة قرينة تُشير إلى أنّ المقصود من (النّور) في الآية السابقة هو الهداية ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى...﴾.

فالهُدى ـ الذي هو عبارة عن دين الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ ـ هو ما يُريدون إطفاءه ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.

فبقرينة السياق والارتباط بين الآيتين يُفهم أنّ المقصود من النور هو الهداية.

وقد تعهّد الله سبحانه وتعالى في الآية الأولى على أن يتمّ نوره، وفي الآية الثانية بيّن أنّ هذا النور الذي يتممه يُظهره على الدين كله. وبالتالي يكون هو الدين الخاتم، الدين الذي لا يبقى فيه نقص حتى يحتاج إلى تكميل بدين آخر أو بنبي آخر.

وأمّا قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ففيها تصريح بالإظهار،

---

(١) المائدة:٣.

ومن هنا نتساءل عن المراد من الإظهار؟

لقد امتاز الدين الإسلامي عن بقية الأديان الأخرى بظهوره عليها، من خلال حجته الظاهرة، وبقائه في نفسه بتمام معالمه وخصائصه ومُثُله وقيمه وأركانه، وعدم تعرّضه للتحريف، بخلاف المسيحية واليهودية، ومن خلال كونه الدين الحاكم والمسيطر على الأديان الأخرى خارجاً.

ويعتبر هذا النوع من الظهور ميزة من ميزات الإسلام، فهو ليس كسائر النظريات التي لا تتعدّى بطون الكتب، وإنّما له وجود وظهور خارجي على بقية الأديان[1].

وسيأتي في الجهة الثالثة المزيد من البحث والتفصيل عن ذلك.

وقد أشار بعض المفسرين[2] في مقام الحديث عن الجانب اللغوي والبلاغي والأدبي في القرآن الكريم إلى الفرق بين استعمال ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ الواردة في الآية الأولى وبين استعمال ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الواردة في الآية التي تليها.

فالاستعمال الأول جاء باعتبار أنّ الآية تحدّثت عن النور وعن محاولات إطفائه، وبما أنّ الكفر بمعناه اللغوي هو ستر الشيء والتعتيم

---

(١) قال الشيخ الطبرسي في قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ «أي: ليعليه على جميع الأديان المخالفة له، وعن علي عليه السلام: والذي نفسي بيده لا تبقى قرية إلاّ وينادى فيها بشهادة أن لا إله إلاّ الله بكرةً وعشياً» تفسير جوامع الجامع٣: ٥٥٤.

(٢) تفسير الرازي٢٩: ٣١٥، ٣١٦.

عليه[١]؛ لذلك استخدم فيها: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، أي ولو كره أولئك الذين يحاولون ستر الأشياء وكتمها والتعتيم عليها، فعملية الإطفاء تتناسب مع الكافرين.

وأمّا الاستعمال الثاني؛ فباعتبار أنّ الإسلام في ذلك العصر كان يواجه الذين يشركون مع الله سبحانه وتعالى إلهاً آخر، والذين هم من أهل مكة.

## الجهة الثالثة: استفادات عامة

هناك نكتة مهمة يمكن استفادتها من آيتي المقطع الشريف، وهي:

## إظهار الدين

من خلال مجمل ما يذكره المفسرون وما يمكن استنتاجه من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٢]، وما يمكن أنْ نستنبطه من خلال المقارنات بين مجموع الآيات القرآنية يمكن القول: إنّ لإظهار الدين أبعاداً يمكن من خلالها أن يُظهر الله سبحانه وتعالى هذا الدين على الدين كله، وهذه الأبعاد هي:

---

(١) قال ابن السكيت الأهوازي «والكفر: مصدر كفرت الشيء، إذا غطيته وسترته، قال حميد الأرقط:

فوردت قبل انبلاج الفجر * * وابن ذكاء كامن في كفر».

ترتيب اصلاح المنطق: ٣٢٥.

(٢) الصف:٩.

**البعد الأول: ظهور الدين بالأدلة**

امتاز الدين الإسلامي على كل الديانات السابقة بأنّه دين الحجج والأدلة والبيانات، وإن كانت الديانات جميعها حقّ، وأنّها منزلة من قبل الله سبحانه وتعالى، وقد جاء بها أنبياؤه تعالى، لكن مع كلّ ذلك امتاز الإسلام عليها بامتلاكه الحجة الظاهرة عليها، التي يمكن تفسّيرها بالقرآن الكريم.

فبالرغم من أنّ الديانات الأخرى كان إلى جانبها آيات وبيّنات، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾(١)، بناءً على أن المقصود من (جاءهم) هو عيسى عليه السلام.

كما أشار في موضع آخر إلى أنّ موسى عليه السلام أيضاً جاء بالبيّنات. إلاّ أنّ هذه البينات التي جاء بها موسى وعيسى عليهما السلام محدودة ومحصورة بعصرهما، ليس لها امتداد، فهي مؤثّرة في مَن شاهدها ورآها وعاصرها.

ولولا إخبار القرآن الكريم ـ كتاب الوحي المصدّق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ عن وجود تلك البينات لما صدّقنا بها، لعدم وجود أيّ دليل على وجود تلك البينات والآيات، فعن طريق القرآن الكريم علمنا أنّ موسى عليه السلام تحولت عصاه إلى ثعبان، ومن خلاله أيضاً علمنا أنّ عيسى عليه السلام كان يُبرأ الأكمه والأبرص، فهذه الأمور كانت دليلاً وحجة في عصرهما.

أمّا في عصرنا فليست لها هذه الدلالة؛ لأنها تحتاج إلى مشاهدة

---

(١) الصف:٦.

وحس واستيعاب قريب، وهذا ليس موجوداً في هذا العصر، وهكذا بالنسبة إلى البيّنات الأخرى.

أمّا الإسلام فلديه القرآن الكريم المعجزة الخالدة، الذي هو حجة على الجميع، فمن خلال قراءته ومراجعته ومقايسته مع العصر الذي نزل فيه يمكن الوصول إلى أنه معجزة وحجة.

إذن، فامتياز هذا الدين عن غيره من الأديان أنّ حجته باقية، ولها استمرار ودوام، وبالتالي يكون لها ظهور على بقية الأديان. مضافاً إلى أن الحجة التي جاء بها هذا الدين هي حجة واضحة، تؤكّد أن هذا الدين خاتم الأديان، وهو متمم لها، ومصدّق ومهيمن عليها.

### البعد الثاني: الظهور الداخلي

امتاز الإسلام ببقائه في نفسه بتمام معالمه وخصائصه ومُثله وقيمه وأركانه، وعدم تعرّضه للتحريف. فلو أراد أحد الباحثين الآن البحث عن اليهودية التي جاء بها موسى عليه السلام بمعالمها الحقيقية، أو البحث عن المسيحية التي جاء بها عيسى عليه السلام بمعالمها الحقيقية، لما تمكّن من الوصول إليهما.

وهذا ما اعترف به علماء اليهود والمسيح أنفسهم، حيث أقرّوا بأنّ قسماً من اليهودية قد ضاع نتيجة لما تعرّض له اليهود من النفي والإبعاد والقمع وإحراق الكتب المقدسة، وهدم المعابد التي كانوا يتخذونها لعبادة الله سبحانه وتعالى.

وهكذا الحال للمسيحية، حيث كان هناك فاصل زمني بين عيسى عليه السلام وبين الطبقة الثالثة التي جاءت بعده، الأمر الذي أدّى إلى

حصول التحريف في المسيحية، وضياع الكثير منها.

أمّا الإسلام فقد تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظه، وهذا التعهد ورد في آيات متعددة وبصيغ مختلفة، من قبيل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

فقد تعهّد الله سبحانه وتعالى بحفظ هذا الذكر الذي هو (دين الإسلام) أو قد يُفسّر بخصوص (القرآن الكريم) الذي هو أفضل وأهم وسيلة وسبب في حفظ الدين الإسلامي، حيث يستطيع أيّ باحث كان ـ الذي يريد معرفة ما جاء به خاتم الأنبياء ﷺ من عند الله ـ معرفة معالم الدين الإسلامي؛ من خلال القرآن الكريم المشتمل على مجموع المفاهيم الأساسية لهذا الدين.

إذن، الدين الإسلامي فيه هذا النوع من الظهور الذي يختلف فيه عن بقية الأديان الأخرى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، فهذا الدين سيبقى ويستمر ويدوم، بخلاف الأديان الأخرى، والشيء الذي لا يبقى ولا يستمر يكون خفياً، بخلاف الشيء الذي يبقى ويستمر لأنّه يكون حينئذٍ ظاهراً.

### البعد الثالث: الظهور الخارجي

يُعتبر الدين الإسلامي هو الدين الحاكم والمسيطر خارجاً على الأديان الأخرى. وعند مراجعة حركته يمكن معرفة هذا البعد فيه.

---

(١) الحجر:٩.

أمّا في الصدر الأول للإسلام فالأمر واضح، حيث أصبح الإسلام هو الدين الظاهر والمهيمن والمسيطر على كل الأديان، حيث كان خارجاً أقوى الأديان، وأكثرها سيطرةً على العالم من غيره.

وهذا ما أرادته الآية الواردة في سورة الفتح **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾**[(١)]، حين تحدّث القرآن الكريم في هذه السورة عن دخول المسلمين مكّة وهم معتمرون كما وعد الله سبحانه وتعالى بذلك.

قال تعالى: **﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾**[(٢)]، فبعد أنْ تحدّثت الآية عن انتصار المسلمين ودخولهم مكّة وهم معتمرون[(٣)] وأنّ المشركين سيرضخون لتواجد المسلمين فيها جاءت هذه الآية الكريمة التي تقول: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾**.

فسياق الآية يدلّ على أنّ المقصود من الظهور هو هذا النوع من الظهور الخارجي، حيث حقّقه الله سبحانه وتعالى للمسلمين على أعدائهم في الواقع الخارجي؛ نتيجةً لتعهده بذلك، واستمر هذا

---

(١) الفتح:٢٨.

(٢) الفتح:٢٧.

(٣) وكانت هذه العمرة الأولى التي أداها المسلمون مع الرسول ﷺ بعد سنة واحدة من صلح الحديبية.

الظهور قروناً عديدة من الزمن.

وأمّا الأديان الأخرى فلم يبق لها وجود خارجي، فالموجود هو حكم المسيحيين لا حكم المسيحية، فالمسيحية بقيمها ومثلها - أي الذي تبقّى منها، وإلاّ فالكلام ليس عن القيم الواقعية؛ لأنّ قسماً كبيراً منها قد حُرّف، ولم يبقَ منه شيء - غير موجودة.

فمثلاً: أنّ واحدة من القيَم التي تطرحها المسيحية في العالم الآن كمنهج أساسي هي قيمة المحبة والسلام في الأرض!

لكنّ نجد أنّ أشدّ القيَم انتهاكاً في بلاد المسيحيين هي هذه القيمة، حيث أن العدوان والتجاوز وانتهاك الحرمات واستثمار الناس وإلقاء البغضاء فيما بينهم، يصدر من أولئك الذين يرفعون شعار الصليب، والمسيحية بُراء منهم ومن أفعالهم.

وهكذا الحال إلى اليهودية فالموجود اليوم هو حكم اليهود لا اليهودية، اليهود اليوم يحكمون في الأرض المقدسة، إلاّ أنّهم يخالفون ما تبقّى من تراث التوراة وقيمها، ولا يلتزمون بتعاليمها، لا في الحكم ولا في النظام، وإنّما يلتزمون بالتعاليم والقوانين الديمقراطية التي يطرحها العالم الرأسمالي الديمقراطي.

فإذن حتى في المرحلة التي تدهور فيها الحكم الإسلامي كان الدين الإسلامي ظاهراً على بقية الأديان. نعم قد لا يكون هو الأقوى في العالم، إلاّ أنّه بلحاظ بقية الأديان هو الدين الظاهر، والذي سيحكم هذا العالم في المستقبل القريب إن شاء الله تعالى.

وهذا ما وعد به الله سبحانه وتعالى في الآيات الكريمة التي منها: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ

الصَّالِحُونَ﴾[١].

وهناك مجموعة من الروايات المذكورة في طرق العامة والخاصة، تؤكّد أنّ المصداق الخارجي لهذه الآية ـ من ناحية ظهورها ـ سيتحقق بشكل كامل عند ظهور مهدي أهل البيت عليهم السلام.

فقد ورد في طرق العامة ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص[٢] فلا يسعى عليها[٣]، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد**))[٤]. وهذا ما سيكون في آخر الزمان.

وأمّا ما ورد من طرق الخاصة فقد روى الصدوق بإسناده عن أبي بصير أنّه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾: ((**والله ما نزل تأويلها بعد** ـ أي تأويلها الخارجي، وهو مصداقها الخارجي الكامل ـ **ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم عليه السلام، فإذا خرج القائم عليه السلام لم يبق كافر بالله العظيم ولا مشرك بالإمام إلاّ**

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) القلاص: مفرده قلوص، وهي الأنثى من الإبل من حين تركب إلى أن تبزل، وسمّيت لطول قوامها، ولم تجسم بعدُ. راجع كتاب العين للفراهيدي٥: ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) فيكون المقصود من (ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها) أنّ الإبل الشابة التي ترسل لا يُسعى وراءها؛ لعدم وجود من يسرقها. منه رحمه الله.

(٤) صحيح مسلم١: ٩٤.

**كره خروجه، حتى لو كان كافراً أو مشركاً في بطن صخرة لقالت: يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله))**[١].

وفي الدرّ المنثور أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في سننه عن جابر رضي الله عنه في قوله: ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾ قال: ((**لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني صاحب ملة إلا الإسلام حتى تأمن الشاة الذئب والبقرة الأسد والإنسان الحية وحتى لا تقرض فأرة جرابا وحتى توضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير وذلك إذا نزل عيسى بن مريم** عليه السلام))[٢]. وبعض هذه الأمور في الواقع من علامات الظهور[٣]، وبعضها الآخر إنّما يكون في زمان الظهور.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٦٧٠.

(٢) الدرّ المنثور٣: ٢٣١.

(٣) والحكم الإسلامي القائم الآن في الجمهورية الإسلامية هو أحد المؤشرات والدلائل على الظهور الخارجي لهذه الآية الكريمة ولهذا الدين. منه قدس سره.

# المقطع الرابع

## التجارة الرابحة

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

تُمثّل آيات المقطع الشريف قضية واحدة، وهي الجهاد في سبيل الله الذي يُجسّد الإيمان الكامل بالله عز وجل ويجسّد الالتزام الكامل بأوامر رسوله ﷺ ويُحقق للإنسان الكمال كما يحقق له النصر والغلبة في هذه الحياة الدنيا، وهذه القضية هي الهدف الأساسي من السّورة المباركة.

لقد أوضحت الآية الأولى من المقطع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ما يترتّب على هذه التجارة من الفائدة والربح، وذكرت الآية التي بعدها ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حقيقة هذه التجارة، ورأس مالها الذي يقدمه الإنسان. أمّا الآية الثالثة فقد أشارت إلى ما يترتّب على هذه التجارة من آثار ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وتختلف هذه الآثار إلى حدٍ ما عن الأثر الذي ذُكر في الآية الأولى

---

(١) الصف: ١٠ ــ ١٣.

﴿تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ حيث بيّنت الآية الثالثة أنّ الفائدة المترتبة على هذه التجارة هي غفران الذنوب، ودخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وليست مجرد النجاة من العذاب الأليم كما ورد في الآية الأولى.

ويقع البحث في ثلاث جهات.

## الجهة الأولى: بحث المفردات

في المقطع ست مفردات يجدر بحثها، وهي:

**المفردة الأولى:** مفردة (التجارة) الواردة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

يذكر اللغويون أنّ التجارة: هي التصرف في رأس المال طلباً للربح[1]. وعليه يكون عنصر الربح في هذه العملية عنصراً أساسياً مركزياً مطلوباً، بخلاف مفهوم البيع والشراء، إذ لا يعتبر فيه عنصر الربح، فقد يبيع الإنسان مع الخسارة، وقد يشتري معها أيضاً؛ لضرورة من الضرورات.

أمّا مفهوم التجارة فقد أخذ فيه لغةً عنصر الربح، وبالتالي فاستخدام التجارة هنا؛ من أجل بيان أنّ هذه العملية من البيع والشراء مع الله سبحانه وتعالى قد أُخذ فيها عنصر الربح، وليس فيها أي خسران بالنسبة إلى الإنسان.

وقد استُخدمت مفردة التجارة في القرآن الكريم في معنيين:

---

(١) مفردات غريب القرآن: ٧٣.

**الأول:** التجارة المادية، وهي التجارة المعروفة، والتي تُستخدم لدى الناس في حياتهم العادية[١].

**الثاني:** التجارة المعنوية، وهي التي تكون مع الله سبحانه وتعالى[٢].

**المفردة الثانية:** مفردة (الجهاد) الواردة في قوله تعالى: ﴿**تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾.

الجهاد: محاربة الكفار، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل. يقال جهد الرجل في الشيء: أي جد فيه وبالغ، وجاهد في الحرب مجاهدة وجهاداً[٣].

**المفردة الثالثة:** مفردة (المغفرة) الواردة في قوله تعالى: ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾.

المغفرة لغةً: عبارة عن الستر والتغطية[٤]. ويضيف بعضهم[١] بأنها

---

(١) كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ النساء:٢٩، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ الجمعة:١.

(٢) كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الصف:١٠.

(٣) النهاية في غريب الحديث١: ٣١٩.

(٤) راجع الصحاح٢: ٧٧٠. غريب الحديث لابن سلام٣: ٣٤٨. النهاية في غريب الحديث٣: ٣٧٣.

عبارة عن حالة الوقاية التي تحصل للإنسان، والتي من خلالها يتمكّن من دفع الضرر والأذى عن نفسه.

ويذكرون في مقام توضيح هذا المعنى ما يضعه المقاتل على رأسه في ساحة المعركة، وهو ما يُسمى بـ(المغفر) حيث سُمّي بهذا الاسم إمّا من باب ستره للرأس وإمّا لدفعه الأذى عن الرأس. واستُخدمت بعدئذٍ في غفران الذنوب، أي بمعنى العفو والتجاوز عن المعاصي وعمّا يصدر من الإنسان من مخالفات لله تعالى؛ باعتبار أنّه تعالى يستر هذه المعاصي، أو يخلق في الإنسان حالة تقتضي أن يكون متقياً لآثارها.

**المفردة الرابعة:** مفردة (الذنب) الواردة في قوله تعالى: ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾.

ذكر اللغويون أنّ المقصود من الذنب كل فعل له تبعة سيئة وإن كانت هذه التبعة تكوينية، أي حتى لو لم تكن المسألة مسألة عقاب على مخالفة أمر ما.

ولعلّه مأخوذ من الشيء الذي يكون له عقب، ويكون له تبعة سيئة؛ ولذلك يستخدم الذنب حتى فيما إذا كانت هذه التبعات السيئة المترتبة على الفعل غير العقاب الإلهي.

فلو كان الفعل مباحاً من قبل الله سبحانه وتعالى، ولم يكن محرماً، لكن كانت له تبعة سيئة فحينئذ يُعبّر عنه بأنّه ذنب، وبالتالي إلغاء تلك

---

(١) كابن منظور في لسان العرب٥: ٢٥، وابن قتيبة في غريب الحديث١: ٣٨.

التبعة السيئة والعفو عنها يكون مغفرة لذلك الذنب[1].

**المفردة الخامسة:** مفردة (النصر) الواردة في قوله تعالى: **﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾**.

النصر في الاستخدام اللغوي[2] والقرآني هو المعاونة والمساعدة، فعندما يعاون إنسان إنساناً آخراً يقال: بأنّ هذا نصر ذاك.

**المفردة السادسة:** مفردة (الفتح) الواردة في قوله تعالى: **﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾**.

الفتح في اللغة نقيض الإغلاق[3]، ومنه فتحت الباب فانفتح، وفتّحت الأبواب شدّد للكثرة فتفتّحت هي[4]، ومنه أيضاً كلمة مفتاح، وغير ذلك من الاستخدامات الأخرى.

واستُخدم هذا اللفظ في القرآن الكريم في صيغ واشتقاقات

---

(١) راجع الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: ٢٤٤.

وقال السيد الطباطبائي «فالذنب في اللغة على ما يستفاد من موارد استعمالاته هو العمل الذي له تبعة سيئة كيفما كان، والمغفرة هي الستر على الشيء.

وأما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظي الذنب والمغفرة إلى أذهاننا اليوم أعني مخالفة الأمر المولوي المستتبع للعقاب وترك العقاب عليها فإنّما لزماهما بحسب عرف المتشرعين» تفسير الميزان١٨: ٢٥٤.

(٢) «النصر لغةً: إعانة المظلوم، نصره على عدوه ينصره ونصره ينصره نصرا، ورجل ناصر من قوم نصار ونصر مثل صاحب وصحب وأنصار» لسان العرب٥: ٢١٠.

(٣) راجع لسان العرب٢: ٥٣٦. العين٣: ١٩٤.

(٤) راجع الصحاح١: ٣٨٩.

متعدّدة[١]، كلها تؤدّي إلى المعنى المتقدّم، كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[٢]، وقوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾[٣].

واستخدام الفتح بالألف واللام في الآية الأخيرة قد يُراد منه الإشارة إلى حادثة معينة وقعت في تاريخ المسلمين، وهي إمّا ما حصل بعد صلح الحديبية من فتح للمسلمين وإمّا فتح مكة.

ولعلّ الحادثة الأولى هي التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[٤].

## الجهة الثانية: البحث التفسيري

يكون الكلام في هذه الجهة عن تفسير الآيات التي يتكون منها المقطع.

---

(١) كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ النور:٦١. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ القصص:٧٦.

(٢) الأنعام:٥٩.

(٣) الأنفال:١٩.

(٤) الفتح:١٨.

## الآية الأولى: أفضل الربح

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أشارت الآية الكريمة إلى التجارة مع الله سبحانه وتعالى، وما يترتب عليها من الفائدة والربح. وقد تقدّم أنّ مفهوم التجارة لغةً أُخذ فيه عنصر الربح، ممّا يكشف أنّ استخدامها هنا لبيان أنّ عملية البيع والشراء هذه مع الله سبحانه وتعالى مربحة.

إنّ الربح المترتب على هذه التجارة هو النجاة من العذاب الأليم الذي ينتظر الإنسان. والمتبادر إلى الذهن من هذا العذاب الأليم هو عذاب الآخرة؛ باعتبار أنّ مجموعة المفاهيم القرآنية المطروحة في قضية العذاب تشير إلى ذلك.

ويُحتمل أن يكون المقصود منه عذاب الدنيا، ويكون المعنى: إنّ ترك هذا المنهج يُؤدي بالإنسان في هذه الدنيا إلى العيش في حالة من العذاب والآلام والمعاناة. ومن الواضح أنّ عدم إقامة مجتمع العدل والتقوى يؤدي بالإنسان إلى العيش في حالة من الشقاء والفساد والآلام والابتلاء بالنقص في الأموال والأنفس كما يشير إليه القران الكريم.

## الآية الثانية: رأس المال

قال تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

بعد أن أشارت الآية السابقة إلى الربح المترتّب على التجارة مع الله

سبحانه وتعالى، أوضحت هذه الآية الكريمة رأس مال هذه التجارة الذي يتكوّن من أمرين:

**الأمر الأول:** الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبرسوله، إذ لا يكفي الإيمان بوجود الله فقط، بل لابدّ من الإيمان بالشريعة وبالكتاب وبالرسالة؛ وذلك بقرينة (ورسوله). كما أنّ الإيمان برسول الله ﷺ فيه إشارة أيضاً إلى الإيمان بطاعته، والالتزام بأحكامه، ولا يكفي فقط الإيمان بأنّه رسول من قبل الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ معنى كونه رسولاً من قبل الله أنّ ما يأتي به أيضاً يكون من عنده تعالى.

**الأمر الثاني:** الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، والذي يعتبر من الأُمور المهمة والمركزية المطروحة في القرآن بشكل عام، وفي هذه الآية بشكل خاص، فقد يتصوّر الإنسان عندما يؤمن بالله سبحانه وتعالى إيماناً كاملاً، وينسحب هذا الإيمان على سلوكه وأعماله، فإن ذلك كافٍ للاستجابة للدين ولدعوة الحق!

إلاّ أنّ هذا في الواقع غير كافٍ، ففي هذه الآية وفي غيرها اشترط القرآن الكريم الإيمان بالجهاد، بحيث إنّ ترتيب الآثار والنتائج في الدار الآخرة ووصول الإنسان إلى الكمالات التي يريدها الله سبحانه وتعالى له، لا يمكن أن يتحقق إلاّ بالجهاد ﴿**تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(١).

فقضية الجهاد في نظر الإسلام لها هذه الدرجة من الأهمية. فلا

---

(١) الصف:١١.

يكفي الإنسان إيمانه بالله سبحانه وتعالى، ولا يكفيه أن يصلي ويصوم، بل لا يكفي أن يأتي بمختلف ألوان العبادة ما لم يكن ذلك مقروناً بالجهاد في سبيل الله[1]، وبالتعرّض للأذى والآلام والمعاناة؛ من أجل الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الشيء الأساسي الذي تريد بيانه الآية الكريمة.

ويُعتبر هذا النحو من الطرح ـ التجارة مع الله تعالى ـ من الأنحاء والمناهج التي استخدمها القرآن الكريم كثيراً في مقام دعوة الإنسان ودفعه بالاتجاه الصحيح الذي يريده الله سبحانه وتعالى، ويكون من خلال استخدام المصطلحات والأمثلة الواضحة التي يعيشها الإنسان.

وعندما نقارن بين استخدام القرآن الكريم لمنهج الأمثلة الواضحة وما استُخدم في كُتب العهدين من التوراة والإنجيل، نجد فرقاً واضحاً في هذا المجال. فالمصطلحات المستخدمة في التوراة والإنجيل بعيدة عن واقع حياة الإنسان وتصوراته الاجتماعية العادية التي يعيشها بشكل طبيعي، بخلاف خطابات القرآن الكريم التي تكون دائما مأخوذة من واقع الإنسان ومحيطه القريب، كقضية البيع والشراء التي يمارسها الإنسان في حياته باستمرار، ويفهمها ويستوعبها استيعاباً كاملاً،

---

(١) وهذا في الواقع يعطينا صورة عن أهمية الجهاد، فالمسلمون في هذا العصر ـــ مع الأسف ـــ قد غفلوا عن أهمية هذا العنصر في إيمانهم وفي حياتهم ومصيرهم، وكان ذلك نتيجة للغزو الفكري والثقافي الذي قام به المستعمرون في بلادنا، حيث حاولوا إبعاد المسلمين عن فكرة ومنهج الجهاد؛ لأنهم أدركوا أنّ هذا المنهج هو الذي يحقق للمسلمين العزّة والكرامة والاستقلال والحرية؛ ولذلك فقد أكّد القرآن الكريم على هذا العنصر الأساسي في الكثير من آياته الشريفة. منه ﵀.

ويبذل الكثير من الجهد والعناء؛ من أجل تحقيقها في حياته الاعتيادية.

فاستخدام القرآن الكريم لمثل هذه الأساليب؛ لأجل توضيح وتقريب الفكرة التي يريد طرحها على الإنسان، ولأجل جعله أكثر تفاعلاً معها.

ونجد بعض معالم هذا الطرح في أمثلة مختلفة من القرآن الكريم، من قبيل ما ورد في قوله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾**[1]، حيث يفترض القرآن الكريم وجود عملية بيع وشراء، وذلك بأن يشتري الإنسان نفسه ويبيعها ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى.

ومن قبيل قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[2].

وقوله تعالى: **﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾**[3]. حيث تطرح هذه الآيات ومثيلاتها مفهوم الجهاد من خلال قضية البيع والشراء التي يمارسها الإنسان في حياته الاعتيادية، غاية الأمر أنّ البيع والشراء هنا بمعنى آخر.

---

(١) البقرة:٢٠٧.

(٢) التوبة:١١١.

(٣) النساء:٧٤.

ومعلوم أنّ هذه الأمثلة تختلف عمّا نحن فيه من جهة أنّ المفهوم الذي طُرح فيها هو مفهوم البيع والشراء، أمّا فيما نحن بصدد تفسيره فهو مفهوم التجارة الذي يترتب عليه خير كبير.

أمّا قوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فقد يقال: إنّ المقصود من الخير هنا الخير الأخروي، فيكون المعنى: إنّ الله سبحانه وتعالى سيثيبكم أفضل الثواب، وسيعطيكم أفضل الأجر في الآخرة؛ عندما تجاهدون بأموالكم وأنفسكم ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ويذكر أصحاب هذا الرأي أنّ القرينة على ذلك هو سياق الآية التي بعدها ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾، فهي بصدد بيان طبيعة هذا الخير.

فيكون المعنى بهذا الشكل: إنّ جهادكم بأموالكم وأنفسكم خير لكم، وهذا (الخير) هو غفران ذنوبكم، وإدخالكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن. وهذا رأي معقول.

لكن قد يُقال: إنّ المقصود من الخير في الآية خير الدنيا أيضاً مضافاً إلى خير الآخرة، والمراد من خير الدنيا هو النتائج الخيّرة والصالحة التي تتحقق في المجتمع الإنساني في هذه الدنيا.

ويمكن أن يُفهم هذا المعنى للخير من نفس سياق الآية مورد البحث، وكذلك يمكن فهمه من الآيات القرآنية التي تحدّثت عنه، من قبيل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

﴿وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[1].

فبقرينة الآيات التي بعدها يمكن فهم أنّ المراد من (الخير) هو النتائج التي تتحقق للإنسان في هذه الحياة، ومن قبيل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2].

حيث ذكر بعض المفسرين[3] أنّ الدعوة إلى الحياة هنا هي الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، فوصف القرآن الكريم الجهاد في الآية الكريمة بأنّه حياة كما وصف القصاص في آية أخرى بأنه حياة أيضاً ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[4]، وذلك باعتبار أنّ الجهاد وان كان فيه قتل وتدمير إلاّ أنّ النتائج المترتبة عليه جيدة لهذا الإنسان.

ومن قبيل الآيات التي أُذن فيها بالجهاد، كقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ

---

(١) البقرة: ٢٦١.

(٢) الأنفال: ٢٤.

(٣) منهم القطب الراوندي، فقه القرآن ١: ٣٦١، وهو أيضاً قول الفراء وابن إسحاق والجبائي والقتيبي، راجع التبيان ٥: ١٠١.

(٤) البقرة: ١٧٩.

وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[١].

حيث أشارت الآيات الشريفة إلى النتائج المترتبة على الجهاد، والمرتبطة بحياة الإنسان في الدنيا، هذا مضافاً إلى الفوائد والآثار والمصالح المترتبة عليه في الحياة الأخرى.

ويمكن أيضاً استفادة هذا المعنى الأوسع من الآية الثالثة من هذا المقطع.

## الآية الثالثة: المغفرة والجنة

قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

بعد أن ذكر القرآن الكريم في الآية السابقة ملخص ما يترتب على الجهاد ـ بالأموال والأنفس ـ في سبيل الله من آثار، ذكر في هذه الآية ثلاثة آثار مختلفة من حيث النوع، اثنان منها في هذه الآية ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾، والثالث في الآية التي بعدها[٢]، والأثران هما:

### الأثر الأول: غفران الذنوب

يوجد في معنى غفران الذنوب احتمالان:

**الاحتمال الأول:** وهو المتبادر إلى الذهن ابتداءً من معنى (غفران الذنوب) المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أنّ الله

---

(١) الحج:٣٩ ــ ٤١.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

سبحانه وتعالى يغفر للمجاهدين بأموالهم وأنفسهم ما يصدر منهم من معاصي وذنوب؛ لأنَّ الإنسان في حياته الطبيعية يتعرّض بشكل من الأشكال إلى الخطيئة والمعصية، والخروج عن طاعة الله سبحانه وتعالى بدرجة من الدرجات.

وواضح أنَّ هذه المعاصي والمخالفات يترتب عليها العقاب في الدار الآخرة؛ باعتبار أنْ معصية الله سبحانه وتعالى ومخالفة أوامره توجب استحقاق العقاب، لكنَّ الله سبحانه وتعالى بلطفه ورحمته وإحسانه وكرمه يعفو عن هؤلاء العاصين؛ كونهم من المُجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وما يمثله هذا الجهاد من درجة عالية من البذل والعطاء والتضحية.

وقد ورد مفهوم غفران الذنوب في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا**﴾[2]، فالإنسان الذي يجتنب المعاصي الكبيرة يغفر الله سبحانه وتعالى له المعاصي الأخرى.

وما ورد أيضا من أنْ الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب الصغيرة، أو التي تكون ناشئة من الغفلة وعدم الالتفات كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا**

(١) هود: ١١٤.

(٢) النساء: ٣٥.

**تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾**(١).

فإذن، لعلّ المقصود من قوله تعالى: **﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾** أنّ الله سبحانه وتعالى يغفر للمجاهد يوم القيامة المعاصي والمخالفات التي صدرت منه.

**الاحتمال الثاني:** إنّ الله سبحانه وتعالى يغفر للمجاهد تبعات أعماله السيئة وغير الصالحة في هذه الحياة الدّنيا، فمن الثابت أن الإنسان الذي يرتكب أعمالاً غير صالحة تكون لها تبعات وآثار سيئة في حياته وحياة الناس والمجتمع، بحيث تنسحب هذه الآثار عليه وعلى غيره **﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾**(٢).

ولكنّ الله سبحانه وتعالى من خلال الجهاد في سبيله بالمال والنفس يحوّل هذه التبعات السيئة التي حصلت نتيجة لتلك الأعمال غير الصالحة إلى آثار حسنة، مما يؤدي إلى تغيّر وضع المجتمع وتحسّنه بسبب العمل الجهادي.

فمثلاً المجتمع الجاهلي في زمن رسول الله ﷺ، الذي كان مجتمعاً زاخراً بالذنوب والتقصير، إلاّ أنّه من خلال الجهاد في سبيل الله غفر الله تعالى تلك التبعات السيئة، وتبدّل حاله إلى ما هو أفضل.

ولأجل استيضاح أيّ القولين هو الأصح، لابد أن نشير إلى أمرين مهمين:

---

(١) النجم:٣٢.

(٢) الأنفال:٢٥.

**الأول:** تقدّم أنّ المراد من(المغفرة) هو الستر والتغطية[١]، وذكرنا أنّ بعضهم أضاف لمعناها ما يحصل للإنسان من حالة الوقاية التي من خلالها يتمكّن من دفع الضرر والأذى عن نفسه، واستخدمت بعدئذٍ في غفران الذنوب.

**الثاني:** تقدّم أن المراد من الذنب، هو كل فعل له تبعة سيئة[٢]، وإن كانت هذه التبعة تكوينية،أو هو مأخوذ من الشيء الذي يكون له عقب، ويكون له تبعة سيئة؛ ولذلك يستخدم الذنب حتى فيما إذا كانت هذه التبعات السيئة المترتبة على الفعل غير العقاب الإلهي.

وهناك مجموعة من الآيات تُشير إلى هذا المعنى، كقوله تعالى: **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾**[٣].

فلو كان المقصود من الذنب هنا هو المعصية ومخالفة الأمر الإلهي لكان هذا مخالفاً للواقع؛ لأنّ النبيﷺ معصوم عن ارتكاب مثل هذا الذنب، خصوصاً وأنّ الآية تقول: **﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾**.

أي حتى الذنوب التي سوف تأتي أيضاً تكون مغفورة، ولا شك أنّ هذا النوع من الذنب لا معنى لأن يكون المراد منه المعصية؛ إذ لا معنى لان يُغفر له كل ما يصدر منه من الذنوب ولو في المستقبل، نعم

---

(١) راجع صفحة ٢٣٦.

(٢) راجع صفحة ٢٣٦.

(٣) الفتح:١ ــ ٢.

بالنسبة إلى الماضي هذا ممكن؛ باعتباره مثلاً جاء بفعل حسن فيتجاوز الله سبحانه وتعالى عن سيئاته الماضية، أمّا أن يقول له: إفعل ما تشاء وسوف تُغفر لك ذنوبك، فهذا غير صحيح.

ومن أجل استيضاح الأمر علينا ملاحظة الارتباط بين المغفرة والفتح في قوله تعالى: **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۞ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...﴾** حيث عُلّلت المغفرة بالفتح، وكأن الفتح هو السبب في مغفرة الذنوب.

فلو كان المقصود من مغفرة الذنب هو التجاوز والعفو عن المعاصي التي صدرت منه فلا رابطة حينئذٍ بين مغفرة الذنب بمعنى الإثم وبين الفتح، وإن كان هناك خلاف بين المفسرين[1] حول المراد من الفتح؟ إلاّ أنه يظهر أنّ المقصود منه هو ما حصل من فتح على أثر صلح

---

(١) قال الشيخ الطبرسي في تفسيره: «ثم اختلف في هذا الفتح على وجوه:

**أحدها:** إنّ المراد به فتح مكة، وعده الله ذلك عام الحديبية عند انكفائه منها، عن أنس وقتادة، وجماعة من المفسرين.

**وثانيها:** إنّ المراد بالفتح هنا صلح الحديبية، وكان فتحا بغير قتال.

قال الفراء: الفتح قد يكون صلحا، ومعنى الفتح في اللغة: فتح المنغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدودا متعذّرا حتى فتحه الله.

وقال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أنّ المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم، فتمكّن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، فكثر بهم سواد الإسلام.

**وثالثها:** إنّ المراد بالفتح هنا فتح خيبر، عن مجاهد والعوفي....

**ورابعها:** إن الفتح الظفر على الأعداء كلهم بالحجج والمعجزات الظاهرة، وإعلاء كلمة الإسلام» تفسير مجمع البيان٩: ١٨٢ ــ ١٨٤.

الحديبية الذي أجراه رسول الله صلى الله عليه وآله مع المشركين، إذ كسر المسلمون بعد هذا الصلح الحواجز التي كان يضعها المشركون أمام تحركهم، وأمام الرسالة الإسلامية، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فدخلت أعداد كبيرة جداً من الناس في الإسلام، بحيث إنّ من دخل في الإسلام بعد الصلح كان أكثر ممن دخل قبله؛ ولذلك عبّر عن هذا بالفتح.

فربط مغفرة الذنب بالفتح هنا يتناسب مع المعنى الثاني للمغفرة، فيكون المعنى الكلي للآية أنه من خلال الفتح الذي تحقق لرسول الله صلى الله عليه وآله ستر الله سبحانه وتعالى على ذنوبه، أي على السيئات التي كان ينسبها المشركون له صلى الله عليه وآله، أو على الآثار السلبية التي ترتّبت على تحرّكه صلى الله عليه وآله في المجتمع الجاهلي؛ لأنه نتيجة للقتل والقتال والمعارك التي خاضها صلى الله عليه وآله مع المشركين كانت هناك آثار سلبية انعكست على الناس في ذلك العصر، ففي بدر قتل جماعة، وفي أحد قتل جماعة أخرى، وهكذا في الأحزاب وفي المعارك الأخرى التي حصلت مع المشركين.

فكل هذه الأمور خلقت أوضاعاً سلبية في نفوس الكثير من الناس المتأثّرين بالمشركين، فمن خلال هذا الفتح محا الله سبحانه وتعالى كل تلك الآثار السلبية، وأخذ الناس يدخلون في الإسلام، كما كان لهذا الصلح دور في محو الآثار السلبية المستقبلية أيضاً، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله موقعه الطبيعي، وأصبح مقبولاً ومعترفاً به من قبل ذلك المجتمع بعد أن كان مرفوضاً عند بعضه.

ويمكن أيضاً فهم هذا المعنى للمغفرة مما نُسب إلى موسى عليه السلام في

حادثة قتله للفرعوني ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١].

فعندما نزل عليه السلام إلى المدينة متخفياً، وجد صراعاً وعراكاً بين أحد الإسرائيليين مع أحد الفراعنة، فاستنجد الإسرائيلي به عليه السلام فانتصر له موسى عليه السلام، فوكز الفرعوني ـ باعتباره ظالماً ـ وكزة قوية أدّت إلى موته[٢].

فأصبح موقف موسى عليه السلام حرجاً؛ لأنه يعتبر بموجب قوانين ونظام ذلك المجتمع إنساناً قاتلاً، وأخذ النظام يبحث عن القاتل ولكن بما أنّه كان متستراً تمكّن من النجاة.

ثمّ عاد مرة أخرى إلى المدينة متستراً فوجد نفس الإسرائيلي الذي صادفه في المرة السابقة يتشاجر مع فرعوني آخر فاستنجد مرة أخرى بموسى عليه السلام، إلاّ أنّه عليه السلام عاتبه على دخوله الدائم في العراك مع الآخرين، وعندما همّ بنصرته تصوّر الإسرائيلي أنّ موسى عليه السلام يريد البطش به، فكشف عن شخصية موسى عليه السلام[٣]، مما اضطر موسى عليه السلام

---

(١) القصص:١٦.

(٢) قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ القصص:١٥.

(٣) قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ۞ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ ←

إلى مغادرة مصر.

والذي يهمّنا من هذه القصة هو التعبير الذي ورد على لسان موسى عليه السلام أنّه ظلم نفسه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(١)، فبعد قتله للفرعوني الأول طلب موسى عليه السلام من الله سبحانه وتعالى أن يغفر له ذنبه؛ لأنّه ظلم نفسه بهذا المعنى المتقدّم(٢).

وفي آية أخرى ورد على لسان موسى عليه السلام هذا التعبير، كما في قوله

---

﴿تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ القصص:١٨-١٩.

(١) القصص:١٦.

(٢) نقل القمي في تفسيره عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: ((فلم يزل موسى عليه السلام عند فرعون في أكرم كرامة حتى بلغ مبلغ الرجال، وكان ينكر عليه ما يتكلم به موسى من التوحيد حتى همّ به، فخرج موسى عليه السلام من عنده، ودخل المدينة فإذا رجلان يقتتلان، أحدهما يقول بقول موسى عليه السلام والآخر يقول بقول فرعون ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾ فجاء موسى عليه السلام فوكز صاحب فرعون فقضى عليه، وتوارى في المدينة، فلمّا كان من الغد جاء آخر فتشبّث بذلك الرجل الذي يقول بقول موسى عليه السلام فاستغاث بموسى عليه السلام فلمّا نظر صاحبه إلى موسى عليه السلام قال له: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ فخلى عن صاحبه وهرب، وكان خازن فرعون مؤمنا بموسى قد كتم إيمانه ستمائة سنة، وهو الذي قال الله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، وبلغ فرعون خبر قتل موسى عليه السلام الرجل فطلبه؛ ليقتله، فبعث المؤمن إلى موسى عليه السلام ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۞ فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ كما حكى الله ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾...)) تفسير القمي٢: ١٣٧.

تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[1].

فبعد هجرته عليه السلام إلى مدين، ومخاطبته بالبعثة، ومن ثمّ بالرسالة، طلب الله سبحانه وتعالى منه الذهاب إلى فرعون؛ لدعوته إلى طاعة الله سبحانه وتعالى، فيذكر موسى عليه السلام بأنّه خائف من الذهاب؛ لأنه قد قتل من الفراعنة شخصاً، حيث يُعبّر عليه السلام عن قتله للفرعوني بأنه ذنب وظلم للنفس، ويطلب من الله سبحانه وتعالى غفرانه.

مع أنّ قتل الفرعوني لم يكن ذنباً بمعنى المعصية والتمرّد على أوامر الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ هذا الفرعوني كان إنساناً كافراً، ظالماً، معتدياً، وهذه العناوين تجعل منه شخصاً مستحقاً للقتل.

ومن هنا يمكن أن نفهم أنّ المقصود من الذنب هنا هو ليس ما يتبادر إلى الأذهان لأول وهلة من المعصية والمخالفة لأوامر الله، وإنّما المقصود منه العمل الذي تكون له آثار ونتائج سيئة، مع غض النظر عن كونه معصية لله سبحانه وتعالى أو لا.

فإذن العمل الذي قام به موسى عليه السلام في نفسه كانت له آثار سيئة على وضعه؛ وبعد أن دعا الله سبحانه وتعالى بالمغفرة ـ التي هي هنا محو الآثار السيئة التي ترتّبت على قتله للفرعوني ـ غُفر له، ومُحيت تلك الآثار السيئة[2].

---

(١) الشعراء: ١٤.

(٢) قال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ طه: ٤٠.

ولذلك عندما رجع عليه السلام إلى فرعون، وتحدّث معه في قضية الرسالة والنبوة لم يُرتّب فرعون الأثر على ذلك الفعل، ولم يؤاخذه بقتله للفرعوني، مع علمه بأنّ موسى عليه السلام هو القاتل.

فإذن يتبيّن ممّا تقدّم من الآيات الكريمة أنّ المقصود من المغفرة هو محو الآثار التكوينية السلبية والسيئة التي تترتب على أفعال هؤلاء المجاهدين في الحياة الدّنيا، وليس أثره فقط غفران الذنوب في يوم القيامة.

ويُؤيد هذا المعنى أيضاً ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام الذي يُعبّر عن الجهاد: بأنّه درع الله الحصينة؛ وذلك لما يؤدي إليه ـ الجهاد ـ من وقاية للمجتمع، خصوصا إذا أخذنا المعنى الثاني للمغفرة.

حيث قال عليه السلام: ((**أمّا بعد: فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة...**))[1] أي يكون الجهاد موجباً لنجاة هذا الإنسان، ويكون درعاً له في هذه الحياة الدّنيا من الآثار السيئة التي يمكن أن تترتب على أفعال وتصرفات قد قام بها.

## الأثر الثاني: دخول الجنات

من الآثار المترتبة على الجهاد بالمال والنفس ـ التي يمكن فهمها من خلال القرآن الكريم ـ دخولُ الجنات **﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ**

(١) نهج البلاغة ١: ٦٧.

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

لقد ذكر القرآن الكريم الكثير من صور الجنة ومشاهدها ومعالمها، وما يجد فيها الإنسان من أُنس وراحة واستقرار ودعة، بحيث تُمثّل كل أمنياته، وتُشبع كل رغباته وشهواته، وهذا يمثّل بُعداً من أبعادها.

وهناك بُعد آخر لها، حيث إنها تُمثّل هدف الإنسان في هذه الحياة، وبالتالي تُمثّل الحالة التكاملية له فيها؛ لأنّ الحياة الدّنيا تُمثّل طريقاً ومجالاً ومقدّمة وخطوة أولية للوصول إلى ذلك الهدف السامي، ومن أجل هذا الهدف خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان.

وقد أشارت إلى هذا المعنى عدة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1]، حيث أشارت الآية الكريمة إلى مجموعة من الأمور والمفاهيم المرتبطة بمسيرة الإنسان وحياته، وهي:

**الأمر الأول:** كل إنسان سيتعرّض إلى الموت والفناء ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

**الأمر الثاني:** لا تُمثّل هذه الحياة بالنسبة إلى وجود الإنسان إلاّ متاع الغرور ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

**الأمر الثالث:** إنّ الغاية من وجود الإنسان هي الآخرة ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. فالإنسان يوم القيامة يحصل على الأجر والفائدة من حياته ومسيرته ومعاناته، ودخول الجنة يُمثّل أعلى مراتب

---

(١) آل عمران:١٨٥.

الفائدة ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

وما ورد في قصة آدم عليه السلام، وفلسفة خلقه، وما جرى من المحادثة بخصوصه بين الله سبحانه وتعالى والملائكة، وإيجاده بدايةً في الجنة، وتعرّضه عليه السلام للخروج منها نتيجة مخالفته، كل ذلك دليل على أنّ هذه الجنة التي خُلق فيها آدم ـ بالأصل ـ قد وضعت كهدف لمسيرته ومسيرة الإنسان.

فمسيرة المعاناة والآلام التي يمرّ بها الإنسان تنتهي بالجنة، ولا يمكن الوصول إلى الجنة إلا من خلالها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

فالخلاصة التي يمكن استخلاصها من قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]، أنّ الوصول إلى الحالة التكاملية للإنسان لا يمكن أن يتمّ إلاّ عبر الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.

فلا يمكن للحقّ من مواجهة الباطل إلاّ من خلال هذا المنهج، ولولاه لعمّ الباطل الأرض. وهذا في الواقع يعطينا صورة واضحة عن أهمية الجهاد وموقعه من الدين ككل، ومن حياة الإنسان أيضاً في

---

(١) البقرة: ٢١٤.

(٢) الصف: ١١.

الدّنيا والآخرة.

## الآية الرابعة: النصر والفتح

قال تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

بعد أن ذكرت الآية السابقة أثرين مترتبين على الجهاد في سبيل الله تذكر هذه الآية الكريمة الأثر الثالث، وهو الفتح والنصر الإلهي.

حيث أشارت الآية الكريمة إلى مفهومين، مفهوم النصر ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾، ومفهوم الفتح ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، حيث عُطف الفتح على النصر.

وقد تقدم أنّ معنى النصر في الاستخدام اللغوي والقرآني هو المعاونة والمساعدة[2]، وتقدّم أيضاً أن المعادلة الإلهية في النصر، تعتمد على أركان ثلاثة، هي: الهدف الذي يسعى إليه الإنسان، وما يقدّمه ويبذله الإنسان من جهد في سبيل تحقيق هذه الأهداف، والإمداد الإلهي.

وقد أكّد القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ على هذه المعادلة من خلال بيان الركن الثاني منها. فببركة الإيمان بالله وبذل كل ما يملكه الإنسان من مال ونفس في سبيله؛ يتحقق النصر الإلهي.

وجاء مفهوم النصر في القرآن الكريم بصيغ مختلفة. فأحياناً جاء

---

(١) الصف:١٣.

(٢) راجع صفحة ٢٣٧.

بصيغة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١]، أي أنَّ النصرة من قبل المؤمنين لله سبحانه وتعالى تُوجب نصرة الله سبحانه وتعالى لهم.

وأحياناً بصيغة ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٢]، أي أنَّ النصر من قبل الله سبحانه وتعالى يكون مرهوناً ومشروطاً بنصرة المؤمنين لله تعالى.

وأما الفتح الذي هو نقيض الإغلاق، المقصود منه في قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عدة احتمالات[٣] منها: ما حصل بعد صلح الحديبية[٤] من فتح وفك

---

(١) محمد:٧.

(٢) الحج:٤٠.

(٣) أختلف في المراد من معنى الفتح في هذه الآية الكريمة، حيث قال الشيخ الطبرسي: «النصر من الله لكم على أعدائكم، وفتح قريب لبلادهم، يعني النصر على قريش، وفتح مكة، عن الكلبي. وقيل: يريد فتح فارس والروم، وسائر فتوح الإسلام على العموم، عن عطاء» تفسير مجمع البيان٩: ٤٦٦.

(٤) كانت بنود صلح الحديبية تنص على «أن يرجع رسول الله ﷺ بأصحابه من الحديبية، فإذا كان العام القابل تخرج قريش من مكة فيدخلها رسول الله ﷺ بأصحابه فيقيم بها ثلاثاً، وليس معه من السلاح سوى السيوف في القرب، وأن توضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف فيها بعضهم عن بعض، وأنّه من أحب من العرب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن يكون بين الفريقين عيبة مكفوفة ـــ أي صدور منطوية على ما فيها لا تبدي عداوة ـــ وأنّه لا إسلال ولا إغلال ـــ أي لا سرقة ولا خيانة ـــ وأنّه من أتى محمداً من قريش ممن هو على←

للإغلاق الذي كان حول المسلمين.

فقد كان أحد بنود الصلح، السماح للمسلمين في السنة الثانية بعد الصلح من دخول مكة المكرمة معتمرين. وهذا اعتراف رسمي من قبل المشركين بالوجود الإسلامي كجزء من الوجود السياسي في الجزيرة العربية؛ لأنّ مشركي مكّة كانوا يُمثّلون الجهة الأقوى من بين كل المشركين في الجزيرة، ومن أشدّ الأعداء والمعارضين لرسول الله ﷺ.

فباعترافهم بالوجود الإسلامي استطاع المسلمون من فك الإغلاق المضروب حولهم، والنفوذ إلى مجتمع الجزيرة، ولذلك كان لهذا الفتح ـ الذي هو فك الإغلاق ـ دور عظيم جداً على المستوى السياسي والاجتماعي.

فمن خلاله أصبحت الحالة الروحية والنفسية لبقية الناس مُهيأة أكثر لقبول فكرة الإسلام، وهذا يؤشر إلى أحد أبعاد فلسفة الجهاد والقتال. فالقيود أحياناً تكون قيوداً خارجية، بحيث تكون مفروضة من قبل الطغاة، وأحيانا تكون قيوداً نفسية موجودة في داخل نفس ووجدان الإنسان.

---

⇐دين محمّد بغير إذن وليه رد إليه، ومن أتى قريشاً ممن كان مع محمد فارتد عن الإسلام لا ترده قريش إليه.

فقال المسلمون: سبحان الله! كيف نرد للمشركين من جاءنا منهم مسلماً؟! وعظم عليهم هذا الشرط، فقالوا: يا رسول الله أتكتب هذا على نفسك؟! قال: نعم إنّه من ذهب منا مرتداً أبعده الله، ومن جاءنا مسلماً فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً». النص والاجتهاد:١٧٥، ١٧٦.

فالانتصارات التي حققها رسول الله ﷺ في الصدر الأول للإسلام لم يكن أثرها منحسراً على كسر شوكة المشركين فحسب، بل كان أثرها في تهيئة الوضع النفسي للأمة بشكل عام في تقبّل الرسالة، والاستماع إليها، والأخذ بمفاهيمها، الأمر الذي يُدلل على أنّ وجدان الإنسان وأحاسيسه ومشاعره لها دور وتأثير كبير جداً في جعله قادراً على استيعاب النظرية الإسلامية وأخذها.

وكذا الحال في الجهاد والنصر اللذين يُهيئان مثل هذه الأجواء، حيث نجد في تاريخ الصدر الأول للإسلام أنّ أولئك الذين كانوا يسمعون القرآن الكريم، ويسمعون كلام رسول الله ﷺ، والبراهين التي يُقدّمها لهم من معاجز وغيرها، وكانوا يرفضون الإسلام رغم تمامية الحجة عليهم؛ لأنّهم جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم[1]، نفس هؤلاء النّاس أخذوا بالدخول في دين الله أفواجاً؛ عندما أصبح الإسلام ذا قدرة وقوة من خلال الفتح والنّصر الإلهي.

فهؤلاء لم يدخلوا في الإسلام بالإجبار والقهر، بل كان في داخل أنفسهم ما يحجب بينهم وبين الدخول في الإسلام، وهذا الحاجب والطوق الذي لم يمكن رفعه وكسره إلاّ بالجهاد.

## الجهة الثالثة: استفادات عامة

سيكون البحث في هذه الجهة حول بعض الاستفادات التي يمكن

---

(١) إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ النمل: ١٤.

استخلاصها من المقطع الشريف، وهي:

## الاستفادة الأولى: النظرية الإسلامية في القتال

يُعتبر منهج القتال والجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى من المناهج الأساسية في الإسلام، والذي من خلاله يتمّ كمال الإيمان ووصول الإنسان إلى الأهداف التي يسعى إليها.

وقد أثار بعض المستشرقين في كتاباتهم وبحوثهم شبهة حول الجهاد[1]، ملخصها:

إن الانتشار الذي حصل للإسلام تمّ بواسطة السيف والقوة، ممّا يعني عدم امتلاك الإسلام للبينات والبراهين الكافية على صحة دعوته، ولذلك لجأ إلى استخدام القوة والسيف، وبالتالي يُعتبر هذا نوع من الضعف في النظرية والعقيدة الإسلامية، وفي الأدلة والبراهين التي يتبناها الإسلام.

وطرحت الشبهة بأسلوب آخر، حيث قيل:

هل يعتبر الإسلام القتل والقتال أصلاً لا يمكن له القيام إلاّ على أساسه، أو أنّه حالة استثنائية، وإذا كان كذلك فلماذا كل هذا التأكيد على الجهاد والقتال من قبله، مع أنّ الإنسان بحسب طبعه وميوله النفسية لا يميل إلى مشاهد الحرب وآثارها ونتائجها؟

---

(١) وقد طرحها من بعدهم مَن تأثّر بهم من بعض المسلمين الذين درسوا في مدارس المستشرقين، وكانوا في ظل الخطوط السياسية التي يتبناها المستعمرون في بلادنا، كما طرحها أيضاً بعض الذين لم يعرفوا الإسلام معرفة كاملة منه‌تترق.

فآثارها تكون ـ عادةً ـ آثاراً مدمّرة، ونتائجها إنّما تكون إراقة الدماء وإزهاق الأنفس، وبالتالي فمنهج القتل والقتال والجهاد والحرب تكون نتائجه أشدّ وأكثر فضاعةً وتدميراً وضرراً ممّا لو تُرِك هذا المنهج.

فترك منهج الجهاد وإن كان يُؤدي إلى وقوع بعض الظلم مثلا، أو فوات بعض حقوق الناس لكنّه أقل ضرراً من السيف، وعليه فلا ينبغي للإسلام تبنّي هكذا منهج؟!

في مقام دحض هذه الشبهة لابدّ من معرفة أنّ الصراع في حياة الإنسان وفي تاريخه هل هو حالة استثنائية أو أصيلة؟

**الصراع بين الأصالة والاستثناء**

يبدو من القرآن الكريم أنّ الصراع حالة أصيلة، فمنذ أن وُجِد الإنسان على الأرض بدأت حالة الصراع، وستستمر إلى أن يتكامل الإنسان، ويستطيع إقامة حكومة العدل الإلهي التي يرثها الصالحون وراثةً كاملةً، ويُطبّق فيها العدل تطبيقاً كاملاً على كل الأرض.

وذلك عندما يظهر مهدي أهل البيت عليهم السلام الذي بشّر به كل الأنبياء، ومنهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله[1]، وكما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ**

---

(١) ورد عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: **((قال رسول الله صلى الله عليه وآله المهدي من ولدي، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، أشبه الناس بي خَلقاً وخُلقاً، تكون له غيبة وحيرة حتى تضل الخلق عن أديانهم، فعند ذلك يُقبل كالشهاب الثاقب، فيملأها قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظُلماً وجوراً))** الإمامة والتبصرة لابن بابويه القمي: ١١٩، ١٢٠.

وورد عن عبد الرحمن بن سمرة **((قال: قلت: يا رسول الله، أرشدني إلى**⬅

مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(١).

وهذه هي الحالة الاستثنائية التي تحصل في تاريخ البشرية، والمتمثّلة بالنهاية التامّة لكل حالات الصراع التي مرّت بها البشرية.

وثمة آيات قرآنية تصرّح بتأصّل الصراع، كقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٢)، حيث أشارت الآية الكريمة إلى أنّ الناس ابتداءً كانوا يعيشون أمّة واحدة، ثمّ بدأ الصراع فيما بينهم، فبعث الله سبحانه وتعالى النبيين مبشرين ومنذرين، وذلك من خلال الشريعة والكتاب

---

النجاة. فقال: يا ابن سمرة، إذا اختلفت الأهواء، وتفرقت الآراء، فعليك بعلي بن أبي طالب، فإنّه إمام أمتي، وخليفتي عليهم من بعدي، وهو الفاروق الذي يميز بين الحق والباطل، من سأله أجابه، ومن استرشده أرشده، ومن طلب الحق من عنده وجده، ومن التمس الهدى لديه صادفه، ومن لجأ إليه آمنه، ومن استمسك به نجاه، ومن اقتدى به هداه. يا ابن سمرة، سلم من سلم له ووالاه، وهلك من ردّ عليه وعاداه. يا ابن سمرة، إنّ علياً مني، روحه من روحي، وطينته من طينتي، وهو أخي وأنا أخوه، وهو زوج ابنتي فاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، إنّ منه إمامَيْ أمتي، وسيدَيْ شباب أهل الجنة الحسن والحسين، وتسعة من ولد الحسين، تاسعهم قائم أمتي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً)) أمالي الصدوق: ٧٨.

(١) الأنبياء:١٠٥.

(٢) البقرة:٢١٣.

الذي أنزله الله سبحانه وتعالى.

ثمّ تقول الآية التي بعدها: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾[1]، ومعنى ذلك أنّ مختلف الأقوام كانوا يعيشون هذه الحالة من الصراع، إذ لم تكن مختصّة بقوم معينين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2]، حيث أشارت الآية الأولى إلى وجود هذا الصراع بين الناس، وأنّه مستمر.

ثم جاءت في الآية الثانية حالة الاستثناء التي أشرنا إليها ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، ثمّ قالت: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، أي أنّ الأصل في خلقة الإنسان وجود هذه الحالة من الصراع. وإنّما يمكن أن تمتلئ جهنم فيما إذا كان هناك صراع وخلاف بين الناس، بأن يكون بعضهم إلى جانب الحق، والبعض الآخر ـ الذي تمتلئ به جهنم ـ إلى جانب الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[3]. حيث نجد أنّ الصراع بين بني البشر قد بدأ منذ زمن

---

(١) البقرة: ٢١٤.

(٢) هود: ١١٨ ــ ١١٩.

(٣) المائدة: ٥٢.

آدم عليه السلام، عندما قتل قابيلُ هابيلَ، ممّا يعني أنّ القتال والاختلاف بدأ منذ ذلك التاريخ.

## خلفيات الصراع

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان مختاراً، يقع بشكل طبيعي تحت مُؤثرات النفس البشرية بشكل لا يفقده الاختيار، إلاّ أنّ هذه المُؤثّرات قد تضغط على إرادته واختياره، وتجعله يتجه اتجاها خارجاً عن الصراط الذي وضعه الله سبحانه وتعالى له، وبالتالي يقع في صراع ونزاع مع أخيه الإنسان من خلال التزاحم والتنافس والتعارض بين الإرادات المختلفة للبشر.

وهذا ما يجعل الإنسان يختلف عن الوجودات الغير مختارة، حيث إنها خلقت غير مختارة؛ ولذلك أمكن حصول التنسيق والنظم بين وجودها، بحيث يمنع من حصول الصراع والتصادم فيما بينها.

أمّا الإنسان فقد خُلق مريداً ومختاراً، وبالتالي فإرادته قد تتعارض وتتضارب وتتضاد مع إرادة الإنسان الآخر، وهكذا قد تتعارض إرادة هذه الجماعة مع إرادة تلك الجماعة فيحصل الصراع والنزاع بينهما.

وعادةً تتأثر هذه الإرادات بشكل من الأشكال بالميول النفسية للإنسان، فالإنسان موجود مادي مركّب من قوى غضبية وشهوية غير محدودة والدار الدّنيا التي يعيش فيها محدودة الجهات، لا يستطيع فيها الإنسان استيفاء جميع رغباته منها، فتتحوّل أحيانا هذه الميول والهوى

إلى إله يعبده[1]، فيكون حجم ميوله أكبر من حجم توجهاته.

وكذا الحال مع الإنسان الآخر فميوله أيضاً حجمها أكبر من حجمه وتوجهاته، وبطبيعة الحال سوف تتعارض حينئذ هذه الميول فيما بينها ويحصل الصراع.

ومن هنا جاء التأكيد على ضبط النفس، وعلى جهادها وتربيتها؛ من أجل إبقاء هذه الميول في حدودها المعقولة التي وضعها تعالى له.

وقد وردت بعض الروايات التي تُشير إلى تمكّن هذه الشهوات من بعض الناس بشكل كبير، منها ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله: ((**لو أنّ لابن آدم واديين من ذهب أحب أنّ له وادياً ثالثاً، ولم يملأ فاه إلاّ التراب، والله يتوب على من تاب**))[2].

وهذا تعبير عن حب الإنسان للمال، فمع أنّ هذين الواديين كافيان للإنسان لو أراد إنفاقهما على نفسه وأولاده على مرّ الزمن، ولما احتاج إلى شيء آخر، لكن رغبته النفسية في جمع المال أكبر من

---

(١) وإلى هذا المعنى أشار قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ الجاثية:٢٣، وقوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً**﴾ الفرقان:٤٣، وغيرها من الآيات.

(٢) مسند أحمد٣: ٢٣٦.

وروى الحسن بن علي بن فضال، عن ميسر قال: قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: ((**إنّ فيما نزل به الوحي من السماء: لو أنّ لابن آدم واديين يسيلان ذهباً وفضةً لابتغى إليهما ثالثاً، يا ابن آدم: إنّما بطنك بحر من البحور، وواد من الأودية لا يملأه شيء إلاّ التراب**)) من لا يحضره الفقيه٤: ٤١٨.

وجوده ومن متطلباته الشخصية، وهكذا في حبه لبقية الشهوات، كحبه للنساء وللجاه وللسلطة، ولكل ما أودع الله سبحانه وتعالى في نفسه من شهوات.

إذن، فالصراع قضية قائمة في حياة الإنسان، وثابتة في تاريخه منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى، ولكن هذا لا يعني أنّ الصراع أو الخلاف شيء حسن، فأصل الخلاف مبغوض وهو قضية تفرضها طبيعة وجود الإنسان على هذه الأرض. وهو ليس حكماً شرعياً أو منهجاً تضعه الشريعة أو الكتاب، ولكنّه مع ذلك فهو حسن؛ باعتباره طريقاً للتكامل الإنساني.

ويوجد ـ أمام الصراع الذي يواجهه الإنسان في حياته ـ منهجان:

**الأول:** التسليم، بأن يقال للإنسان إذا واجهك صراع مع الغير فلتكن عندك حالة التسليم، فإذا ضربك أحد على خدّك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، كما يُنسب ذلك إلى المسيح.

وبالتأكيد أنّ هذه النسبة غير صحيحة، بل هي من جملة التحريفات التي وقعت في الإنجيل، ولذلك لم يلتزم بهذا المنهج حتى المسيحيين أنفسهم، والتاريخ شاهد على ذلك. فمنهج التسليم هو ـ في الواقع ـ منهج الخضوع والخنوع والذلّ وترك الفرصة للطغاة للمزيد من التسلّط والظلم والجور.

**الثاني:** منهج المواجهة والدخول في الصراع؛ من أجل تحقيق العدل والحقّ، وإبقاء حالة الارتباط بالله سبحانه وتعالى.

ومن هنا نشير إلى مجمل المبررات والأهداف التي يطلبها الإسلام من القتال والجهاد، والتي تُمثّل خلفية منهج الإسلام ونظرته في قضية

الحرب والجهاد.

### أهداف ومبررات الجهاد

إنّ النظرية القرآنية في الحرب والجهاد تقوم على مبنى ضرورة الدخول في هذا الصراع، وألاّ يُسلّم للطغاة والظالمين، بشرط ألاّ يكون دخوله فيه كدخول الظلمة، لأن منهج الإسلام في الحرب يختلف عن منهج الطغاة والمستكبرين، والاختلاف إنّما هو في الأهداف والمبررات.

وإلاّ فنفس الصراع هو قضية طبيعية في تاريخ البشرية، ولا بدّ أن يُواجه هذا الصراع والقتال بصراع وقتال مثله، قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

ويذكر القرآن الكريم ثلاثة أهداف لتشريع الجهاد ـ سأذكرها بشكل مختصر ـ وفي إزائها توجد أيضاً مبررات ثلاثة تبرر هذا التشريع، وتنسجم مع طبيعة هذه الأهداف. وأمّا الأهداف فهي:

### الهدف الأول: إبقاء العلاقة مع الله

إنّ أحد الأهداف الأساسية التي ذكرها القرآن الكريم للقتال والحرب هي علاقة الإنسان بالله سبحانه وتعالى، فعندما تكون هذه العلاقة مهدّدة من قبل الطغاة والجبابرة والكفّار، بحيث إذا بقي الوضع على ما هو عليه، وبقيت تلك الحكومات الطاغوتية متسلّطة

(١) البقرة: ١٩٤.

على رقاب الناس، ستصبح علاقة الناس والمجتمع بالله سبحانه وتعالى علاقة مهزوزة أو مقطوعة، فمن أجل إبقاء هذه العلاقة لابدّ من جهاد أولئك الطغاة والظلمة.

ويعتبر هذا الهدف من أسمى أهداف الجهاد؛ لأنّ الإنسان بدون هذه العلاقة والارتباط بالله سبحانه وتعالى يصبح تائهاً ضائعاً فقيراً. فالإنسان بطبعه فقير إلى الله سبحانه وتعالى، وكماله إنّما يكون بعلاقته مع خالقه، فبدون هذه العلاقة يصبح وجوده وجوداً تافهاً، بل أتفه من وجود كثير من الموجودات في هذا الكون ـ بحسب رؤيتنا لها ـ كالحشرات الصغيرة والمكروبات التي لا تُدرك إلاّ بالمجهر الدقيق، بل سيتحول وجود الإنسان الفاقد لهذه العلاقة بالله سبحانه وتعالى إلى وجود ضار، يكون ضرره أكبر من ضرر أي جرثومة في هذا الوجود.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في عدّة آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[1]، أي لو لم يكن هناك دفع للناس بعضهم ببعض ـ الذي هو عبارة عن الجهاد ـ لأدّى ذلك إلى تهدّم الأماكن المقدسة التي تُقام فيها شعائرُ الدين، ويُقوى فيها الارتباط والصلة بالله سبحانه وتعالى عن طريق الصلاة والدعاء وغير ذلك، وبالتالي لا يبقى أي ارتباط بالله سبحانه وتعالى.

---

(١) الحج: ٤٠.

ومنها ما ورد في الحثّ على الجهاد، كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[1].

ومنها ما يوجد فيها تصريح أوضح، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

والفتنة هنا عبارة عمّا يمارس من ضغط على الإنسان لينحرف عن الدين، ويبتعد عنه، وهذا أكبر من القتل.

ومنها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[2].

**الهدف الثاني: نصرة المستضعفين**

إذا حكم الطغاة مجتمعاً مع رفض أبنائه لهم، وأراد أبناء ذلك المجتمع الالتحاق بركب الإسلام، والسير في الطريق المستقيم، ومنعهم الطغاة من ذلك، وشكّلوا حاجزاً وحاجباً بينهم وبين هذا الالتحاق، يأتي هنا دور الجهاد؛ لكسر هذا الحاجز، وتحطيم هذه القوة التي تمنع

---

(١) البقرة:١٩٣.

(٢) الحج:٤١.

هؤلاء الناس من الالتحاق بركب الإسلام، وتحقيق حرية إرادتهم؛ حتى يتمكّنوا من ممارسة وجودهم على الأرض بشكل طبيعي.

لأنّ أحد المميزات الأساسيّة لشخصية الإنسان في الأرض هو الاختيار والإرادة، فمع وجود الظلم لا يمكن له التصرّف بإرادته، بل وجوده قد يؤدي أيضاً إلى تعطيل العنصر الأساسي الثاني في شخصيته، وهو العلم والمعرفة، فمن خلال الإرهاب الفكري والظلم الذي يمارسه الظالمون تصبح قدرة الإنسان على التفكير والوصول إلى الحقائق ضعيفة أو مفقودة.

وهذا ما أشارت إليه مجموعة[1] من الآيات الكريمة، حيث تذكر حديث المستضعفين عن تبعيتهم للمستكبرين ولسادتهم، وعن كيفية احتجاجهم يوم القيامة على الله سبحانه وتعالى بأنّ ما حصل لهم من انحراف وتمرّد وكفر إنّما كان بتأثير من هؤلاء المستكبرين الذين كانوا يحكمون المجتمع.

ولكن الله سبحانه وتعالى لا يقبل منهم هذا العذر؛ باعتبار أنّ الإنسان ـ على كل حال ـ هو مالك لإرادته ولقدرته على الوصول

---

(١) منها: قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف:٣٨، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ البقرة:١٦٦، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ البقرة:١٦٧، وغيرها من الآيات.

للمعرفة، غاية الأمر أنّ هذه الإرادة والقدرة على المعرفة تقع تحت تأثير الضغوط والظلم، ومن هنا كان أحد أهداف الجهاد هو مقاومة الظلم، وكسر القيود التي قُيّد بها المستضعفون.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة تُشير إلى هذا الهدف، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً﴾[1].

فالقرآن الكريم يُعبّر عن حالة هؤلاء الناس بأنّهم كانوا يضجون إلى الله سبحانه وتعالى في تخليصهم من هؤلاء الطغاة، فهم يرفضونهم ولا ينسجمون معهم، كما أنّهم مؤمنون بالله سبحانه وتعالى ومرتبطون بالدين، إلاّ أنّ الطغاة يمنعونهم من التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم، وعن تجسيد هذا الإيمان تجسيداً عملياً خارجياً، فهنا يأتي الهدف الثاني، وهو كسر هذه القيود، ونصرة هؤلاء المستضعفين.

وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[2].

---

(١) النساء: ٧٥.

(٢) الحج: ٣٩ ــ ٤٠.

فباعتبار ما تعرّض له هؤلاء المؤمنون من ظلم وطغيان شرّع الله سبحانه وتعالى لهم الجهاد؛ لتحقيق هدفهم، وهو كسر القيود.

ويذكر المفسرون أنّ المقصود من ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ...﴾ ليس فقط أولئك الذين أُخرجوا بالقوة، وإنّما تشمل حتى الذين يُواجهون ألواناً مختلفة من الضغوط والعذاب ومحاولات الفتنة والإبعاد عن الله سبحانه وتعالى، ممّا يضطرّهم إلى الهجرة، كما حصل للمسلمين في الصدر الأول، حيث هاجر عدد كبير منهم إلى بلاد الحبشة، وكما حصل أيضاً لهجرة النبيﷺ إلى المدينة، حيث كانت حياته في مكّة مهددة بالقتل، وقد هاجر بعده عدد كبير من المسلمين لما واجهوه من قمع وضغوط وظلم[1].

**الهدف الثالث: إقامة العدل الإلهي**

يعتبر تطبيق الأحكام الشرعية والقوانين الإلهية التي مؤداها تحقيق العدل بين الناس، وإيجاد العلاقات المتوازنة المنسجمة مع العدل والقسط، من الأهداف الأساسية للجهاد، والمهمة في حياة الإنسان.

ولا ينحصر تحقيق العدل في كونه قضية أخلاقية حتى يقال لا

(١) ويُعتبر الهدف الثاني من الأهداف الواضحة التي نعيشها نحن ــ المسلمين العراقيين ــ حيث هاجر عدد كبير منّا؛ لما كانوا يواجهونه من ظلم وقتل وقمع ومحاولات للفتنة والإبعاد عن الله تعالى، فكما هاجر المسلمون في الصدر الأول للأسباب المتقدّمة كذلك هاجر العراقيون أيضاً ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾ فلا إشكال في أن يقاتلوا وجاهدوا؛ وذلك من أجل الإطاحة بالطاغوت، والتخلّص من ظلمه. منه‌ﷺ.

تستحق الكثير من إراقة الدماء، وإزهاق الأنفس، وتدمير البلاد، وإنْ كانت شيئاً حسناً وأنّ الإنسان يميل إليها، فإنّ الله سبحانه وتعالى يُعوّض الذين يتعرّضون للظلم في الدار الآخرة، ومع وجود التعويض الإلهي يكون الصبر على الظلم هنا أولى من غيره. وعليه فتشريع القتال في سبيل الله المؤدي إلى إراقة الدماء وتدمير البلاد قد لا يكون متناسبا مع هدف إقامة العدل الإلهي.

إنّ هذا الطرح محاولة تشويه منشؤها بعض الذين ينتسبون إلى الدين، وقد استغلها الماديون كالماركسيين والشيوعيين، حيث افترضوا أنّ ما أشار إليه القرآن الكريم والسنّة النبوية من تعويض المظلوم في الدار الآخرة هو نوع من التخدير للإنسان، ممّا يجعله غير قادر على التحرّك في وجه الظالم، وإنّ تحفّظ القرآن الكريم على إراقة الدماء وإزهاق الأنفس ﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾[1]، يؤدي أيضاً إلى تخدير الإنسان!

إنّ إقامة العدل من وجهة نظر القرآن الكريم ليست قضية أخلاقية فحسب، إذ لو كانت كذلك لكان من الممكن عندئذٍ تجاوزها، وتحمّل الظلم، وانتظار التعويض الأخروي، ولاكتفى الإنسان به.

لكنّ إقامة العدل ـ بحسب المفهوم القرآني ـ يُؤدي إلى تغيير وجه الحياة الإنسانية، وجعلها قابلة للسير في طريق التكامل، فكل من العدل الإلهي وإقامة الحكم الإلهي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والالتزام بالحدود الإلهية، له تأثير على طبيعة ما يجري في هذه الدنيا،

---

(١) البقرة:١٩٥.

وله تأثير على مجمل السنن والقوانين التي تحكم هذا الكون.

وهناك مجموعة من الآيات القرآنية تؤكد العلاقة والارتباط بين إقامة العدل الإلهي وإيجاد التوازن في العلاقات الاجتماعية وتحقيق الحكم الشرعي والالتزام بالتقوى، وبين السنن الكونية التي تتحكّم بهذا الكون والحياة، فتحقيق العدل يُؤدي إلى تغيّر وجه الحياة الطبيعية للإنسان، باتجاه الخير والصلاح.

فمن هذه الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]، حيث تُشير الآية إلى وجود العلاقة بين الإيمان بالله سبحانه وتعالى والالتزام بمنهج التقوى، وبين وجود الخيرات والبركات على وجه هذه الأرض. وتشير أيضاً إلى تغيّر وجه الحياة باتجاه الخير، بحيث يصبح الإنسان قادراً على السير نحو الكمال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[2]، حيث تُشير الآيتان ـ اللتان هما في مقام الحديث عن أهل الكتاب ـ إلى وجود علاقة بين تطبيق التوراة والإنجيل وأحكامهما وبين انتشار وظهور الخير في الدنيا ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

---

(١) الأعراف:٩٦.

(٢) المائدة:٦٥ ـــ ٦٦.

وهذا ما قاله سلمان الفارسي رضي الله عنه أيضاً عندما قيّم خلافة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث قال: ((**أما والله لو وليتموها ـ أي الخلافة ـ علياً لأكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم...**))(١).

وأما إذا انعكست العلاقة، أي إذا كان هناك ظلم، ظهر الفساد والدمار في الكون نتيجة لها، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾(٢)، أي أنّ الفساد الذي يظهر في الحياة كلها وتتأثر به الطبيعة ـ سواء في اليابسة أم في الماء ـ يكون نتيجة حتمية لطبيعة العلاقات الموجودة بين الناس، وهي علاقات ظلم ومنكر.

إذن، إقامة العدل الإلهي هو أحد أهداف الجهاد بما يُمثّله من جانب أخلاقي وبما له من تأثير على الحياة الطبيعية للإنسان، حيث أن تطبيقه يجعل الحياة مستقرة، وعدم تطبيقه يجعلها مضطربة.

وتوجد في القرآن الكريم آيات عديدة تؤكّد على أنّ هدف إقامة العدل الإلهي هو أحد أهداف الجهاد، منها:

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ**

---

(١) بحار الأنوار ٢٢: ٣٨٧.

(٢) الروم: ٤١.

(٣) الحج: ٤١.

لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

فبعد أن تحدثت الآية الأولى عن الجهاد جاءت الآية الثانية وبيّنت طبيعة هؤلاء المجاهدين، ثمّ ذكرت النتيجة التي تترتب على ذلك الدور الذي يقوم به الإنسان عندما يبيع نفسه إلى الله سبحانه وتعالى.

وبما أنّ إقامة العدل الإلهي أحد أهداف الجهاد فكان من الواجب أخلاقياً على المتصدي للجهاد الالتفات إلى هذا الهدف، ووضعه نصب عينيه، فيجب أن يعرف أنّ قتاله ليس دفاعاً عن أرضه أو ماله أو وطنه أو نفسه فحسب ـ وإن كان الدفاع عن هذه الأمور من المبررات للقتال، لكنّه يدخل في باب الدفاع لا الجهاد[2] ـ وإنّما من أجل إقامة حكم الله سبحانه وتعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن قتاله هو دفاع عن حياة الإنسان وتكامله.

ولعلّ المقصود من قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ

---

(١) التوبة: ١١١ ـ ١١٢.

(٢) حيث يوجد في الفقه بحث يُسمّى بالدفاع عن النفس الذي له شروطه المعينة التي تختلف عن شروط الجهاد. منه‌دام ظله.

لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢]، هو أنّ الجهاد هو الذي يحقق الخير الذي هو إمّا خصوص ما يترتب من الأمور الأخروية من ثواب ودخول الجنان ـ وهو أمر محتمل ـ أو الأعم من ذلك، أي ما يشمُل الأمور الأخروية والدنيوية أيضاً، وهو أقوى من الأول؛ وذلك بقرينة الآيات التي تحدّثت عن إقامة العدل الإلهي.

وأما مبررات الجهاد، فهي:

**المبرر الأول**: ما يكون بإزاء الهدف الأول الذي هو إبقاء العلاقة وترسيخها مع الله سبحانه وتعالى، حيث يصبح من الطبيعي حينئذٍ أن يكون أحد مبررات الجهاد تعرّض الإنسان إلى الفتنة، ومحاولات الإبعاد وقطع الرابطة والعلاقة التي بينه وبين الله سبحانه وتعالى، فعندما يتعرّض المجتمع إلى هذا اللون من المحاولات يصبح الجهاد في حقه شيئاً طبيعياً[٣].

**المبرر الثاني**: ما يكون بإزاء الهدف الثاني الذي هو كسر القيود عن المستضعفين وتحرير إرادتهم، فعندما يمارس الظلم ضد مجتمع من المجتمعات فانّه يُقيّد أهل ذلك المجتمع، ويجعلهم غير قادرين على

---

(١) البقرة:٢١٦.

(٢) الصف:١١.

(٣) وهذا ما تتعرّض له الآن الكثير من مجتمعاتنا الإسلامية، حيث تُمارس هذه المحاولات في حقها من قبل أكثر الأنظمة الحاكمة في بلاد المسلمين، هذه الأنظمة التي تحاول فتنة المسلمين، وإبعادهم عن الله سبحانه وتعالى. منه.

ممارسة إرادتهم بشكل طبيعي.

ففي هذه الحالة يكون الجهاد هو الطريق الطبيعي لمواجهة مثل هذا الظلم؛ من أجل يمارس الإنسان حريته بشكل كامل، وبالتالي يتمكّن من خلال بيان الأحكام الشرعية والمفاهيم القرآنية، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من ممارسة وجوده بشكل طبيعي.

**المبرر الثالث:** ما يكون بإزاء الهدف الثالث الذي هو إقامة العدل الإلهي، فإذا خالف المجتمعُ الأحكامَ الشرعية، وأشاعَ المنكر، ونهى عن المعروف، وتمرّد على الله سبحانه وتعالى وعلى طاعة رسوله كان هذا أيضاً أحد مبررات الجهاد.

وقد أشار القرآن الكريم في سورة الأنفال إلى ذلك، حيث ذكر فيها أحد التبريرات والتعليلات لفرض الجهاد على المسلمين، قال تعالى: **﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾**[1]، فقد جاءت الآية الثانية في مقام التعليل للجهاد، ولشن الحرب ضد الكفّار؛ وذلك لأنهم تمرّدوا على الله سبحانه وتعالى، وشاقوه.

### شروط الجهاد

من المعلوم أنّ الجهاد في سبيل الله لم يُفرض على المسلمين منذ

---

(١) الأنفال:١٢ ــ ١٣.

الأيام الأولى للدعوة الإسلامية، وإنّما فُرض عليهم في المرحلة المدنيّة من حياة رسول الله ﷺ، أي بعد الهجرة.

وبالتالي قد يُثار هنا سؤال حول الشروط الأساسيّة للجهاد التي وُضِعت من قبل الإسلام، لأنّه إذا كان من أجل إقامة العلاقة مع الله سبحانه وتعالى، وكسر قيود الظالمين، وتحرير إرادة الإنسان، وإقامة العدل الإلهي، فكل هذه المبررات والأهداف كانت قائمة في الفترة المكية ولكن مع ذلك لم يُفرض الجهاد، فلابدّ إذن من وجود شروط معينة يفترض توفرها حتى يُفرض الجهاد؟

ومن هنا سنشير بشكل إجمالي إلى بعض هذه الشروط، وهي:

**الشرط الأول: وجود القاعدة**

يعتبر وجود القاعدة من الشروط التي ترتكز عليها العملية الجهادية، إذ لابدّ من وجود عدد من المؤمنين أو المسلمين للقيام بدور الجهاد، ولابدّ من كون هذا العدد قادراً على ممارسة العمل الجهادي.

فالجهاد إنّما يكون واجباً مع القدرة عليه؛ إذ كل حكم من الأحكام الشرعية مشروط بالقدرة ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾[1]. وهذا يفسر لنا عدم تشريع وجوب الجهاد في الفترة المكية؛ إذ إنّ عدد المسلمين الموجودين آنذاك لم يكن قادراً على ممارسة هذا اللون من العمل الجهادي، ولو قاموا به لكان من الممكن استئصالهم بالكامل، ولما بقي منهم أحد.

---

(١) البقرة:٢٨٦.

ولعله لهذا الشرط أشار قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

فالقران الكريم في الآية الكريمة يذكر موقف أهل الكتاب من اليهود ـ الذين كانوا مجاورين للمسلمين ـ حيث كانوا يرغبون في ارتداد المسلمين عن دينهم؛ لحسدهم لهم على هذا الدين الجديد، وعلى النبي العظيم. فلو أراد المسلمون الدخول معهم في صراع في نفس الوقت الذي كانوا فيه يواجهون المشركين لكان من الممكن أنْ يُقضى عليهم في ذلك الوقت؛ ولذلك قال القرآن الكريم: ﴿فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ﴾.

ومن الواضح أنّه لا معنى للعفو والصفح الحقيقي، بل المقصود هنا السكوت عنهم في هذه المرحلة، أي في مقام العمل يجب هنا الانتظار والسكوت مؤقتاً؛ حتى يأتي الله بأمره، ومن الممكن أنْ تُفسَّر هذه الفقرة ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ﴾، أي حتى تتغيّر تلك الأوضاع والعلاقات الاجتماعية، ويصبح المسلمون ذوي قدرة على الدخول في هذه المواجهة، ويكون المقصود من الأمر هنا هو الأمر التكويني.

وعلى أي حالٍ سواء أُريد ذاك المعنى أم هذا، المهم أنّ القضية هنا قد وقّتت بتوقيت، وهو تهيؤ الظروف والفرصة المناسبة للجهاد، أو إتيان ذلك الأمر الإلهي المنسجم مع تلك الظروف ومع تلك الفرصة.

---

(١) البقرة:١٠٩.

فإذن الأمر بالجهاد ـ إذا وُجِد ـ إنّما يكون ثابتاً على الجماعة أو الفرد فيما لو كان هناك قدرة عليه؛ ولذلك يُعتبر هذا التكليف من الواجبات الكفائية، بمعنى إذا قامت به مجموعة من الناس وحققوا الهدف حينئذ يسقط عن الآخرين.

**الشرط الثاني: إقامة الحجة**

يُعبّر هذا الشرط المهم عن أحد أبعاد محتوى العملية الجهادية ونظرية الإسلام تجاه قضية الجهاد، فإنّ إقامة الحجة على أعداء الله ـ كما هو واضح من منهج القرآن وسيرة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ـ من أهداف الجهاد، وهذا يفسّر لنا أيضاً عدم تشريع الجهاد في الفترة المكية.

صحيح أنّ الجهاد من أصول الإسلام، وغايته واضحة، إلاّ أنّ ممارسته يحتاج إلى مقدّمة لابدّ من اجتيازها، وهي إقامة الحجة على من يُراد جهادهم. ولذلك عندما أراد موسى عليه السلام الوقوف من فرعون موقف الرفض والمواجهة أقام أولاً عليه الحجة، حيث ذهب هو وأخوه إليه ليدعوانه إلى الإقرار بالله تعالى[1].

وهكذا النبي صلى الله عليه وآله أيضاً في الفترة المكيّة، أقام الحجة أولاً على أعداء الله؛ حتى يستجيب منهم من يستجيب، ويتمرّد من يتمرد. فلأجل أن يتبيّن الصالح من الطالح والمؤمن من غيره لابدّ من إقامة الحجة، كما أنّ الله سبحانه وتعالى لا يعذّب جماعةً من الناس حتى

---

(١) قال تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۞ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ طه:٤٢ ــ ٤٤.

يُقيم عليهم الحجة، ويُرسل إليهم الرسل.

وقد ورد التأكيد على شرط إقامة الحجة حتى في أثناء المواجهة والمعركة، ففي هذا الظرف الصعب لابدّ أيضاً من الدعوة إلى الإسلام من أجل سدّ كل المنافذ على المشركين والكافرين والبغاة حسب اختلاف نوع الأشخاص أو الجماعات التي يُجاهدها المسلمون.

فمثلا في تاريخ الإسلام نجد ذلك الموقف الذي وقفه الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام من الخوارج، فبالرغم من تمرّدهم على الحكم الإسلامي وقتلهم لبعض المسلمين، لكن مع ذلك لم يدخل معهم في معركة حتى أقام عليهم الحجة، وكذلك في معركة الجمل، فقد روي أنّه ((ندب الإمام أصحابه لرفع كتاب الله العظيم، ودعوة القوم إلى العمل بما فيه، وأخبرهم أنّ من يقوم بهذه المهمة فهو مقتول، فلم يستجب له أحد سوى فتى نبيل من أهل الكوفة، فانبرى إلى الإمام، وقال: أنا له يا أمير المؤمنين. فأشاح[1] الإمام بوجهه عنه، وطاف في أصحابه ينتدبهم لهذه المهمة فلم يستجب له أحد سوى ذلك الفتى، فناوله الإمام المصحف، فانطلق الفتى مزهواً لم يختلج في قلبه خوف ولا رعب، وهو يلّوح بالكتاب أمام عسكر عائشة، قد رفع صوته بالدعوة إلى العمل بما فيه، ولكنّ القوم قد دفعتهم الأنانية إلى الفتك به فقطعوا يمينه، فأخذ المصحف بيساره وهو يناديهم بالدعوة إلى العمل بما فيه، فاعتدوا عليه وقطعوا يساره، فاخذ المصحف بأسنانه وقد نزف

---

(١) أشاح بوجهه: أي أعرض، ويقال: إنّ اشتقاقه من قولهم أشاح الفرس بذنبه إذا أرخاه. معجم مقاييس اللغة٣: ٢٣٤.

دمه، وراح يدعوهم إلى السلم وحقن الدماء قائلا: الله في دمائنا ودمائكم. وانثالوا[١] عليه يرشقونه بنبالهم، فوقع على الأرض جثة هامدة))[٢]، ثمّ بعد ذلك دخل أمير المؤمنين عليه السلام في معركة معهم بعد ان التحق أكثر من نصفهم بجيش أمير المؤمنين عليه السلام، وآمنوا به قبيل الصدام والدخول في المعركة؛ وذلك نتيجةً لإقامة الحجة عليهم.

وتوجد مجموعة من الآيات الكريمة تؤكد هذا الأمر، كقوله تعالى: **﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**[٣]، فالآية الكريمة بعد أن وصفت مواقع المسلمين والمشركين في بدر جاء التأكيد فيها على إقامة الحجة **﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾**.

وقوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**[٤]، فهذه الآية من جملة الموارد التي أشير فيها إلى مسألة إقامة الحجة، وضرورة بيان الحقيقة بشكل واضح.

---

(١) انثالوا عليه: أي اجتمعوا عليه، وانصبوا من كل وجه. راجع لسان العرب لابن منظور ١١: ٩٥.

(٢) حياة الإمام الحسين ٢: ٤١، ٤٢.

(٣) الأنفال: ٤٢.

(٤) التوبة: ١١٥.

وقوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[١]، حيث ورد في تفسيرها الإشارة إلى توضيح الحقيقة لأعداء الإسلام من قبل الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فممارسة العملية الجهادية تجاههم ليس معناه أنها محاولة لإكراههم؛ لأنَّ الحقيقة قد أصبحت واضحة ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

فالجهاد ليس محاولة إكراه وإجبار للناس ليكونوا مؤمنين؛ إذ لو كان الأمر كذلك لاستطاع الله سبحانه وتعالى إكراههم من خلال إرادته التي تحكم كل إرادة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

وفي القرآن الكريم ما يُشير أيضاً إلى أنَّ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يُنزّل عليهم آية، ويجعل أعناقهم خاضعة لها، قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[٣].

إذن، القضية ليست قضية إكراه، وإنّما هي إقامة الحجة التي بعد قيامها وعدم الإيمان بها من قبل المشركين استكباراً تبدأ العملية الجهادية[٤]، وقد أشار القرآن الكريم لهذا المعنى بقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[٥]. فنفوس المشركين مطلّعة على الحقيقة، وعلى يقين منها، لكنّهم

---

(١) البقرة:٢٥٦.

(٢) التكوير:٢٩.

(٣) الشعراء:٤.

(٤) وهذا ما حصل أيضاً بالنسبة إلى (منافقي خلق) في هذا العصر، فهم شأنهم شأن البغاة، حيث لم تجاهدهم الثورة الإسلامية إلاّ بعد أن أقامت عليهم الحجة.منه‌قدس‌سره.

(٥) النمل:١٤.

يجحدونها، وعلاج الجحود إنّما يكون عن طريق الجهاد، وشنّ الحرب على هؤلاء المعاندين.

وقد ورد في الأحاديث الشريفة أيضاً ما يُشير إلى شرط إقامة الحجة، فقد ورد عن محمد بن يعقوب الكليني عن أبي عبد الله عليه السلام **((قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن، وقال لي: يا علي لا تقاتلن أحدا حتى تدعوه، وأيم الله لئن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي))**[1]، فلعلّ هذا الفرد عن طريق الدعوة يتحوّل إلى إنسان موال للإسلام، ومرتبط به، وبالتالي تزداد قوة الإسلام.

والنتيجة، أن مضمون العملية الجهادية ليس فقط فرض الهيمنة والسيطرة على الأرض أو على الناس، بلّ محتواها هداية الناس، وكسر القيود عنهم؛ حتى يتمكنوا من الارتباط بالله سبحانه وتعالى، ويتمكّنوا من إقامة الحقّ والعدل باندفاعهم الذاتي، وبارتباطهم بالحقّ والعدل وجداناً.

وهذا هو الفرق الأساسي بين الجهاد في الإسلام والقتال عند المستعمرين والمستكبرين، فهؤلاء يستخدمونه كأداةٍ للهيمنة والسيطرة على الآخرين بأي ثمنٍ كان، أمّا الإسلام فكلُ همّه هداية الإنسان نحو طريق الخير؛ ولذلك تُبذل كل الوسائل من أجل إقامة الحجة، وعندما تنقطع الحجة عندئذ يُلجأ إلى العملية الجهادية، وبدون هذا لا يصح الجهاد (الابتدائي) وسيأتي معناه.

---

(١) الكافي٥: ٢٨.

**الشرط الثالث: السلامة والقدرة**

تعتبر السلامة والقدرة بالنسبة إلى كل شخص شرطاً من شروط الجهاد، وقد ورد في القرآن الكريم ما يؤكّد استثناء الأعمى والأعرج والضعيف والمريض من وجوب الجهاد، ولكن يبقى السؤال متى يُستثنى هؤلاء من الجهاد؟

لقد قسّم الفقهاءُ الجهاد إلى قسمين، هما:

**أ ـ الجهاد الدفاعي**

إذا كان المسلمون في مجتمع إسلامي، ويحكمهم الحكم الإسلامي، ومُورس ضدهم عدوان يُراد منه فرض عقيدة غير عقيدتهم الإسلامية، أو نظام غير النظام الإسلامي، وبالتالي يُؤدي هذا العدوان إلى فتنة المسلمين وانحرافهم، أو يُراد من وراء هذا العدوان الاعتداء على أموالهم أو أنفسهم أو أعراضهم أو غيرها، ففي هكذا موقف لابدّ للمسلمين من الدفاع عن أنفسهم وعن عقيدتهم وشرفهم وكرامتهم، وهذا ما يُسمّى بالجهاد الدفاعي، حيث يقف المسلم فيه موقف الدفاع عن نفسه.

ويذكر الفقهاء[1] أنّ هذا النوع من الجهاد يكون وجوبه شاملاً لكل المسلمين بالمعنى الكفائي، أي إذا قام به جماعة من المسلمين سقط عن الآخرين، والوجوب هنا يكون ثابتاً على المسلمين جميعاً بمن فيهم الأعمى والأعرج والمريض بل حتى المرأة، هذا كله فضلاً عن

---

(١) كالقاضي ابن البراج في المهذب١: ٢٩٣، والشهيد الثاني في شرح اللمعة٢: ٣٨٣.

الشخص السالم.

فيجب على هؤلاء جميعاً الدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم الإسلامية وكرامتهم وشرفهم وأموالهم وأعراضهم فيما لو تعرّضت للخطر والعدوان، وكذا الحال فيما لو كان المسلمون يعيشون في مجتمع غير إسلامي، فيجب عليهم أيضاً الدفاع عن أنفسهم، ومواجهة مثل هذا العدوان.

**ب ـ الجهاد الابتدائي**

يسمّى هذا القسم أيضاً بجهاد (الفتح) ومعناه تصدي المسلمين إلى دعوة الكافرين الموجودين في البلاد الأخرى ـ غير بلاد المسلمين ـ إلى الإسلام، وذلك بعد أن امتنع هؤلاء الكفّار عن إجابة هذه الدعوة، مع عدم وجود طريق آخر لكسر تلك القيود التي يفرضها الطغاة والجبابرة والمستكبرون على المجتمع من خلال سلطانهم ووجودهم، حيث يمنعون المستضعفين من الاستجابة للدعوة الإسلامية.

ففي مثل هذه الحالة أيضاً يُشرع الجهاد؛ لكسر تلك القيود، وتحكيم حكم الله سبحانه وتعالى، وإقامة العدل، وغير ذلك من الأهداف التي أشرنا أليها سابقا. فجهاد المسلمين هنا لا لكونهم في خطر من ناحية عقيدتهم، أو من ناحية شرفهم وكرامتهم أو غير ذلك، بل جهادهم لكونهم يريدون نشر الرسالة الإسلامية، ونشر أحكام الله سبحانه وتعالى، وإقامة العدل في كل أنحاء الأرض.

وبالتالي فتحرّك المسلمين هنا؛ من أجل فتح البلاد الأخرى على المفاهيم والقيم الإسلامية المتقدّمة ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ

**أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾**[1]. وليس المراد من الفتح هنا الهيمنة والسيطرة والمزيد من الاستغلال للشعوب الأخرى، كما يصنع المستعمرون.

ووجوب هذا النوع من الجهاد ـ الجهاد الابتدائي ـ إنّما يكون في حقّ الأصحاء لا غير، فلا يجب على المرضى والمعلولين كالأعمى والأعرج، قال تعالى: **﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ...﴾**[2].

وكذا الحال في من لا قدرة مالية لديه في تغطية نفقاته، حيث كان المسلمون سابقاً هم الذين يقومون بتغطية نفقات تحركهم وجهادهم، فكان كل واحد منهم هو الذي يقوم بتهيئة راحلته وسلاحه وعدّة حربه، ومَن لم تكن لديه هذه الإمكانات سقط عنه وجوب الجهاد حينئذٍ.

وكذا لابدّ في الوجوب من توفّر العدد الكافي للقيام بالمهمة الجهادية، وقد حُدّد هذا العدد من قبل القرآن الكريم، حيث جاء في سورة الأنفال قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۞ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن**

---

(١) الحج: ٤١.

(٢) الفتح: ١٧.

**مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**(١)، فقد فسّر قوله تعالى هنا في الجهاد الابتدائي - جهاد الفتح - أمّا في حالة الدفاع فإذا كان الإنسان قادراً على الدفاع فيجب عليه ذلك، مهما كان عدد المشركين أو الكافرين.

فيتضح ممّا تقدّم أنّ الجهاد الدفاعي لا يُشترط فيه أكثر من الشرطين الأولين، وهما: وجود القاعدة القادرة على الجهاد، وإقامة الحجة بأي شكل من الأشكال، أمّا بالنسبة إلى الجهاد الإبتدائي فيُشترط فيه مضافاً الشرطين الأولين شرط ثالث، وهو السلامة والقدرة.

**صور قرآنية**

وقد حاول بعض المسلمين استغلال هذه الأعذار تقاعساً منه عن الجهاد. وفي القرآن الكريم ما هو شاهد على هذا، قال تعالى: **﴿وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**(٢)، فقد نزلت هذه الآية في معركة تبوك(٣)، فجاء المعذّرون(٤)، وهم المستثنون من الجهاد كالأعمى

---

(١) الأنفال: ٦٥ ــ ٦٦.

(٢) التوبة: ٩٠.

(٣) تبوك: وهي واحة في شمال الحجاز على طريق الحج من دمشق إلى المدينة، اشتهرت بالغزوة العظيمة التي قام بها النبي ﷺ لغزو من انتهى إليه أنّه قد تجمّع من الروم وعاملة ولخم وجذام ضده سنة ٩ هـ.

(٤) قال السيد الطباطبائي في تفسيرها: «الظاهر أنّ المراد بالمعذّرين هم أهل العذر كالذي لا يجد نفقة ولا سلاحاً بدليل قوله: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ﴾ الآية، والسياق ←

والأعرج والضعيف والمريض؛ من أجل أن يُؤذن لهم بالجهاد والقتال في سبيل الله في حين إنّ بعض أولئك الذين لديهم القدرة والتمكّن قعدوا وامتنعوا عن الذهاب إلى الجهاد.

وينقل القرآن الكريم عن بعض المسلمين تفانيهم في قضية الجهاد صورة رائعة عكس الصورة الأولى، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[1]، فقد كان بعض المسلمين في حالة من الفقر الشديد، لدرجة أنّه لم يكن لديه ما يركبه، في وقت لم يكن فيه وضع الدولة الإسلامية من الناحية الاقتصادية جيداً حتى تتمكّن من تهيئة عدّة الحرب من السلاح والراحلة وغيرهما لكل المجاهدين، والمسافة بين المدينة المنوّرة وبين منطقة المعركة (معركة تبوك) كانت مئات الكيلومترات، وبالتالي فالسير على الأقدام لم يكن ممكناً بالنسبة إلى هؤلاء المقاتلين.

فجاء بعض هؤلاء المسلمين إلى النبي ﷺ، وطلب منه أن يُهيئ له

---

➜يدلّ على أنّ في الكلام قياساً لإحدى الطائفتين إلى الأخرى؛ ليظهر به لؤم المنافقين وخستهم وفساد قلوبهم وشقاء نفوسهم، حيث إنّ فريضة الجهاد الدينية والنصرة لله ورسوله هيّج لذلك المعذّرين من الأعراب وجاءوا إلى النبي ﷺ يستأذنونه، ولم يؤثر في هؤلاء الكاذبين شيئاً». تفسير الميزان٩: ٣٦١، ٣٦٢.

(١) التوبة:٩١ ــ ٩٢.

الراحلة التي تحمله إلى المعركة ـ مع العلم أنّ حيواناً واحداً كان يشترك فيه عدة أشخاص ـ ولكنّ النبيﷺ اعتذر من هذا البعض؛ لعدم توفّر ذلك، فرجع وعيونه تفيض من الدمع؛ بسبب حزنه وتألمه وتأثّره من عدم اشتراكه في هذا العمل الجهادي رغم مشقته وصعوبته.

## الاستفادة الثانية: الجهاد وأقسامه

ينقسم الجهاد إلى عدّة أقسام، منها: الجهاد بالنفس، والجهاد بالمال، وجهاد النفس. وسنتعرّض فيما يلي إلى هذه الأقسام تباعاً.

### القسم الأول: الجهاد بالنفس

تكرر هذا النوع من الجهاد في آيات عديدة من القرآن الكريم، منها الآية الثانية من هذا المقطع **﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[1]. وقد تقدّم الكلام عن هذا القسم سابقاً.

### القسم الثاني: الجهاد بالمال

عند مراجعة الآيات القرآنية التي تناولت الجهاد في سبيل الله نجد أنّ هناك تأكيداً على الجهاد بالمال. وفي أكثر هذه الآيات قرن الجهاد بالنفس بالجهاد بالمال، الأمر الذي يُدلّل على أنّ قضية الجهاد بالمال قضية أساسيّة ومركزية ومهمة في نظر الإسلام، ولذلك أكّد عليها.

والبحث عن الأموال بشكل عام، وعن دورها في حياة الإنسان

---

(١) الصف:١١.

وعلاقة الإنسان بها، وعن القواعد والضوابط الكلية في النظرية الإسلامية تجاه أصل المال ودوره في حركة التاريخ الإنساني، بحث مفصّل، ليس مجال تفصيلاته هنا، ولكنّ سنتناوله بإيجاز.

## علاقة الإنسان بالمال

تُعتبر علاقة الإنسان بالأموال إحدى الجوانب المرتبطة ببحث الأموال، والسؤال الذي يُطرح حول هذه العلاقة هل هي علاقة مكتسبة أو علاقة غريزية؟

يبدو من القرآن الكريم أنّ هذه العلاقة علاقة غريزية، لم يكتسبها الإنسان من خلال التجربة، أو من خلال المسيرة التاريخية التي عاشها في الحياة الدنيا، وإنما هي مودعة في ذاته وأحاسيسه وضميره ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1].

وليس المقصود من المال هنا خصوص النقود، وإنّما كل الأشياء التي يمكن للإنسان الاستفادة منها في مختلف جوانب حياته المادية، فهي تُمثّل طاقة له يمكن استخدامها في إدارة شؤونه، والسيطرة على الآخرين، وإعمار الأرض. فالأموال بهذا المعنى شاملة للعقارات والحيوانات والنقود والذهب والفضة، وغيرها من الأمور التي يتملّكها الإنسان وتقع تحت تصرفه، سواء كانت منقولة أم غير منقولة.

---

(١) آل عمران: ١٤.

**العلاج القرآني لهذه الغريزة**

وقد وضع الإسلام أحكاماً وتشريعات تهذّب هذه الغريزة، وتنظمها بشكل يخدم الإنسان في مسيرته التكاملية التي هي الهدف الأساسي من خلقته؛ ولذلك عالج القرآن الكريم هذا الموضوع بمعالجات أساسية، منها:

**أولاً:** قرن الزكاة - التي هي عبارة عن إنفاق المال وبذله في سبيل الله - بالصلاة، وهذا القرن أمر مهم جداً حيث أنّ الصلاة تُمثّل علاقة وارتباط عالي بين الإنسان وربه، والظاهر أن القرآن الكريم يريد أنْ يشير إلى أهمية الإنفاق ويُربّي الإنسان على استخدام هذه الغريزة بطريق ينتهي به إلى التكامل، وذلك بإنفاق الأموال في سبيل الله، وبالتالي تصبح علاقة الإنسان بالمال مؤثرة في حياته، وهي علاقة الإنفاق والبذل في سبيل الله.

**ثانياً:** بيان أنّ الأموال زينة الحياة الدّنيا، والحياة الدّنيا من أولها لآخرها عبارة عن لهو ولعب، أي ليس لها مضمون حقيقي بأزاء الآخرة، قال تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾[1]، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[2].

**ثالثاً:** بيان أنّ ثمرات الإنفاق ونتائجه وفوائده ستكون مضاعفة،

---

(١) الكهف:٤٦.

(٢) العنكبوت:٦٤.

وبالتالي فإنفاق هذه الأموال في سبيل الله إنّما هو في الواقع تنمية لها، كما هو الحال في المال الذي ينفقه الإنسان في تجارة من أجل الربح.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[1].

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

فما ورد في الآيتين نوع من تربية الإنسان على الطريقة الصحيحة في التعامل مع غريزة المال.

### المال والأولاد

وقد يعتقد البعض أنّ كثرة المال والأولاد دليل على العلاقة مع الله سبحانه وتعالى، باعتبار أنّ الكثرة سببها وجود علاقة إيجابية وخاصة بين صاحب المال وبين الله سبحانه وتعالى الذي أعطاه المال؛ فلو لم يكن الله محباً لهذا الإنسان لما أعطاه هذا الخير من المال والأولاد، وهذا ما اعتقده بعض المشركين والكفّار.

لا شك أنّ لهذا الوهم تأثيرات على حياة الإنسان وعلى مسيرته، حيث يشعر الإنسان ـ ذو المال الكثير، وذو الأولاد ـ أنّه متميّز، وله دور خاص في المجتمع، ممّا يؤدي به تدريجاً نحو التسافل، ويتحوّل شيئاً

(١) البقرة: ٢٦١.

(٢) البقرة: ٢٦٥.

فشيئاً إلى إنسان مُترف مُتكبّر.

وعالج القرآن الكريم هذا الجانب في ضمن الجوانب التي عالج فيها قضية المال، فذكر أنَّ الأموال والأولاد يُمثّلون فتنة بالنسبة إلى الإنسان، بل أحيانا يكونان عدوين له، كما أنّ الكثرة في الأموال والأولاد قد تُعرّض الإنسان لأن يشاركه فيهما الشيطان، كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾[3].

فالقرآن الكريم في الآيات المتقدّمة يرد على ما قاله المشركون من أنّ كثرة أولادهم وأموالهم معناه عدم تعذيبهم من قبل الله تعالى: ﴿**وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾[4]، شأنهم في

(١) الإسراء: ٦٤.

(٢) آل عمران: ١٠.

(٣) الحديد: ٢٠.

(٤) سبأ: ٣٥.

ذلك شأن اليهود والنصارى الذين قالوا نحن أولياء الله وأحباؤه.

فيتضح ممّا تقدّم أنّ القرآن الكريم اعتبر من كمال جهاد الإنسان جهاده بماله، فكما يجب عليه الجهاد بالنفس كذلك يجب عليه الجهاد بالمال في سبيل الله. وفي الجهاد بالمال أمران مهمان:

**الأول: الجهاد بالمال فريضة**

بعد التأكيدات القرآنية على أهمية الإنفاق، يمكن أن نتساءل: هل فرض الإسلام ضريبة الجهاد بالأموال على المسلمين أو لا؟ وبتعبير آخر: هل وضع في ذمتهم وعهدتهم حقاً شرعياً وهو البذل من أجل الجهاد في سبيل الله أم لا؟ وبتعبير ثالث: هل فرض الله سبحانه وتعالى حقاً شرعياً وهو الجهاد بالمال كما فرض بشكل مستقل الخمس والزكاة وغير ذلك من الحقوق الشرعية على المسلمين أو أنّه لم يفرض شيئاً معيناً عليهم بهذا الصدد؟

ذهب بعض الفقهاء إلى وجود فريضة الجهاد على المسلمين، لكنّها غير محدّدة بحدّ معين، وإنّما تقديرها متروك للنبيﷺ أو الإمامعليه السلام أو من يَنوب عنهما في ولاية الأمر.

وهناك بعض الآيات يمكن استفادة الأمر منها بالجهاد في سبيل الله بالمال وبالنفس، منها قوله تعالى: **﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ**

وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[1].

حيث يُستفاد من الآية الكريمة وجوب البذل قدر المستطاع وبحسب الإمكانات التي يملكها الإنسان لتهيئة وإعداد القوة للمسلمين؛ باعتبار أنّ بذل الأموال يُمثّل القوة لهم، والذي يُحدد مقدار هذه الضريبة وحدودها حاجة المعركة والجهاد، وإلاّ ليس لها حدود معينة.

نعم أصل هذه الضريبة قائم وموجود كالضرائب والفرائض الأخرى؛ ولذلك فكما يجب على المسلم بذل نفسه والجهاد في سبيل الله، كذلك يجب عليه بذل المال في سبيل الله سبحانه وتعالى بالقدر الذي يفي بحاجات المعركة والحرب مهما كان، وتحديده إنما يكون من قبل ولي الأمر الذي يُدير هذه المعركة.

**الثاني: دور الإنفاق في عملية التغيير**

مما لاشك فيه أنّ للأموال دوراً أساسياً ومهماً في حركة التاريخ، وفي عملية التغيير التي يُمارسها الأنبياء خصوصاً في الجهاد، وإنْ كان النصر والوصول إلى الأهداف يعتمد بشكل أساسي على الجانب المعنوي، إلاّ أنّ الجانب المادي ضروري أيضاً.

فإعداد القوة له أثر واضح في تحقيق النصر، والمال هو الذي يعدّ هذه القوة؛ ولذلك لم يُهمله الإسلام بل أكّد عليه، واعتبره عنصراً مهماً من عناصر تحقيق النصر ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ هذا مضافاً إلى ما يحققه البذل من التكامل بالنسبة للإنسان الباذل.

ومن خلال حركة الرسالة الإسلامية والظروف التي مرّت بها نجد

---

(١) الأنفال: ٦٠.

أنّ لمال خديجة دوراً مهماً جداً في تحقيق النصر، وفي تحقيق التغيير في المجتمع المكي، حتى قيل: انتصر الإسلام بأموال خديجة وبسيف علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث يمثّل الإمام علي عليه السلام في مسيرة الإسلام جانباً من جوانب تحقيق النصر، وتحقيق التغيير الذي قام به الإسلام.

والجانب الثاني أموال خديجة عليها السلام التي كان لها دور عظيم جداً في حركة الإسلام، حيث تمكّن النبي صلى الله عليه وآله والمسلمون من خلال هذه الأموال مواجهة أزمات حادّة، كأزمة شعب أبي طالب عليه السلام، عندما حُوصر المسلمون فيه، وامتنع الآخرون من التعامل معهم في البيع والشراء، مما أدى إلى انقطاع الموارد الطبيعية من الغذاء وغيره عنهم، ولكن ببركة أموال السيدة خديجة عليها السلام استطاع المسلمون التغلّب على مصاعب وأزمات ذلك الحصار، وبالتالي كسره.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

**القسم الثالث: جهاد النفس**

قد يُفهم من القرآن الكريم معنى أوسع من معنى المجاهدة بالمال وبالنفس، وهو ما يشمل جهاد النفس لا الجهاد بالنفس فقط.

والفرق كبير بين أنْ يجاهد الإنسان بنفسه، بأنْ يبذل نفسه في سبيل الله، وبين أنْ يجاهد نفسه، فيكون عدوه هو نفسه، وهي التي يُجاهدها ويُصارعها.

وهناك روايات كثيرة جداً وردت في جهاد النفس، منها ما روى فضيل بن عياض قال: ((**سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الجهاد سنة أم فريضة؟ فقال: الجهاد على أربعة أوجه، فجهادان فرض، وجهاد سنة لا يقام إلاّ مع الفرض، فأمّا أحد الفرضين فمجاهدة الرجل نفسه عن**

**معاصي الله عزّ وجلّ، وهو من أعظم الجهاد، ومجاهدة الذين يلونكم من الكفّار فرض، وأمّا الجهاد الذي هو سنة لا يقام إلاّ مع فرض فإن مجاهدة العدو فرض على جميع الأمّة، ولو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب، وهذا هو من عذاب الأمة، وهو سنة على الإمام وحده أن يأتي العدو مع الأمة فيجاهدهم، وأمّا الجهاد الذي هو سنة فكل سنة أقامها الرجل وجاهد في إقامتها وبلوغها وإحيائها فالعمل والسعي فيها من أفضل الأعمال؛ لأنّها إحياء سنّة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء))[١].**

وقد تناولت هذه الروايات الجوانب والأبعاد الأساسيّة فيه، حيث وردت مجموعة منها في التأكيد على وجوبه، كرواية السكوني: **((عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ النّبي صلى الله عليه وآله بعث بسرية فلمّا رجعوا، قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس))**[٢].

وجاء في وصيّة النّبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **((يا علي أفضل الجهاد من أصبح لا يهمّ بظلم أحد))**[٣]، أي من أفضل الجهاد أن يُصبح الإنسان ولا تكون في داخله نية لظلم أحد من النّاس.

---

(١) الكافي٥: ٩، ١٠.

(٢) الكافي٥: ١٢.

(٣) مكارم الأخلاق: ٤٣٣.

ومن جملة ما ورد في هذا النوع من الجهاد ما قاله الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: **((من لم يكن له واعظ من قلبه وزاجر من نفسه ولم يكن له قرين مرشد إستمكن عدوه من عنقه))**[١].

وجاءت بعض الأحاديث تصوّر أبعاد هذا الجهاد، من قبيل ما ورد عن الصادق عليه السلام: **((من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا اشتهى وإذا غضب وإذا رضي وإذا سخط حرّم الله جسده على النّار))**[٢].

وهذا الحديث على اختصاره إلاّ أنّ فيه مضامين كثيرة جداً، وموعظة مهمة في جهاد النفس. فالإنسان ان ملك نفسه إذا حصلت عنده حالة الخوف والرهبة أو الاشتهاء للغرائز أو الغضب أو الرضا أو السخط، حرّم الله سبحانه وتعالى جسده على النار.

فهذه الأمور هي التي تضغط على إرادته، وتجعلها تتجه باتجاه معين؛ لأنّ كل المؤثرات التي قد تؤثّر على الإنسان وتؤدي به إلى طريق الضلال هي واحدة من هذه الأمور المتقدّمة. ومن هنا يفترض بالإنسان أن يتعامل مع كل هذه المؤثّرات التي يُواجهها طبق الموازين والحدود الشرعية التي وضعها الله سبحانه وتعالى له.

وبعض الأحاديث الواردة بهذا الصدد تُبيّن المعادلة بين العقل والشهوة، وأنّ الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان عقلاً وشهوة، فإذا سيطر عقله على شهوته تمكّن من السير في الطريق المستقيم، وأمّا إذا حدث العكس فسينحرف عن جادة الحقّ والصواب.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ١٨٧.

(٢) تحف العقول: ٣٦١.

كما ورد ذلك في رواية عبد الله بن سنان ((**قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: قال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام: إنّ الله عزّ وجل ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوةً بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم**))[1].

فالله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان مكوّنات ومقوّمات، وعرّضه إلى الامتحان، وجعل أمامه طريقين، فإذا استخدم عقله واتبع الهداية الذاتية التي وضعها الله سبحانه وتعالى فيه تكامل، وأصبح أفضل من الملائكة، وأمّا إذا وقع تحت تأثير الشهوات والغرائز تسافل وتراجع، وأصبح شرّاً من البهائم.

وتتحدث بعض الروايات عن الطريق الذي ينبغي للإنسان اتباعه في مجاهدة النفس، وهو استخدام عقله الذي يهديه إلى الأحكام والموازين الشرعية، كما ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث المناهي حيث إنّه قال: ((**من عرضت له فاحشة أو شهوة فاجتنبها من مخافة الله عزّ وجل حرّم الله عليه النار، وآمنه من الفزع الأكبر، وأنجز له ما وعده في كتابه في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. ألا ومن عرضت له دنيا وآخرة فاختار الدّنيا على الآخرة لقي الله يوم القيامة وليست له حسنة يتّقي بها النّار، ومن اختار الآخرة وترك الدّنيا رضي الله عنه، وغفر له مساوئ عمله، ومن ملأ**

---

(١) علل الشرائع ١: ٤، ٥.

**عينه من حرام ملأ الله عينه يوم القيامة من النّار إلاّ أن يتوب ويرجع))**[١]. فهذا هو المنهج العام الذي وضعه الإسلام والشارع المقدس للإنسان.

كما أنّ الله سبحانه وتعالى قد وضع خططاً تفصيلية لتطبيق هذا المنهج، أفضلها محاسبة النفس، فقد روي عن إبراهيم بن عمر اليماني عن أبي الحسن الماضي عليه السلام: **((قال: ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه))**[٢].

وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر رضي الله عنه: **((يا أبا ذر حاسب نفسك قبل أن تُحاسب، فهو أهون لحسابك غدا، وزن نفسك قبل أنْ تُوزن، وتجهّز للعرض الأكبر يوم تُعرض، لا تخفى على الله خافية ـ إلى أنْ قال ـ يا أبا ذر، لا يكون الرجل من المتقين حتى يُحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه، ومن أين مشربه، ومن أين ملبسه، أمن حلّ ذلك أم من حرام؟ يا أبا ذر، من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله عزّ وجل من أين أدخله النّار))**[٣].

فيتضح مما تقدم أنّ الجهاد غير منحصر بمجاهدة أعداء الله من الآدميين، بل من الجهاد أيضاً مجاهدة العدو الألد للإنسان، وهي النفس الأمارة بالسوء، والمصاحبة له، والمتصلة به في كل أعماله

---

(١) مكارم الأخلاق: ٤٢٩، ٤٣٠.

(٢) الكافي ٢: ٤٥٣.

(٣) بحار الأنوار ٧٤: ٨٣، ٨٦.

وخطواته وسلوكه، ومجاهدتها هي الجهاد الأكبر.

إنّ جهاد النفس يُمثّل في الواقع أساساً لجهاد الأعداء، فالإنسان ما لم يكن قادراً على مجاهدة نفسه ومسيطراً على شهواته ورغباته، لا يمكن له القيام بجهاد أعداء الله؛ لأنّه إذا أصبح محباً للدنيا ومرتبطاً بها وبشهواتها وزخرفها، لن يتمكن من القيام بالعمل الجهادي.

فجهاد النفس يُمثّل أساساً وقاعدة لجهاد أعداء الله، مضافاً إلى أن الصعوبة التي يواجهها الإنسان في مجاهدة نفسه أكبر من المشقة والصعوبة التي يواجهها في مواجهة الأعداء في ساحة الحرب والقتال، ولعله لهذا السبب أطلق على جهاد النفس (الجهاد الأكبر).

**المعنى الأوسع للجهاد**

من الممكن أنْ يُفهم معنى آخر للجهاد من خلال القرآن الكريم، وهو أشمل من كل ما تقدم، حيث قال تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾(١).

فمن سياق الآية الكريمة قد يُفهم المعنى الأوسع للجهاد، والذي هو كل صراع وجهد يبذله الإنسان؛ من أجل ترسيخ وتأكيد وتوثيق العلاقة بالله سبحانه وتعالى. وهناك روايات كثيرة جدا قد وردت في

---

(١) الحج:٧٨.

هذا المعنى.

منها ما رواه الكليني عن فضيل بن عياض، عن الإمام الصادق عليه السلام التي قال فيها: ((**الجهاد على أربعة أوجه، فجهادان فرض، وجهاد سنة لا يقام إلاّ مع الفرض، فأمّا أحد الفرضين فمجاهدة الرجل نفسه عن معاصي الله عزّ وجلّ، وهو من أعظم الجهاد، ومجاهدة الذين يلونكم من الكفّار فرض، وأمّا الجهاد الذي هو سنة لا يقام إلاّ مع فرض فإن مجاهدة العدو فرض على جميع الأمّة، ولو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب، وهذا هو من عذاب الأمة، وهو سنة على الإمام وحده أن يأتي العدو مع الأمة فيجاهدهم، وأمّا الجهاد الذي هو سنة فكل سنة أقامها الرجل وجاهد في إقامتها وبلوغها وإحيائها فالعمل والسعي فيها من أفضل الأعمال؛ لأنها إحياء سنّة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء**))[1].

## الاستفادة الثالثة: عصر النزول

يبدو أن سورة الصف المباركة نزلت في عصر متأخر نسبياً من المرحلة المدنيّة لنزول القرآن الكريم، وفي هذا المقطع من السّورة عدّة شواهد على ذلك، وهي:

---

(١) الكافي٥: ٩، ١٠.

**الشاهد الأول: التعرّض إلى الجهاد بإطاره الواسع**

تعرّضت آيات المقطع إلى الجهاد بإطاره الواسع، ومن المعلوم أنّ قضية الجهاد طرحها القرآن الكريم في أحد مراحل التحرّك الإسلامي، وهي مرحلة الدفاع عن النفس عند مواجهة عدوان مباشر من قبل المشركين، وهو ما يُسمّى بالجهاد الدفاعي، حيث كان القرآن الكريم في المرحلة المكيّة يأمر المسلمين بالصبر حتى يأتي أمر الله.

وفعلاً جاء أمر الله، وكُتب عليهم القتال، وذلك في المرحلة المدنية، أي بعد استقرار الحكم الإسلامي في المدينة، وبعد تمكّن النبيﷺ من فتح مكّة والطائف، وإخضاع العشائر والقبائل العربية المحيطة بالمدينة المنوّرة إلى حكم الإسلام، كعشائر وقبائل اليهود الساكنين بجوار المدينة، فبعد ذلك كله وبعد أن تهيأت الظروف المناسبة حُكم بالجهاد.

وبعد هذه المرحلة بدأ الإسلام يواجه قضية جديدة، وهي قضية تواجد المشركين والكفّار في منطقة الجزيرة العربية، فهؤلاء وإن كانوا في الجزيرة العربية إلاّ أنّهم كانوا بعيدين عن مركز الدولة الإسلامية، ولم يكن هناك تماس مباشر معهم في تلك المرحلة، فأخذ القرآن الكريم يُمهّد للمسلمين ـ من الناحية النفسية والروحية ـ للدخول معهم في قتال؛ باعتبارهم أعداء للإسلام.

وقد يقال: كان بإمكان المسلمين البقاء فيما هم فيه من الأوضاع التي تمكّنوا من إقامتها وتحقيقها في مكّة والمدينة، من دون الحاجة إلى الدخول في قتال مع أولئك، وبالتالي تجنّب المشاكل الداخلية التي يمكن أن يواجهوها من جرّاء دخولهم في هذه المواجهة؟!

تعتبر قضية الإسلام قضيّة شاملة غير محدودة، فالإسلام جاء رحمة

للعالمين، وعليه فلابدّ من نشره في كل بقاع العالم، وبطبيعة الحال سيكون هناك قتال وجهاد؛ لأنّ أعداء الله لن يسمحوا بنشر هذه الرسالة والدعوة دون مواجهتها بالقوة، ولا يمكن مواجهة القوة إلاّ بالقوة والجهاد.

وقد كانت قضية الجهاد في المرحلة المدنيّة تُطرح على أساس كونها قضية الدفاع عن النفس، وقضية تحرير المستضعفين من سيطرة الطغاة، وإقامة حكم الله، وإقامة الصلاة وأداء الزكاة، ولا يمكن للإنسان إقامة هذه الأمور إلاّ عن طريق الجهاد.

وذلك لأنّ المسلمين كانوا يعيشون حالة المواجهة والضغوط من قبل المشركين، وبالتالي من دون الجهاد لن يتمكّنوا من إقامة شعائر الله وأحكامه، ولعاشوا في حالة الاستضعاف.

وقد ورد هذا المعنى في سورة النساء، عندما طُرحت قضية الجهاد، ودُعي المسلمون إليها؛ لتحرير المستضعفين، وإقامة حكم الله، قال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً**﴾[1].

أمّا في آيات هذا المقطع من سورة الصف فقد طرح القرآن الكريم قضية الجهاد بشكل واسع، حيث إنه طرحها على أساس أنّها تجارة مع الله سبحانه وتعالى، ولها ثواب عظيم، ولا تنحصر آثارها بالفتح والنصر فقط، مما جعل للقضية مدى أوسع وأكبر.

---

(١) النساء: ٧٥.

فمع أنّ قضية الجهاد تُشكّل هدفاً للإنسان في الدّنيا؛ لما يترتّب عليها من آثار الفتح، ونشر الإسلام والرسالة في كل أصقاع الأرض، كذلك أصبحت القضية هنا تُشكّل هدفاً آخر للإنسان؛ وذلك لما يترتّب عليها من الآثار الأخروية والثواب العظيم، وهذا يُدلّل على نزول آيات المقطع في مرحلة متأخرة نسبياً من المرحلة المدنيّة.

**الشاهد الثاني: سبب النزول**

إن سبب نزول هذه الآيات الكريمة شاهد آخر على نزولها المتأخر، فقد روي في سبب نزولها أنّه ((**قال نفر من الأنصار في مجلس لهم، وفيهم عبد الله بن رواحة**[1]**: لو نعلم أيّ العمل أحبّ إلى الله لعملنا به حتى نموت، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿...هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿...وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن رواحة: لا أزال حبيساً في سبيل الله حتى أموت، فقُتل شهيداً**))[2].

فبعد نزول هذه الآيات نذر نفسه للجهاد في سبيل الله، ولم يعدل عنه حتى استُشهد في معركة مؤتة.

فنفس حالة افتراض التداول بين المسلمين بهذا الشكل يُشعر بحالة من الاستقرار في وضعهم، ويُشعر أيضاً بإنجاز المهمات التي تتعلّق

---

(١) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري، كنيته: أبو محمد، شهد بدراً وأحداً وخندق والحديبية، واستخلفه الرسولﷺ على المدينة في إحدى غزواته، وصحبه في عمرة القضاء، وله فيها رجزاً، وكان احد الأمراء في وقعة مؤتة. راجع كتاب الأعلام للزركلي٤: ٨٦.

(٢) تفسير مجاهد٢: ٦٧١.

بالقضاء على قوة المشركين التي كان فيها ضغط على حياة المسلمين، بحيث أصبح في المجتمع الإسلامي نوع من الاستقرار، الأمر الذي أدّى إلى التداول في أفضل الأعمال التي يمكن صدورها من هؤلاء المسلمين تجاه الله سبحانه وتعالى.

**الشاهد الثالث: سياق الآيات**

تقدم أنّ المضمون الكلي للمقطع الثالث هو التعهّد الإلهي بظهور دين الإسلام على كل الأديان[1]، وفي هذا المقطع يبين القرآن الكريم الطريق الذي يمكن من خلاله ظهور هذا الدين، وهو طريق الجهاد في سبيل الله.

وهذا النوع من التوجّه والطرح إنّما كان في مرحلة متأخرة من مراحل تاريخ الإسلام، ففي بداية العهد النبوي كانت المرحلة الأولى والمهمة هي مرحلة تثبيت الإسلام، وإثبات وجوده في مقابل الكفر والشرك. أمّا مرحلة الظهور الخارجي على بقية الأديان أو على خصوص الدين المسيحي واليهودي فقد كانت مرحلة متأخرة، حيث جاءت بعد تثبيت الحكم الإسلامي والمجتمع الإسلامي واستقراره في مقابل التهديدات التي كانت تواجهه، عندئذ بدأت مرحلة ظهور هذا الدين، فجاء الخطاب وبلا فاصل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾.

إذن، تجسيد ظهور الإسلام والدين الحقّ على كل الأديان ـ بحسب

---

(١) راجع صفحة ٢١١.

النظرية القرآنية والمفهوم القرآني ـ إنّما يكون من خلال منهج الجهاد الذي من دونه لا يمكن تحقيق هذا الهدف.

فصحيح أنّ الإسلام يملك الحجة البالغة والبراهين الكافية في الدلالة على أنه الدين الحق، إلاّ أنّ حركة التاريخ والصراع المستمر بين وجود الطغاة والمستكبرين والذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ـ من أولئك المنحرفين ممّن يدعي الالتزام بالدين وهو بعيد عنه ـ وبين غيرهم من الناس يمنع من انسجام هؤلاء النّاس بشكل عام مع الحجة وحدها، وحينئذ فلابدّ من التزام هذا المنهج؛ لكسر كل تلك القيود والحواجز حتى يعيش الإنسان حالة الحرية الحقيقية في تقبّل الأفكار والحجج والبلاغات التي تأتي من قبل الله سبحانه وتعالى.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

# الفصل الخامس

## دعوة المؤمنين للنصرة

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

شبّه القرآن الكريم في الآية الكريمة دعوة المؤمنين في أن يكونوا من أنصار الله سبحانه وتعالى بدعوة عيسى عليه السلام للإسرائيليين في أن يكونوا أنصاره لله سبحانه وتعالى، وهي دعوة شاملة؛ لما ورد في ذيل الآية الكريمة ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾[1].

وقد أوضح القرآن الكريم النتائج التي ترتّبت على هذه الدعوة، حيث حقق الذين استجابوا للدعوة، وكانوا أنصاراً لله سبحانه وتعالى الغلبة على أولئك الذين رفضوها، مع العلم أنّ الفارق الكمي كان إلى جانب الذين لم يستجيبوا.

---

(١) وجاء في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام أنّه سأل الإمام عن «قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾؟ قال: التي كفرت هي التي قتلت شبيه عيسى عليه السلام وصلبته، والتي آمنت هي التي قلبت شبيه عيسى حتى لا يُقتل، فقُتلت الطائفة التي قتلته وصلبته وهو قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾» تفسير القمي٢: ٣٦٥، ٣٦٦.

وقال الطبرسي: «﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ﴾ منهم بعيسى ﴿وَكَفَرَت﴾ به ﴿طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا﴾ مؤمنيهم ﴿عَلَى﴾ كفارهم فظهروا عليهم أي: غلبوا، وقيل: معناه: فآمنت طائفة منهم بمحمد صلى الله عليه وآله وكفرت به طائفة، فأصبح المؤمنون غالبين بالحجة والقهر» تفسير جوامع الجامع٣: ٥٥٦.

إنَّ مجيء هذه الآية في سياق الآيات السابقة يُفهم منه أنَّ النصرة التي تُطلب من المؤمنين معناها الاستعداد لبذل المال والنفس، حيث جاءت الآية في سياق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

## أبعاد النصرة

يُعتبر مفهوم النصرة من المفاهيم التي تكررت كثيراً في القرآن الكريم وبأشكال مختلفة[2]، ولها أبعاد متعددة هي:

**البعد الأول:** أخذ الله سبحانه وتعالى العهد من كل الأنبياء والرسل على أن ينصروا رسول الله ﷺ، والنصرة ليست واجبة على خصوص المسلمين، بل هي واجبة على كل البشرية حتى التي سبقت

---

(١) الصف: ١٠ ــ ١١.

(٢) كقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ آل عمران: ١٦٠، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد: ٧، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ الملك: ٢٠، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ العنكبوت: ١٠، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم: ٤٧، وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ النصر: ١، وغيرها من الآيات.

رسول الله، وهذا يعني أنَّ المفاهيم والأحكام الشرعية والمُثُل والقيم التي جاء بها رسول الله ﷺ تُشكّل محوراً لكل البشرية، وعلى البشرية كلها أن تكون إلى جانب هذه المفاهيم والأحكام.

**البعد الثاني:** تعهّد الله سبحانه وتعالى بنصر الأنبياء والرسل ﷺ، وبنصر رسول الله ﷺ، حيث قال تعالى: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾[2].

**البعد الثالث:** يُفهم من خلال القرآن الكريم أنّ أحد شروط النجاح والفلاح وتحقيق الأهداف للإنسان هو النصرة لرسول الله ﷺ، وهي من الأمور المكتوبة على المؤمنين منذ البداية، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[3].

وهنا لابدّ للمسلمين جميعاً أن ينتبهوا إلى أنّ الإيمان برسول الله ﷺ إيماناً كاملاً يؤدي بهم إلى الفلاح، لا يمكن أن يتحقق إلاّ من خلال نصرة رسول الله، والنصرة معناها الجهاد في سبيل الله بالمال

---

(١) المجادلة: ٢١.

(٢) غافر: ٥١.

(٣) الأعراف: ١٥٧.

والنفس.

**البعد الرابع:** إنّ العلاقات في المجتمع الإسلامي بالأصل علاقات قائمة على أساس النّصرة، وهي من الأمور التي لابدّ أن تكون واضحة للمسلمين بشكل عام، فالمسلم إنّما هو أخو المسلم ووليه.

وهذا في الواقع أحد الامتيازات الأساسية للمفهوم الإسلامي عن المفاهيم الغربية المادية. ففي المجتمع الغربي يعيش الإنسان لنفسه ولصالحه، وإذا كانت لديه علاقة مع الآخرين فنجد أنها مبنية على أساس ما تُوفّرهُ هذه العلاقة من مصالح لهذا الإنسان، فإذا كانت هناك مصالح متبادلة تكون هناك علاقات متبادلة، ويكون هناك مجتمع يكمل بعضه البعض الآخر.

أمّا المجتمع الإسلامي فالعلاقات الاجتماعية فيه تأخذ بُعداً آخر تتجاوز فيه العلاقات المتبادلة، وإن كانت هذه العلاقات مطروحة أيضاً في هذا المجتمع، قال تعالى: ﴿**لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً**﴾[1]، إلاّ أنّ جوهر العلاقات في المجتمع الإسلامي قائمة على أساس نصرة المسلم للمسلم الآخر.

وقد أكّد القرآن الكريم على هذا الأمر في عدّة آيات، منها قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾.

فالمؤمنون المهاجرون المجاهدون في سبيل الله سبحانه وتعالى وأولئك الذين ينصرون رسول الله ﷺ وآووه بعضهم أولياء بعض.

---

(١) الزخرف:٣٢.

ثمّ يقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]، أي والذين آمنوا ولم يُهاجروا للجهاد في سبيل الله فعلى المؤمنين نصرتهم في الدين فيما إذا طلبوا ذلك، هذا إذا لم يكن هناك ميثاق بين هؤلاء المؤمنين وأولئك القوم.

كما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنّه قال: ((من أصبح لا يهتمُّ بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم))[2].

البعد الخامس: إذا نصر الله سبحانه وتعالى عباده فلابدّ من تحقق الغلبة لهم، ونصرة الله ليست كنصرة بعضنا البعض التي قد لا تعطي ثمارها في بعض الأحيان، بل النصرة الإلهية دائمة العطاء ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ

---

(١) الأنفال: ٧٢.

(٢) الكافي ٢: ١٦٤.

هذا مضافاً إلى الكثير من الأحاديث التي تدل على الارتباط الوثيق بين المؤمنين، منها: ما رواه الشيخ الكليني بسنده «عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة، وإن روح المؤمن لأشدّ اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها»، وكذا بسنده عن الحارث بن المغيرة، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: المسلم أخو المسلم هو عينه ومرآته ودليله، لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه». الكافي ٢: ١٦٦، ١٦٧. وغيرها من الروايات.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١].

فالذين يدعون من دون الله سبحانه من أصنام وشياطين وبغاة لا يمكن لهم تحقيق النصر والفائدة، فالنّصر الحقيقي إنّما يكون من قبل الله سبحانه وتعالى، وعليه فلابدّ للمؤمن من الركون إلى الله سبحانه وتعالى.

وهذا ما أكّد عليه القرآن الكريم في كثير من آياته، كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ﴾.

فمن خلال نصرة الإنسان لله سبحانه وتعالى ـ التي هي عبارة عن نصرة دين الله سبحانه وتعالى ونصرة رسول الله ﷺ ونصرة عباد الله المؤمنين إذ إنّ الله تعالى هو القوي القادر الذي لا يحتاج إلى أي نوع من المعاونة ـ يتحقق شرط النصر الإلهي، ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٣].

---

(١) آل عمران:١٦٠.

(٢) الكهف:٤٣.

(٣) محمد:٧.

# فهرست المصادر

* القرآن الكريم: كتاب الله الخالد.

* نهج البلاغة: خطب الإمام علي عليه السلام، جمعها الشريف الرضي، شرحها وحققها: محمد عبده، الطبعة: الأولى لعام ١٤١٢هـ، نشر دار الذخائر - قم - إيران.

## كتب التفسير

* الإتقان في علوم القرآن: أبو الفضل عبد الرحمن بن كمال الدين السيوطي، تحقيق: سعيد المندوب، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٦ - ١٩٩٦م، المطبعة: لبنان - دار الفكر، الناشر: دار الفكر.

* التبيان: الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: رمضان المبارك ١٤٠٩، المطبعة: مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي.

* الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

* التفسير الأصفى: المولى محمد محسن الفيض الكاشاني، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٨ - ١٣٧٦ ش، المطبعة: مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، الناشر: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي.

* التفسير الصافي: المولى محمد محسن الفيض الكاشاني، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: رمضان ١٤١٦ - ١٣٧٤ ش، المطبعة: مؤسسة الهادي - قم المقدسة، الناشر: مكتبة الصدر - طهران.

* التفسير الكبير: الفخر الرازي، الطبعة: الثالثة.

* الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تصحيح: أحمد عبد العليم البردوني، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.

* الدرّ المنثور: جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان.

* الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي، الناشر: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية – قم المقدسة.

* المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٣ – ١٩٩٣م، المطبعة: لبنان – دار الكتب العلمية، الناشر: دار الكتب العلمية.

* الناسخ والمنسوخ: ابن حزم الأندلسي، تحقيق: د . عبد الغفار سليمان البنداري، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٦، الناشر: دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان.

* تفسير البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق ١) د.زكريا عبد المجيد النوقي ٢) د.أحمد النجولي الجمل، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٢ – ٢٠٠١م، المطبعة: لبنان/ بيروت – دار الكتب العلمية، الناشر: دار الكتب العلمية.

* تفسير الآلوسي: الآلوسي.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

* تفسير جوامع الجامع: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٨، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

* تفسير القرآن: عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: الدكتور مصطفى مسلم محمد، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٠ - ١٩٨٩م، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع الرياض - المملكة العربية السعودية.

* تفسير الواحدي: أبو الحسن الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٥، المطبعة: دمشق، بيروت - دار القلم، الدار الشامية، الناشر: دار القلم، الدار الشامية.

* تفسير مجمع البيان: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٥ - ١٩٩٥م، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان.

* تفسير القمي: أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي، تحقيق: تصحيح وتعليق وتقديم: السيد طيب الموسوي الجزائري، الطبعة: الثالثة، سنة الطبع: صفر ١٤٠٤، الناشر: مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر - قم - إيران.

* تفسير نور الثقلين: الشيخ عبد علي بن جمعة الحويزي، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الطبعة: الرابعة، سنة الطبع: ١٤١٢ - ١٣٧٠ ش، المطبعة: مؤسسة إسماعيليان. الناشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع - قم.

* تفسير العياشي: محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي العياشي، تحقيق: الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الناشر: المكتبة العلمية الإسلامية ـ طهران.

* تفسير السمعاني: أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٨ ـ ١٩٩٧م، المطبعة: السعودية ـ دار الوطن ـ الرياض، الناشر: دار الوطن ـ الرياض.

* تفسير البغوي: البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، المطبعة: بيروت ـ دار المعرفة، الناشر: دار المعرفة.

* تفسير مقاتل بن سليمان: مقاتل بن سليمان، تحقيق: أحمد فريد، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٤ ـ ٢٠٠٣م، المطبعة: لبنان/ بيروت ـ دار الكتب العلمية، الناشر: دار الكتب العلمية.

* تفسير السمرقندي: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق: د. محمود مطرجي، المطبعة: بيروت ـ دار الفكر، الناشر: دار الفكر.

* تفسير سورة الحمد: السيد محمد باقر الحكيم، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: رجب المرجب ١٤٢٠هـ.ق، المطبعة: شريعت ـ قم، الناشر: مجمع الفكر الإسلامي.

* تفسير مجاهد: أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي المخزومي، تحقيق: عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي ـ مجمع البحوث الإسلامية ـ إسلام آباد.

* جامع البيان: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تقديم: الشيخ خليل الميس / ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، سنة الطبع: ١٤١٥ - ١٩٩٥م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

* شرح الأسماء الحسنى: الملا هادى السبزواري، الناشر: منشورات مكتبة بصيرتي - قم - إيران.

* فقه القرآن: قطب الدين أبو الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، الناشر: مكتبة آية الله العظمى النجفي المرعشي، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٥.

* علوم القرآن: السيد محمد باقر الحكيم، الطبعة: الثالثة، سنة الطبع: ربيع الثاني ١٤١٧، المطبعة: مؤسسة الهادي - قم، الناشر: مجمع الفكر الإسلامي.

* الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، سنة الطبع: ١٣٨٥ - ١٩٦٦م، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، عباس ومحمد محمود الحلبي وشركاهم - خلفاء.

* مفردات غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٤، الناشر: دفتر نشر الكتاب.

## كتب الحديث

* الأمالي: أبو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن

بابويه القمي الصدوق، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة – قم، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٧.

* الإمامة والتبصرة: أبو الحسن علي بن الحسين بن بابويه القمي، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام – قم المقدسة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٤، الناشر مدرسة الإمام المهدي عليه السلام – قم المقدسة.

* الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٤ – ١٩٩٣م، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان.

* المحاسن: أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، تحقيق وتصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني (المحدّث)، نشر: دار الكتب الإسلامية – طهران، سنة الطبع: ١٣٧٠هـ.

* شرح الأخبار: القاضي النعمان بن محمد التميمي المغربي، تحقيق: السيد محمد الحسيني الجلالي، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٤، المطبعة: مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

* صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري، الناشر: دار الفكر – بيروت – لبنان.

* سنن الترمذي (الجامع الصحيح): أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق وتصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة:

الثانية، لعام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

* المعجم الأوسط للطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: قسم التحقيق بدار الحرمين، سنة الطبع: ١٤١٥ - ١٩٩٥م، الناشر: دار الحرمين للطباعة والنشر.

* علل الشرائع: الشيخ أبو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي الصدوق، الناشر: منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها - النجف الأشرف، سنة الطبع: ١٣٨٥.

* مسند احمد: احمد بن حنبل، الناشر: دار صادر - بيروت - لبنان.

* عيون الحكم والمواعظ: علي بن محمد الليثي الواسطي، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، الطبعة: الأولى، المطبعة: دار الحديث، الناشر: دار الحديث.

* كتاب الزهد: الحسين بن سعيد الكوفي الأهوازي، تحقيق: ميرزا غلام رضا عرفانيان، سنة الطبع: ١٣٩٩، المطبعة: العلمية - قم.

* النص والاجتهاد: السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي، تحقيق: أبو مجتبى، المطبعة: سيد الشهداء عليه السلام - قم، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٤.

* كنز الفوائد: أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٣٦٩ ش، المطبعة: غدير، الناشر: مكتبة المصطفوي - قم.

* حلية الأبرار: السيد هاشم البحراني، تحقيق: الشيخ غلام رضا

البروجردي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١١، المطبعة: بهمن، الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية ـ قم ـ إيران.

* الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام/ بإشراف السيد محمد باقر الموحد الأبطحي، الطبعة: الأولى، كاملة محققة، سنة الطبع: ذي الحجة ١٤٠٩، المطبعة: العلمية ـ قم، الناشر: مؤسسة الإمام المهدي ـ قم المقدسة.

* الإيضاح: الفضل بن شاذان الأزدي النيسابوري، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث، سنة الطبع: ١٣٦٣ ش، الناشر: مؤسسة انتشارات وچاپ دانشگاه تهران.

* الفضائل: شاذان بن جبرئيل القمي، سنة الطبع: ١٣٨١ ـ ١٩٦٢م، المطبعة: الحيدرية ـ النجف الأشرف، الناشر: منشورات المطبعة الحيدرية ومكتبتها ـ النجف الأشرف.

* الصراط المستقيم: علي بن يونس العاملي، تصحيح وتعليق: محمد الباقر البهبودي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٣٨٤، المطبعة: الحيدري، الناشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية.

* دلائل الإمامة: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (الشيعي)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٣، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.

* عوالي اللئالي: الشيخ محمد بن علي بن إبراهيم الأحسائي، المعروف بابن أبي جمهور الأحسائي، تقديم: السيد شهاب الدين

النجفي المرعشي / تحقيق: الحاج آقا مجتبى العراقي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٣ – ١٩٨٣م، المطبعة: سيد الشهداء – قم.

* الكافي: الشيخ ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني، الطبعة: الخامسة، تحقيق: علي أكبر غفاري، نشر: دار الكتب الإسلامية – طهران.

* من لا يحضره الفقيه: الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، الطبعة الثانية، تحقيق: علي أكبر غفاري، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة.

* بحار الأنوار: العلامة محمد باقر المجلسي، الناشر: مؤسسة الوفاء – بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية المصححة، سنة الطبع: ١٤٠٣.

* ثواب الأعمال: الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه، المعروف بالصدوق، تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٣٦٨ ش، المطبعة: أمير – قم، الناشر: منشورات الشريف الرضي – قم.

* الهداية الكبرى: أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي، الطبعة: الرابعة، سنة الطبع: ١٤١١ – ١٩٩١م، المطبعة: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان، الناشر: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان.

* جامع أحاديث الشيعة: السيد حسين البروجردي، سنة الطبع: ١٣٩٩، المطبعة: المطبعة العلمية – قم.

* شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل

إبراهيم، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٣٧٨ ـ ١٩٥٩م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

* مكارم الأخلاق: الشيخ رضي الين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي، الطبعة: السادسة، سنة الطبع: ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢م، الناشر: منشورات الشريف الرضي.

* الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٤ ـ ١٩٩٣م، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

* شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٣٧٨ ـ ١٩٥٩م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

* تحف العقول: أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٤ ـ ١٣٦٣ش، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

### مصادر العقائد

* الرحلة المدرسية: الشيخ محمد جواد البلاغي، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٤ ـ ١٩٩٣م، الناشر: دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

* بداية المعارف الإلهية في شرح العقائد الامامية: السيد محسن الخزازي، الطبعة: الخامسة، سنة الطبع: ١٤١٨، المطبعة: مؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

* قواعد المرام في علم الكلام: كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، تحقيق: السيد أحمد الحسيني / باهتمام: السيد محمود المرعشي، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٦، المطبعة: مطبعة الصدر، الناشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.

* عقائد الامامية للمظفر: الشيخ محمد رضا المظفر، تقديم: الدكتور حامد حفني داود، الناشر: انتشارات أنصاريان – قم – إيران.

* شرح المقاصد في علم الكلام: التفتازاني، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠١ – ١٩٨١م، المطبعة: باكستان – دار المعارف النعمانية، الناشر: دار المعارف النعمانية.

* كشف المراد في تجريد الاعتقاد: العلامة الحلي، تحقيق: آية الله حسن زاده الآملي، الطبعة: السابعة، سنة الطبع: ١٤١٧، المطبعة: مؤسسة نشر الإسلامي – قم، الناشر: مؤسسة نشر الإسلامي – قم.

* محاضرات في الإلهيات: الشيخ جعفر السبحاني، الناشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام – قم.

* العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام: مركز المصطفى صلى الله عليه وآله، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: محرم الحرام ١٤١٩، المطبعة: مهر، الناشر: مركز المصطفى للدراسات الإسلامية – قم –

إيران.

## علوم اللغة العربية

* الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، الطبعة: الرابعة، سنة الطبع: ١٤٠٧ - ١٩٨٧م، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت - لبنان.

* الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤١٢.

* القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي.

* النهاية في غريب الحديث: ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، الطبعة: الرابعة، سنة الطبع: ١٣٦٤ ش، الناشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع - قم - إيران.

* ترتيب إصلاح المنطق: ابن السكيت الاهوازي، ترتيب وتقديم وتعليق: الشيخ محمد حسن بكائي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٢هـ.ق، المطبعة: مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدسة، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية - مشهد - إيران.

* تاج العروس: محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي، تحقيق: علي شيري، سنة الطبع: ١٤١٤ - ١٩٩٤م، المطبعة: دار الفكر - بيروت، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.

* غريب الحديث: ابن قتيبة، تحقيق دكتور عبد الله الجبوري، دار الكتب العلمية ـ قم، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٨.

* غريب الحديث: أبو عبيد الله بن سلام الهروي، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، المطبعة: مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن الهند، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٣٨٤.

* كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور إبراهيم السامرائي، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٩، الناشر: مؤسسة دار الهجرة.

* لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، الناشر: نشر أدب الحوزة – قم – إيران، سنة الطبع: محرم ١٤٠٥.

* معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، سنة الطبع: ١٤٠٤، المطبعة: مكتبة الإعلام الإسلامي، الناشر: مكتبة الإعلام الإسلامي.

**كتب الفقه**

* الروضة البهية في شرح اللمعة: زين الدين الجبعي العاملي، المعروف بالشهيد الثاني، تحقيق: السيد محمد كلانتر، الطبعة: الأولى – الثانية، سنة الطبع: ١٣٨٦ – ١٣٩٨، الناشر: منشورات جامعة النجف الدينية.

* المهذب: القاضي عبد العزيز بن البراج الطرابلسي، إعداد:

مؤسسة سيد الشهداء العلمية / إشراف: الشيخ جعفر السبحاني، سنة الطبع: ١٤٠٦، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

* رسائل المرتضى: الشريف المرتضى، تقديم: السيد أحمد الحسيني / إعداد: السيد مهدي الرجائي، سنة الطبع: ١٤٠٥، المطبعة: مطبعة سيد الشهداء - قم، الناشر: دار القرآن الكريم - قم.

* فقه الرضا: علي بن بابويه، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم المشرفة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: شوال ١٤٠٦، الناشر: المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام - مشهد المقدسة.

* كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء: شيخ جعفر كاشف الغطاء، الناشر: انتشارات مهدوي - أصفهان.

* كمال الدين وتمام النعمة: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، سنة الطبع: محرم الحرام ١٤٠٥ - ١٣٦٣ ش، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

* مصباح المتهجد: الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١١ - ١٩٩١م، الناشر: مؤسسة فقه الشيعة - بيروت - لبنان.

## دليل المؤلفات

* ابتلاءات الأمم: سعيد أيوب، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٦ - ١٩٩٥م، الناشر: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت -

لبنان.

* معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، الناشر: مكتبة المثنى - بيروت - لبنان ودار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

* الأعلام: خير الدين الزركلي، الطبعة: الخامسة، سنة الطبع: أيار - مايو ١٩٨٠، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت - لبنان.

## مصادر التاريخ

* إمتاع الأسماع: المقريزي، تحقيق وتعليق: محمد عبد الحميد النميسي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٠ - ١٩٩٩م، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

* تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن ابن خلدون المغربي، الطبعة: الرابعة، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

* حياة الإمام الحسين عليه السلام: الشيخ باقر شريف القرشي، المطبعة: مطبعة الآداب - النجف الأشرف، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٣٩٤.

## مصادر رجال الحديث

* تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٧ - ١٩٩٧م، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

* مستدركات علم رجال الحديث: الشيخ علي النمازي الشاهرودي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ربيع الآخر ١٤١٢، المطبعة: شفق - طهران، الناشر: ابن المؤلف.

## الأنساب ومعاجم مختلفة

* معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، سنة الطبع: ١٣٩٩ - ١٩٧٩م، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

# المحتويات

المقدّمة ........................................ ٧

لمحة سريعة حول السورة

أولاً: اسم السورة ........................................ ١٣

ثانياً: زمن النزول ........................................ ١٥

ثالثاً: سورة الصف من المفصّلات ........................................ ١٨

رابعاً: سورة الصف من المسبّحات ........................................ ١٩

خامساً: المضمون العام للسورة ........................................ ٢١

تقسيم البحث ........................................ ٢٣

المقطع الأول

التأكيد على القتال المنظّم ........................................ ٢٧

الجهة الأولى: بحث المفردات ........................................ ٢٩

الجهة الثانية: البحث التفسيري ........................................ ٣٧

الآية الأولى: التسبيح والعزة والحكمة ........................................ ٣٨

الأول: التسبيح الذاتي ........................................ ٣٩

الثاني: التسبيح الاختياري ........................................ ٤٠

دور التسبيح ........................................ ٤٢

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

خلاصة القول ........................ ٤٦
التكامل الإنساني .................... ٥٢
**الآية الثانية: خطورة التراجع عند مرحلة الحسم ............ ٥٣**
الاحتمال الأول: إدعاءُ ما لم يُفعل ............ ٥٤
الاحتمال الثاني: الوعد الكاذب ............ ٥٧
الاحتمال الثالث: عدم الالتزام بالمواثيق ............ ٥٨
الاحتمال الرابع: التخلّف في مرحلة الحسم ............ ٦٣
**الآية الثالثة: المقت الإلهي وأبعاده ............ ٦٩**
**الآية الرابعة: دور الصبر والثبات ............ ٧١**
**الجهة الثالثة: استفادات عامة ............ ٧٨**
**الاستفادة الأولى: ظاهرة النفاق ............ ٧٨**
أبعاد ظاهرة النفاق ............ ٨١
البعد الأول: التدنّي الروحي والأخلاقي ............ ٨١
البعد الثاني: عدم الثبات والاستقرار ............ ٨٢
البعد الثالث: خطورته على المجتمع ............ ٨٣
موقف الإسلام من النفاق ............ ٨٤
**الاستفادة الثانية: ظواهر المقت الإلهي ............ ٩٠**
الأولى: العذاب الدنيوي ............ ٩٠
الثانية: العذاب الأخروي ............ ٩٤
الثالثة: الاستبدال ............ ٩٥

الاستفادة الثالثة: الكيفيّة القتالية للمسلمين........ ١٠٠
القضية الأولى: النظم في المجتمع الجاهلي ........ ١٠١
العنصر الأول: النظم........ ١٠٥
العنصر الثاني: توزيع المسؤوليات........ ١٠٦
العنصر الثالث: الطاعة ........ ١٠٦
القضية الثانية: الإتقان في العملية القتالية........ ١٠٧
الاستفادة الرابعة: المعادلة الإسلامية في النصر........ ١٠٩
العامل الأول: الهدف........ ١١١
العامل الثاني: النصر الإلهي........ ١١٢
العامل الثالث: العامل المادي........ ١١٣
مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی
المقطع الثاني
البشارة بالنبي الخاتم صلى الله عليه وآله ........ ١١٩
الجهة الأولى: بحث المفردات ........ ١٢٢
الجهة الثانية: البحث التفسيري ........ ١٢٧
الآية الأولى: إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام........ ١٢٨
الآية الثانية: بشارة عيسى عليه السلام بالنبي ........ ١٣٢
الأمر الأول: تسمية النّبي صلى الله عليه وآله ........ ١٣٥
الأمر الثاني: البشارة بالنّبي صلى الله عليه وآله ........ ١٣٧
الآية الثالثة: الموقف الإلهي من تهمة السحر........ ١٤٧

**الجهة الثالثة: استفادات عامة ........................ ١٥٣**

**الاستفادة الأولى: الهداية والضلالة ...................... ١٥٣**

الأمر الأول: سُبل الهداية ..................................... ١٥٣

الهداية الخارجية ................................................. ١٥٥

الأمر الثاني: اختيار الإنسان للضلالة ........................ ١٥٨

الأمر الثالث: الإضلال من قبل الله ........................... ١٦٠

الخلاصة ............................................................ ١٦٢

**الاستفادة الثانية: التغيّر في الرسالات السماوية ............ ١٦٤**

أسباب تعدّد الرسالات .......................................... ١٦٦

النقطة الأولى: تطوّر الحياة الإنسانية ........................ ١٦٨

النقطة الثانية: الاختلاف على المفاهيم ...................... ١٧٢

النقطة الثالثة: الاستبدال ......................................... ١٧٤

**الاستفادة الثالثة: البشارة بين الادّعاء والحقيقة ............ ١٧٦**

الدليل الأول: البشارة في التوراة والإنجيل ................... ١٧٧

الدليل الثاني: الظاهرة العلمية التحليلية ...................... ١٨٥

**الاستفادة الرابعة: ما بين السحر والمعجزة .................. ١٨٧**

المعجزة ............................................................. ١٨٧

السحر ............................................................... ١٩١

الفرق بين السحر والمعجزة ..................................... ١٩٢

**الاستفادة الخامسة: الظلم ......................................... ١٩٥**

أ ـ نهج القرآن في التخاطب مع الناس ........ ١٩٥
ب ـ الظلم غريزة أم اكتساب؟ ........ ١٩٧

المقطع الثالث

إظهار الدين ........ ٢٠١
الجهة الأولى: بحث المفردات ........ ٢٠٣
الجهة الثانية: البحث التفسيري ........ ٢٠٥
الآية الأولى: النور والهداية ........ ٢٠٥
الآية الثانية: حاكمية الإسلام ........ ٢١١
الجهة الثالثة: استفادات عامة ........ ٢١٣
إظهار الدين ........ ٢١٣
البعد الأول: ظهور الدين بالأدلة ........ ٢١٤
البعد الثاني: الظهور الداخلي ........ ٢١٥
البعد الثالث: الظهور الخارجي ........ ٢١٦

المقطع الرابع

التجارة الرابحة ........ ٢٢١
الجهة الأولى: بحث المفردات ........ ٢٢٤
الجهة الثانية: البحث التفسيري ........ ٢٢٨
الآية الأولى: أفضل الربح ........ ٢٢٩

**الآية الثانية: رأس المال ...... ٢٢٩**

**الآية الثالثة: المغفرة والجنة ...... ٢٣٥**

الأثر الأول: غفران الذنوب ...... ٢٣٥

الأثر الثاني: دخول الجنات ...... ٢٤٤

**الآية الرابعة: النصر والفتح ...... ٢٤٧**

**الجهة الثالثة: استفادات عامة ...... ٢٥٠**

**الاستفادة الأولى: النظرية الإسلامية في القتال ...... ٢٥١**

الصراع بين الأصالة والاستثناء ...... ٢٥٢

خلفيات الصراع ...... ٢٥٥

أهداف ومبررات الجهاد ...... ٢٥٨

الهدف الأول: إبقاء العلاقة مع الله ...... ٢٥٨

الهدف الثاني: نصرة المستضعفين ...... ٢٦٠

الهدف الثالث: إقامة العدل الإلهي ...... ٢٦٣

شروط الجهاد ...... ٢٦٩

الشرط الأول: وجود القاعدة ...... ٢٧٠

الشرط الثاني: إقامة الحجة ...... ٢٧٢

الشرط الثالث: السلامة والقدرة ...... ٢٧٧

أ ـ الجهاد الدفاعي ...... ٢٧٧

ب ـ الجهاد الابتدائي ...... ٢٧٨

صور قرآنية ...... ٢٨٠

الاستفادة الثانية: الجهاد وأقسامه ........ ٢٨٢
القسم الأول: الجهاد بالنفس ........ ٢٨٢
القسم الثاني: الجهاد بالمال ........ ٢٨٢
علاقة الإنسان بالمال ........ ٢٨٣
العلاج القرآني لهذه الغريزة ........ ٢٨٤
المال والأولاد ........ ٢٨٥
الأول: الجهاد بالمال فريضة ........ ٢٨٧
الثاني: دور الإنفاق في عملية التغيير ........ ٢٨٨
القسم الثالث: جهاد النفس ........ ٢٨٩
المعنى الأوسع للجهاد ........ ٢٩٤
الاستفادة الثالثة: عصر النزول ........ ٢٩٥
الشاهد الأول: التعرض إلى الجهاد بإطاره الواسع ........ ٢٩٦
الشاهد الثاني: سبب النزول ........ ٢٩٨
الشاهد الثالث: سياق الآيات ........ ٢٩٩
المقطع الخامس
دعوة المؤمنين للنصرة ........ ٣٠١
أبعاد النصرة ........ ٣٠٤
فهرست المصادر ........ ٣٠٩